مقامات البربير

النشرات الإسلامية

أسّسها هلموت ريتر

يصدرها

المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت

٥٠

مقامات البربير

أحمد بن عبد اللّطيف بن محمّد البربير

(١٧٤٧ - ١٨١١م)

تحقيق

ماكس رُوبيرت شمُوكلار و ضِياء الأسوَد

بيروت ١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

المعهد الألمانيّ للأبحاث الشرقيّة

توزيع

دار الفارابي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

بيروت ١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

طبع بإشراف المعهد الألمانيّ للأبحاث الشرقيّة في بيروت

التابع لمؤسّسة ماكس فيبر (المعاهد الألمانيّة للدراسات الإنسانيّة خارج ألمانيا)

على نفقة وزارة الثقافة والأبحاث العلميّة في ألمانيا الاتّحاديّة

طُبع في الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان

الموزِّع

في الدول العربية: دار الفارابي للنشر والتوزيع - بيروت

ISBN 978-614-485-188-3

محتويات الكتاب

مقامات البربير ١١

١. فهرس الآيات القرآنية..... ١٣٣

٢. فهرس الأحاديث ١٣٥

٣. فهرس الأمثال والأقوال ١٣٧

٤. فهرس الأشعار ١٤١

٥. فهرس الأعلام ١٥١

٦. المصادر والمراجع ١٥٩

توطئة

النصّ الذي بين أيدينا مقامة واحدة وضعها مفتي بيروت أحمد البربير (١٧٤٧-١٨١١) وصلتنا في مخطوطةٍ وحيدة تستغرق مئة ورقة. موجودة في دار الكتب في القاهرة، مصر. والمقامة وهي عبارة عن لقاء طويل بين الأديب والراوي، تتقاطع مع أنواع أدبيّة عديدة كالحوار والنصيحة والموعظة. وتبدو المقامة أشبه بكتب الاختيار ذات الموضوعات المتعدّدة والقائمة على تتابع لبنات مختلفة. ففيها الآيات والأحاديث والأمثال والكلام المسجوع والشعر. ترد هذه اللبنات مقتبسة ومضمّنة؛ بعضها من تأليف البربير نفسه، وبعضها الآخر مستقى من عيون المصادر التي يسمّي البربير نفسه عددًا كبيرًا منها في سياق المقامة.

تتدرّج المقامة في موضوعاتها التي تشمل، على سبيل المثال لا الحصر، وصفَ المدن ومدحها وهجاءَها، والحنين إلى الوطن وذمّه، مشاعر الصداقة والعداوة والوفاء والغدر، وثيمتا الشيب والشباب، والتفكير في الدنيا والآخرة وتقلّبات الزمان وفساده، والبادية والحاضرة، واللغة والفصاحة والأدب والشعر، والحبّ وعلاماته، والشهوة والنساء والزواج. يدلّ هذا التنوّع في الموضوعات والمصادر والأشكال الأدبيّة على سعة ثقافة البربير وعمق معرفته بالتراث. ويميّز المقامة، بالرغم من كثرة النقول فيها، صوتُ البربير الخاصّ والحميم وفرديّته الواضحة في النصّ. فالبربير يتحدّث عن آلامٍ عاشها وناسٍ اختبرهم، وعن مدينة هجرها بعد أن عانى فيها ومنها، وعن مدينة احتضنته ورعته، وأصدقاء مال إليهم ومالوا إليه.

ويُظهِر سرد البربير المطوَّل اختلافًا واضحًا عمّا هو مأثورٌ عن البنية القصيرة التقليديّة للمقامة، ويشير ذلك إلى أنّ فهم البربير لهذا النوع الأدبيّ – بعناصره وحدوده – يفترق بشكلٍ كبيرٍ عن تصوّر أعلامه في الأدب القديم مثل الهمذانيّ (ت. ١٠٠٧) والحريريّ (ت. ١١٢٢)، وأعلامه في أدب النهضة مثل ناصيف اليازجي (ت. ١٨٧١) وعبد الله النديم (ت. ١٨٩٦) وأحمد فارس الشدياق (ت. ١٨٨٧) ومحمّد المويلحي (ت. ١٩٣٠). وللحريريّ دورٌ أساسٌ في إرساء شكل المقامة بصفتها نوعًا أدبيًّا قائمًا بذاته، ولكن لم يلتزم جميع الأدباء الذين أخذوا عنه بمضمون مقاماته البيكارسكيّ. والنصّ الذي بين أيدينا خير دليلٍ على ذلك.

وُلد أحمد البربير في مدينة دمياط الواقعة في دلتا النيل المصريّة يومَ الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٧٤٧. واسمه الكامل هو أحمد بن عبد اللطيف بن محمّد البربير، وينحدر من أسرةٍ شاميّة عريقة تُعرف بعلمائها. كان والده عبد اللطيف البربير تاجرًا من جبل لبنان، وهاجر إلى دمياط في العقود الأولى من القرن الثامن عشر. نشأ البربير وتعلّم في مصر؛ وعمل مفتيًا في بيروت؛ ثمّ هاجر بعدها إلى دمشق وقطن في منزل محمّد خليل بن علي المرادي (ت ١٧٩١)، مفتي دمشق الحنفيّ، وواحدٌ من أبرز الشخصيّات الفكريّة والروحيّة في زمانه، وابن عائلةٍ دمشقيّةٍ مرموقة. انتقل البربير بعدها ليعيش في ظلّ محمّد باشا العظم (ت. ١٧٨٣)، الوالي العثمانيّ على دمشق، منذ العام ١٧٧٣ إلى حين وفاته بعد عشر سنوات.

تقدِّم مقامات البربير صورةً غنيّةً عن الحياة الأدبيّة والمشاركين فيها نهايةَ القرن الثامن عشر في دمشق. فالراوي في هذه المقامات يأتي على ذكر الصالونات والاجتماعات الأدبيّة التي شكّلت مسرح هذه المقامة وجمهورها. وبذلك يمكننا

القول إنّ صاحب مقامات البربير قد كتبها ليقرأها رعاته والحاضرين في مجالسهم التي تضمّ عادةً نخبًا أدبيّة ودينيّة.

أشيد بالجهود التي بذلها الباحثان ماكس شموكلر وضياء الأسود في لفت الانتباه إلى هذه الفترة الزمنيّة المهملة من الأدب العربيّ، وأهنّئهما على تحقيقهما الممتاز وفهارسهما المفيدة، وعنايتهما بهذه المخطوطة، وتقديمها للقارئ بحلّة قشيبة.

بلال الأرفه لي
أستاذ كرسيّ الشيخ زايد للدراسات العربيّة والإسلاميّة
الجامعة الأميركيّة في بيروت
بيروت ٢٠٢١

[١أ] مقامات البربير

ممّا صار نسخُه بالمدينة المنوّرة ومضافٌ على رفّة الكتبخانه
ومضاف فيها ٥ مايو سنة ١٨٨٢ ع ١٨٢٦٠
نمر [٥] ٤٨٠ أدب
[١ب] بسم اللّه الرحمن الرحيم

حكى بليغُ هذا الزمن والعصرِ مَن حديثُه ألذُّ من سُلافة العصر قال: كنتُ مذ خرجتُ من المَشيمَة، وعُلِّقَتْ عليّ التميمةُ، لا يسكنُ تحريكُ مهدي إلّا بإنشاد الأدب بأصوات الدخول والطرب، فلمّا بلغتُ سنَّ التمييز، وفُقْتُ لِداتي في التبريز[١]، جالستُ أهلَ الآداب، وجانستُ الشيوخَ من أهله والشباب، حتّى أتْرَعتُ منه وِطابي[٢]، وملأت منه إهابي، وامتزج بلحمي ودمي، ولم تفتُر[٣] إليه من السعي قدمي، وكنت إذا سمعت بروضة من رياضه وغيضة من غياضه شددتُ إليها الرحال، وألقيتُ عندها التَّرحال، حتّى أتنسّم قَبولَها وشَمالها[٤] وأتفيّأ فيئها وظِلالها، وأنشق أزهارها وأجني ثمارها وأتخيّر خيارها وأصحب شموسها وأقمارها.

فلمّا بلغتُ مبلغ الرجال وقاربَ بدرُ أدبي ليلةَ الكمال، نَشَطتِ النفسُ

(١) كما ورد في حاشية المخطوط: التبريز هو البراعة من قولك برّز الفرس إذا سبق الخيل في الحلبة.
(٢) في الحاشية: الوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن.
(٣) «يفتر» في الأصل.
(٤) اسمان من أسماء الريح عند العرب.

العزوفُ[١] العَروفُ إلى امتداح كلّ جواد معروف بالمعروف، فوضعتُ حبلها على غاربها وقلتُ لها: جولي في مشارق الأرض ومغاربها، فقالت: ليس لي مَيل وعشقْ إلّا في التوجّه إلى دمشق، وذلك لأنّها بلدُ المكارم وسكن الأكارم وعَرين الأُسْد الضراغم، وفلك الشموس والأقمار وجنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار، لا ترى فيها غير بحر علمٍ وكرم أو ليث غاب وأَجَم، أو غزال لا يُؤخذ المِسك إلّا من شاماته ولا يُقطف الوردُ ويُجنى إلّا من وجناته، أو غزالة تصيد الأُسْدَ بشَرَك ألحاظها وتسحر العقولَ بسحر ألفاظها، أو نديمٍ وسيم [٢أ] كأنّما طبعُه النسيم، أو مطرب يُعْرِب إذا[٢] شدا «فما البَلابل» وإذا ترنّم «فما خمرةُ بَابِل».[٣]

فقلتُ لها: قد تخيّرتِ أحسنَ الأمصار وطلبتِ أكرمَ منزولٍ به وجار، واستوثرت الفِراشَ وقصدتِ أجملَ الرِّياش[٤] وأرغدَ المعاش، ولكنْ تخيّري لأبكار أفكارك الأكفاء وإيّاكِ ومَن تذهب عنده كما يُذهِب الغيثُ الجُفاءَ[٥]، فالكريم من يغار على بنات أدبه كما يغار على بنات نسبه، وما كلّ مِعصَم يصلح للسِوار ولا كلّ جِيْد يحسن له العِقد أو طوقُ النُّضار. فقالت: لا توصِ حكيمًا ولا تعلّم عليمًا، وإنّي وإنْ كنتُ ما تغرّبتُ فطالما تمرّنت من مطالعة سِيَر الخَلْق وتدرّبت، وحسبي قول الشاعر: [من الطويل]

توقّـوا نفوسًـا أُشْـبِعَت بعـد جوعهـا ولـو شَـبِعَت فـالجوعُ فيهـا مُقـرِّح

(١) في الحاشية: العَزوف هي التي تهان الشيء وتسأم منه. هكذا وردت في الأصل.
(٢) في المخطوط «إذ».
(٣) من الراجح أنّ المؤلّف يشير إلى ديوان خمرة بابل وغناء البلابل للشيخ الصوفي والشاعر عبد الغني النابلسي (ت. ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م).
(٤) في الحاشية: الرياش المال والحالة الجميلة.
(٥) في الحاشية: الجفاء ما يعقبه السيل قال الله تعالى: ﴿وأمّا الزبدُ فيذهبُ جُفاء﴾ [سورة الرعد: ١٧].

وقول الآخر[١]: [من الطويل]

سَلِ الفَضْلَ أَهْلَ الفَضْلِ قِدْمًا ولا تَسَلْ عديمًا رَبا في الفقر ثمّ تَمَوّلا
فلو جادتِ الدنيا عليه بأسْرها تذكّرَ ما قاسى من الفقر أوّلا

وقد كنتُ قلتُ أنا: [من مجزوء الكامل]

وإذا اضْطُرِرْتَ لبذل ما ء الوجه من خَطبٍ أناخ
فاخترْ له خيرَ البقا ع ولا تُرِقْهُ في السِّباخ

وفي الحديث: «اطلبوا الخيرَ من حِسان الوجوه»[٢] وفيه أيضًا: «اطلبوا الخير من رُحماءِ أُمّتي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنّ اللعنة تنزل عليهم»[٣] ومن دعاء هند بنت الملك النعمان لسعيد بن العاص[٤] حين أحسنَ إليها[٥]: «ملكتْك يدٌ افتقرت بعد غنى [٢ب] ولا ملكتْك يد استغنت بعد فقر ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجةً».

ثمّ أخذتُ في أُهْبة السفر من تلك السواحل والبقاع وطفتُ بالأهل والأصحاب طوافَ الوداع، فارتفعتْ لذلك الأصواتُ وانهَلَّتْ سحائبُ العَبَرات وتتابعَ التلهّفُ

(١) هناك بيت قريب من معنى هذا الشعر وهو:
سل الخيرَ أهلَ الخيرِ قدمًا ولا تسلْ فتًى ذاقَ طعم العيش منذ قريب
وهوَ في: الدرّ الفريد: ٦/٤٤٣. منسوب لامرأة من ولد حسّان بن ثابت. ولحرقة بنت النعمان بن المنذر في: خزانة الأدب: ٧/٦٨.

(٢) انظر قضاء الحوائج: ٤٨-٥٢. واعتلال القلوب: ١٦٦-١٦٧. والأوسط: ٤/١٢٩. وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٦/٣٧٦.

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٤/٧٨ بلفظ «اطلبوا الفضل...». وضعيف الجامع الصغير: ١٣٠ بلفظ «اطلبوا المعروف...».

(٤) سعيد بن العاص (ت. نحو ٣هـ/ ٦٢٤م) من سادات أُمية في الجاهلية. انظر الأعلام: ٣/٩٦.

(٥) انظر سرّ الفصاحة لابن سنان: ٢٦٨.

والحَسَراتُ، فمِن قائل: لا كان يوم الفراق ومن قائل: متى يكون التَّلاق؟ ومن صائح: هذه حالنا وأنت فينا فكيف إذا غبت وتحكّمتِ الأشواق؟ وأنا أخفض عليهم وأُهدِنهم[١] وأكسر سَورة أشجانهم وأُسَكّنهم وأُنشِدُ: [من البسيط]

لـولا الضـروراتُ مـا فـارقتُكم أبـدًا ولا تنقّلــتُ مــن نــاسٍ إلــى نــاسِ

ولمّا سمعوا منّي ذلك الإنشاد فهموا منه أنّ الباعث لي على فراقهم عدمُ وجدان ما يقوم بالأهل والأولاد فقالوا جميعًا: فداك أرواحُنا وأموالنا وأهلونا وعيالنا فالكلّ لك مِلكٌ ونحن لك عبيدٌ، واللهُ على ما نقول شهيد، فاحتكم فيما ذُكِر بكلّ ما تشاء وتريد، فقلت: والله إنّي لا أجحد سماحة نفوسكم وكثرة معروفها ولا أكفر ما أسديتموه إليّ من مئات تكرّماتكم وألوفها ولكنّ ألذّ الغذاء ما صاده المرء بيده وذلك لأنّه لا يحصل إلّا بعد إتعاب روحه في تحصيله وجسده وما ملكتْهُ اليدُ زهدتْه النفوس وأحبُّ الشيء إلى المرء ما هو في ملك غيره محبوس كما قال الشاعر[٢]: [من البسيط]

أحبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

وقال أعرابيّ لأمّ ولده[٣]: [من الكامل]

لـولا الطـرادُ الصـيدُ لـم تـكُ[٤] لـذّة فتَطَــارَدِي[٥] لــي بالوصــال قلــيلا

(١) في الحاشية: قوله أهدنهم أي أثبّتهم أسكنّهم منه.
(٢) البيت لمجنون ليلى ومطلعه: وزادني كلفًا في الحبِّ أن مُنِعَتْ. انظر ديوان مجنون ليلى: ١٥٨.
(٣) البيت لكشاجم، انظر ديوانه: ٤٦٥. والذخيرة لابن بسام: ٣/ ٣٨٧. والبيت بلا نسبة في زهر الآداب: ١/ ١١. وروضة المحبّين: ١٣٥. وصبح الأعشى: ١٤/ ٣٢٢.
(٤) «تكؤ» في الأصل.
(٥) «فتَطَارِدِي بكسرة الراء» في الأصل.

[٣أ] فقالوا: حيث كان هذا جالبَ أنسك ومشتهى نفسك، ونحن عندك غيرُ مقصّرين وإنْ كنّا في غاية القصور وتحقّقنا أنّ ريحنا عند جنابك قَبول لا دَبور[١] فنرجو سرعة الأوْبة وقِصَرَ الغيبة، فقلت: وهل للسيف غير قِرابه وللأسد مثل غابه؟ فأنا على ذلكم[٢] أشدّ حرصًا إذ هو مُنيتي وغرضي الأقصى، كما قال الشاعر[٣]: [من الطويل]

سأطلب بُعْدَ الدارِ عنكم لِتَقْرُبوا وتَسكُب عيناي الدموعَ لِتَجمُدا

ثمّ امتطيت جوادي وشرعت أجوب كلَّ جبل ووادي حتّى انتهيت إلى سطوح المَزَّه[٤] وتبدَّتْ لنا عروسُ دمشق في أحسن بَرزة وأجمل بزَّة، فرأيتها الجنّة حُفّت بالمكارم لا بالمكاره وعوّذتها بالله هي ووجوه أهلها المَداره[٥]، وأسرعت إليها إسراع الصبا والشمال[٦] وقابلني من رياضها جنّتان عن يمين وشمال حتّى وصلت إلى منازل بُدورها ومتّعت النظر بدارتها وبِدُورِها فوجدتُها بلدةً طيّبةً ومُزْنةً صيّبة، ورأيت أهلها تُستصغَر عند علومهم البحارُ وعند أياديهم الأمطارُ وعند جمالهم الشموسُ والأقمار، وعند ألحانهم تَغَارِيْدُ البُلبُل والهَزار ورنّات الأوتار، ويُستجفى عند أخلاقهم نسيمُ الأسحار. فأمّا علماؤهم فيَقصُرُ عن مدح كمالهم البديعُ ولو نظم في شعره الشِّعرى، ويبطل عند معجز كلامهم البيانُ وإنّ من البيان لسحرًا.

(١) اسمان من أسماء الريح عند العرب.
(٢) «ذالكم» في الأصل.
(٣) البيت للعبّاس بن الأحنف. انظر ديوانه: ١٠٦. وصبح الأعشى: ٢/٢٨٩. والوساطة بين المتنبّي وخصومه: ٢٣٤.
(٤) المَزَّه إحدى مناطق مدينة دمشق.
(٥) في الحاشية: المداره كمنابر جمع مِدْرَه كمِنْبَر وهو زعيم القوم المتكلّم عنهم.
(٦) اسمان آخران من أسماء الرياح عند العرب.

شعر[١]: [من البسيط]

مَنْ تلقَ منهمْ تَقُلْ لاقيتُ سيّدَهم مثل النجوم التي يُهدَى بها الساري

وأمّا مواليهم فقد جمع كلٌّ منهم بين معاني المولى وكان بذلك [٣ب] الجمع أحرى وأولى، فجمع بين العزّ والخضوع ونصرة المظلوم وتأمين المَرُوْع مثل المختارِين من بنوّة النبوّة آل حمزة[٢] وآل عجلان[٣] والمتفرّعين من دوحة الصدّيق[٤] الذين دعا لهم جدّهم بالصَلاح كما ورد في القرآن، ومثل آل العماد[٥]

(١) البيت لعبيد بن العرندس الكلابي. انظر: الكامل للمبرّد: ١/ ١٣٢. والحيوان: ٣/ ٩٥. وشرح ديوان الحماسة: ٢/ ١٥٩٥. وأمالي القالي: ١/ ٢٣٩. وبلا نسبة في عيون الأخبار: ١/ ٢٢٦.

(٢) آل حمزة من الأسر الدمشقية الشهيرة، أتى جدّهم إسماعيل بن حسين الحراني (ت. ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) من بغداد إلى دمشق وتولّى نقابة الأشراف فيها. خرج من هذه الأسرة عدد من نقباء الأشراف والعلماء، وكانت فيهم خدمة مقام رأس الحسين في مسجد بني أمية. انظر معجم الأسر والأعلام الدمشقية: ١٦٥-١٦٩ وسلك الدرر ١: ٢١، ٢: ١٥٦، ٣: ٦٦، ٢٠٦ وحلية البشر ١: ٣١٠-٣١١، ٥٥٨، ٢: ٦٧٢، ٦٧٥، ٩٢٠، ٣: ١٣٢٨-١٣٣٠، ١٤٦٧-١٤٧٧ وروض البشر ٥٢، ٧٤-٧٥، ٧٨-٧٩، ١٠١، ١٥٧-١٥٨، ٢٥١-٢٥٤.

(٣) آل عجلان من الأسر الشريفة القديمة كان جدّهم محمد أبي البشائر الحسيني الذي ينتهي نسب أمه إلى السيد أحمد الرفاعي. قد قدم أبو البشائر من مصر في أواخر القرن الثامن للهجرة وولي نقابة الأشراف ومشيخة الحرف بأمر من سلطان المماليك. انظر معجم الأسر والأعلام الدمشقية: ٣٣٥-٣٣٩ وسلك الدرر ٣: ٢٠٦-٢٠٨ وحلية البشر ١: ١٦٨، ٣٤٠-٣٤١، ٥٣٦-٥٣٧، ٥٥٩، ٢: ٦٢٦، ٦٦٨-٦٦٩، ١٠٤٢-١٠٤٤، ٣: ١٢٤٧ وروض البشر ٣٦، ٥٦، ٦٣، ٧٩، ١٠١، ١٠٤، ١١٢.

(٤) أبو بكر الصّدّيق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي (ت. ١٣هـ/ ٦٣٤م) أوّل الخلفاء الراشدين. انظر الأعلام: ٤/ ١٠٢.

(٥) آل العمادي من الأسر الدمشقية قدمت من مدينة بخارى وسكنت مدينة دمشق منذ أوائل العهد العثماني. انظر معجم الأسر والأعلام الدمشقية: ٣٨٠-٣٨٢.

وآل المُرادي[١] من كلّ بدر كامل ونجم هادي، وأمّا أمراؤهم فقد حازوا المروءة برُمَّتها وقادوا الفُتُوَّة بأزِمَّتها وطلعوا في تلك المنازل بدورًا وفاضوا في أرجائها بحورًا من كلّ جواد وصل إلى الغاية في حَلَبَة الكرم وارتفع فوق كِيوان[٢] في علوّ الهمم.

شعر[٣]: [من الطويل]

كـريمٌ متـى أمدحْـهُ أمدحْـه والـورى معـي وإذا مـا لُمتـه لُمتـه وحـدي

وأمّا تجّارهم فقد أتجروا في صالح الأعمال ورضوا بالثواب ربحًا وبالثقة بالله رأسَ مال، وقاموا بخدمة مولاهم وشكروا نعمَه الوافرة فجمع الله لهم بين الدنيا والآخرة. وأمّا أهل الصناعات منهم والحِرَف فلهم علوّ همم، ولنفوسهم أعلى شرف فشرعت في مدح ساداتهم لأخْبُر طباعَهم وأخلاقهم وعاداتهم، فكأنّني مدحت آلَ مِرْداس[٤] وأصبحت عند رشيدهم وأمينهم ومأمونهم كأبي نُواس[٥] ووردتْ عليّ

(١) آل المُرادي عائلة دمشقية شهيرة بالعلم والفضل، تنسب إلى محمّد مُراد بن علي ابن داود بن كمال الدين البخاري السمرقندي الحسيني (ت. ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م)، كان فقيهًا حنفيًّا كبيرًا، وشيخَ الطريقة النقشبندية. وقد خرج منهم جماعة من الأعيان والعلماء الأعلام وتولّى عدد منهم الفتوى ونقابة الأشراف. انظر معجم الأسر والأعلام الدمشقية: ٤٩٤-٤٩٦. وسلك الدرر ٤: ١٢٩ وهو فيه «مراد المرادي». كذلك انظر سلك الدرر ١: ٢٥-٣٠، ١٤٥-١٤٨، ٢: ٧٠-٧٢، ٢١٨-٢١٩، ٣: ٢١٩-٢٢٨، ٤: ١١٤-١١٦، ٢١٥-٢٢٨ وحلية البشر ١: ٣٢٣-٣٢٤، ٥٣٣، ٢: ١٠٠٧-١٠٠٨، ٣: ١٣٩٣-١٤٠٥ وروض البشر ٧٥-٧٦، ٨٧-٩٤، ١٦٥-١٦٦، ١٨٤-١٨٧.

(٢) كِيوان: كوكب زُحل.

(٣) البيت لأبي تمّام. انظر ديوانه: ٢/ ١١٦.

(٤) آل مرداس أسرة عربية أسّست الدولة المرداسية في بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي.

(٥) أبو نواس: الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكميّ (ت. ١٩٨هـ/ ٨١٤م) شاعر قد نظم في جميع أنواع الشعر وأجود شعره خمرياته. انظر الأعلام: ٢/ ٢٢٥.

منهم التحفُ والألطاف حتّى كأنّني نزلت على آل عبّاد[١] وآل عبد مناف. هذا مع احتفالهم بنظمي وتنويههم باسمي وتعليلهم مزاجي ومبادرتهم إلى ما يجلب سروري وابتهاجي، فعشت فيهم بين رياض وغُدران حتّى قيّدني إحسانُهم عن الرجوع إلى الأوطان.

شعر[٢]: [من الطويل]

وراشوا جناحي ثمّ بلّوه بالندى فلم أستطعْ من حيّهم طيرانا [٤أ]

ولم أزل معهم في أطيب عيش وأرغدِه وأيمن وقت وأسعده حتّى كشفتْ لهم المَنيّةُ أستارَها وأنْشَبَتْ فيهم مخالبَها وأظفارَها، وأخْلَتْ منهم أماكنهم ﴿فأصبحوا لا يُرى إلّا مساكنُهم﴾ [الأحقاف ٢٥] ﴿كأنْ لم تَغْنَ بالأمس﴾ [يونس ٢٤] ولم يكن بها بدرٌ ولا شمس.

[شعر:]

فيا لهفَ نفسي على كرامٍ منهمُ درجوا ودخلوا بيوت أجداثهم فما خرجوا

كانوا للأدب والفضل أساسًا وللعزّ والمجد راسًا، فشُعبة شعوب كلّ ظرف منهم مُلِئ بالظرافة ولم تغادر في ضَرْع الدهر منهم شفافة ولا عفافة[٣] وقد أصبحتُ بعدهم أوْلهَ مِن صَبٍّ وأحْير مِن ضَبٍّ، وأبكى من الخنساء[٤] وأضيق

(١) آل عبّاد أسرة عربية قد أسّست مملكة في الأندلس أثناء القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

(٢) نُسب للمرقّص بن اللبانة في: خزانة الأدب: ١/ ٤٦٤. ونفح الطيب: ٣/ ١٩٩. وبلا نسبة في الدر الفريد: ٣/ ٢٧٥. ورواية البيت في هذه الكتب «أراشوا» بدل «وراشوا».

(٣) في الحاشية: الشفافة والعفافة بقية اللبن في الضرع.

(٤) الخنساء: تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سُليم (ت ٢٤هـ/ ٦٤٥م) أشهر شواعر العرب، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية. انظر الأعلام: ٢/ ٨٧.

صدرًا من الخرساء، وأكمدَ من الحُبارى وأذهل من السَكارى، ورأيت أنّ الغريب من درجت أترابُه وانتقلت إلى الآخرة أحبابه وأصحابه، فبقي كالجسد بلا راس والبُنيان بلا أساس، وإنّ جَهْدَ البلاء بقاءُ المرء بعد شُرب أقرانه كأسَ الفَناء، كما قال صاحب لاميّة العجم رحمه الله تعالى[١]: [من البسيط]

هـذا جـزاءُ امـرئٍ أقرانُـه درجـتْ مِـن قبلـه فتمنّـى فُسْـحةَ الأجـلِ

ثمّ تأمّلتُ الزمانَ فرأيتُه قد لبس بعدهم ثوب الوقاحة[٢] وركب مطيّةَ الفضاحة، وذلك لمغيب من كان يذوب منه خجلًا ويظلّ منهم وَجِلًا، هذا وقد سرى السرُّ منه إلى بنيه إذ الولدُ سِرّ أبيه، ولا ريب في أنّ الإنسان ماء والدهر له ظرف وإناء، ومن خواصّ الماء عند علماء الدهر وحكمائه أنّه لا لون له وإنّما يتلوّن بلون إنائه، ولذا قال بعض السلف: «الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم»[٣].

شعر[٤]: [من الكامل]

وإذا جفـاك الـدهرُ وهْـو أبـو الـورى جهـلًا فـلا تعتـبْ علـى أبنائـه

فدهرنا مختون[٥] ونسله مفتون[٦] ولا يُلام من حكى آباءه في الشِيَم [٤ب]

(١) انظر ديوان الطغرائي: ٣٠٧.

(٢) في الحاشية: الوقاحة الجرأة على القبائح وعدم المبالاة بها ذكره البيضاوي عند إنّ الله لا يستحيي بلغ [كذا].

(٣) انظر المقاصد الحسنة: ٦٨٩.

(٤) لأبي الحسن التهامي، انظر ديوانه: ٢٠٤. والدر الفريد: ٤٩/١٠. وشذرات الذهب: ٨٣/٥. والنجوم الزاهرة: ٢٦٤/٤. والرواية في هذه الكتب وفي الديوان «أولاده» بدل «أبنائه».

(٥) «مجنون» في الأصل وصوابه من الهامش.

(٦) في الحاشية: قوله مختون أي مُجدِب مُمحِل.

ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم، وفي المثل «عشْ رجبًا، تَرَ عجبًا»[١] وفي مجمع البحار عن مكحول[٢] في قوله تعالى: ﴿لتَركَبُنّ طَبَقًا عن طَبَق﴾ [الانشقاق ١٩]، قال: معناه لَتجدنّ في كلّ عشرين عامًا أمرًا لم تكونوا عليه فيما سبق.

ولمّا رأيتُ تراكمَ الأهوال وتغيّرَ الأحوال والأحوال وتقدّم الجُهّال وتأخّر ذوي الفضل والأفضال، صرتُ لبيتي حِلْسًا[٣] وطبت بالعزلة نفسًا امتثالًا لحديث: «إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا وهوى متَّبعًا وإعجابَ كلّ ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك»[٤] وفي الحديث أيضًا: «جنّة الرجل داره»[٥] وفي التوراة[٦]: «السلامة في العزلة»[٧] وفيها: «إذا كان في البيت بُرٌّ فتعبّدْ وإن لم يكن فاطلب»[٨] و«نِعْمَ صومعة الرجل بيته»[٩]. هذا وقد جعلتُ صبري جليسًا وكتابي أنيسًا وتوكّلت على رزّاق النُعاب في عشّه[١٠]

(١) هذا المثل قاله الحارث بن عُباد بعد طلاق إحدى نسائه هوت رجلًا آخر وكانت تُظهر له من الوَجد به ما لم تكن تظهر للحارث، فلقِيَ زوجُها الحارثَ فأخبره بمنزلته منها فقال الحارث «عِشْ رَجَبًا تَرَ عَجَبًا». وقيل رَجَب كناية عن السَّنَة. انظر مجمع الأمثال: ٢/ ٣٤٠ رقم ٢٤٣٣. والمستقصى: ٢/ ١٦٢ رقم ٥٤٨.

(٢) مَكْحُول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل أو مَكْحُول الشاميّ (ت. ١١٢هـ/ ٧٣٠م) فقيه الشام في عصره ومن حفاظ الحديث. انظر الأعلام: ٧/ ٢٨٤.

(٣) في الحاشية: الحِلْسُ قال في القاموس وهو حِلْسُ بيته إذا لم يبرح مكانه.

(٤) انظر سنن أبي داود: ٦/ ٣٩٦. وجامع الترمذي: ٥/ ١٤٦. وسنن ابن ماجة: ١٣٣٠-١٣٣١.

(٥) انظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٥٥٥. واللطائف والظرائف: ٣٢.

(٦) «التورية» في الأصل.

(٧) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٥/ ١٨١. والحديث الكامل هو «إن كان الفضل في الجماعة، فإن السلامة في العزلة». وكتاب الزهد الكبير: ٩٤-٩٥. وروضة العقلاء ونزهة الفضلاء: ٨٥ بلفظ «إن كان في مخالطة الناس خير فالعزلة أسلم».

(٨) انظر التمثيل والمحاضرة: ١٣.

(٩) انظر المقاصد الحسنة: ٧٠٠.

(١٠) في الحاشية: النعاب فرخ الغراب حين يخرج من البيضة وذلك لأنه يخرج قطعة لحم لا ريش له فإذا رآه أبوه وأمه هربا منه فزعًا فعند ذلك يرسل الله له الذباب يحول حول منقاره فليلتقط منه ويقتات حتّى ينبت ريشه.

والمريض في فرشه والدود في الصَخْرة الصمّاء والجنين في ظلمة الأحشاء وأنشأتُ أقول: [من مجزوء الرجز]

لازمـــــتُ داري مِثْلَمَـــــا لازم ضـــــبٌّ نَفَقَـــــه
فلـــم يـــدعْني خـــالقي ســـبحانه مـــن نَفَقَـــة

وممّا أنشأته في ذلك الزمان قولي: [من الخفيف]

قـد تركـتُ الـورى ورُبَّ نـديمٍ خيفـةَ السُّـكْر بـانَ يـتركُ راحَـه
وكففـتُ اللقـاءَ طـرًّا عـن النـا س لعلمـي بـأنّ في الكـفّ راحـة

ومنه قولي: [من الوافر]

توشّـحْ بـالخمول فخيـرُ حـرّ[1] مـدى الأيّـامِ صـيّره وشـاحة
وهأنـا مُـبهِمٌ أمـري لأنّـي أرى الإبهـامَ أوّل كـلِّ راحـة

ومنه قولي: [من السريع]

سـألتُ دهـري لِـمَ أضـمرتَ مَـن مِـن حقِّـه الإظهـارُ يـا أعـوزْ؟ [٥أ]
فقـال: لا أبغـي لـذي الفضـل أنْ يكـون في الـدنيا لهـم مَظهـرْ
أمـا تـرى الله بهـا باطنًـا وسـوف في ضَـرَّتها يَظهـرْ؟

ولعَمري ما اخترتُ الجلوس وحدي إلّا لعلمي بأنّ سوء الأخلاق يُعدي.

قال الشاعر[2]: [من السريع]

كـلُّ امـرئٍ في طبعـه أجـربْ لا يـأمنُ العـدوى بـه الأقـربْ
طَبْـعُ الفتـى يَسـرِقُ مِـنْ طَبـع مَـنْ يَصـحَبُهُ فـانظر لِمَـن تَصـحَبْ

(١) كُرّر «ثم شُطب» في الأصل.
(٢) البيت الثاني بلا نسبة في زهر الأكم: ١/ ٢٥٢.

وقال آخر[١]: [من الطويل]

وما ينفع الجرباء قُربُ صحيحةٍ إليها ولكنّ الصحيحةَ تُجْرَبُ

وفي الحديث: «فِرّ من المجذوم فِرارك من الأسد»[٢] وأنت خبيرٌ بأنّ جذام القلب أعظمُ من جذام الجسد، وقد ابتلى اللهُ قلوبَ أهل زماننا بالجُذام فنسأل الله أنْ يُبريَهم من الأمراض والأسقام. وممّا يدلّ على أنَّ الطباع سرّاقةٌ حديث: «اصرم الأحمق»[٣] وحديث: «أنّه نهى أن تُستَرضَع الحَمقاء»[٤] وذلك خوفًا أنْ يُعدِي طبعُها الرضيعَ، وفي الأحاديث المشتهرة للسخاوي[٥] حديث: «الرضاع يغيّر الطباع»[٦] وفي ذلك يقول الشاعر[٧]: [من البسيط]

فربّما لبن الدَّايات غيّره عن طبع أجداده الغُرّ الميامينِ

والحمق وضع الشيء في غير محلّه مع العلم بقبحه وشَينه، وهو داء عُضال ليس لصاحبه دواء إلّا شرب كأس حِمامه[٨] وحَينه، ولذا قال عيسى عليه الصلاة

(١) البيت بلا نسبة في: الدر الفريد: ١١/ ٢٥٥. وقلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان: ٤/ ١٠٣. وعجائب المقدور في أخبار تيمور: ٢٦٠. وكتاب غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: ٢/ ٤٧٨.

(٢) انظر صحيح البخاري: ١٤٤٧. ومسند أحمد: ١٥/ ٤٤٩.

(٣) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ١٣/ ١٨٥.

(٤) انظر كتاب المراسيل لأبي داود: ٢٩٣-٢٩٤. والسنن الكبرى: ٧/ ٧٦٥. وكشف الأستار عن زوائد البزار: ٢/ ١٦٩.

(٥) محمد بن عبد الرحمن بن محمد، شمس الدين السخاوي (ت. ٩٠٢هـ/ ١٣٩٧م) مؤرّخ حجة وعالم بالحديث والتفسير والأدب. انظر الأعلام: ٦/ ١٩٤.

(٦) انظر المقاصد الحسنة: ٣٦٨. ومسند الشهاب: ١/ ٥٦. والفردوس بمأثور الخطاب: ٢/ ٢٨٠. وضعيف الجامع الصغير: ٤٦٣. وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٨/ ١٤١.

(٧) بلا نسبة في: البديع لابن المعتزّ: ٣٦. ورواية البيت فيه: إن لم يكن لبنُ الداياتِ غيّره عن فعل آبائه الغرِّ الميامين.

(٨) «حِمارمه» في الأصل.

والسلام: «عالجتُ الأكمهَ والأبرص فأبرأتهما وعالجت الأحمقَ فأعياني»[١] وقال الشاعر[٢]: [من البسيط]

لكـــلِّ داءٍ دواءٌ يُســـتَطَبّ بِـــهِ إلّا الحَماقـةُ أعيـت مَـن يُـداويها

هذا وقد وقع في قلوب أهل عصرنا المسخُ حتّى حكموا على أحاديث مكارم أخلاق [٥ب] أسلافهم بالنسخ.

شعر: [من الطويل]

وما المسخُ في الإنسان تغييرُ صورةٍ ولكنّـه[٣] سـلبُ اللطافـةِ والأنـسِ

فمن طباعهم الفظيعة وأخلاقهم الشنيعة أنّ الصديق إذا زارهم كنسوا لحضوره ورشّوا وهشّوا لقدومه وبشّوا، وأقبلوا عليه إقبالهم على الدنيا وما فيها من الحُطام وكرّروا له التحيّة ولطّفوا له عبارة الكلام، هذا وقلوبهم تلعنه وتطلبُ سرعة فراقه وتتمنّى أنّ أمّ قشعم[٤] تجذبه عنهم بأطواقه، فإذا انصرف عنهم عصبوا سَلْمَته ونحتوا أثْلته ومزّقوا فروته وأكلوا لحمه وحملوا مع أثقالهم إثمه، فهم في الوجوه مرايا وفي الأقفية مقاريض، وهم قباب تحتها الحشوش والمراحيض، كما أنّهم عطيّة مادر[٥] ونزغة مارد، وفضلات مَن درج مِن أصولهم الأماجد، أحمق من النَعام وأضلّ من الأنعام، يهربون من مدائح الشعراء هروب الشيطان من الأذان، ويخافون مدّ اليد ولا يخافون مدّ اللسان، وما فيهم إلا كُسَير

(١) انظر ربيع الأبرار وفصوص الأخبار: ١/ ٢٤٥.
(٢) بلا نسبة في: العقد الفريد: ٢/ ٢٢٦. ومحاضرات الأدباء: ١/ ٢٨. والتذكرة الحمدونيّة: ٣/ ٢٦٨. وربيع الأبرار: ٢/ ٣٩. ونهاية الأرب: ٣/ ٣٥٤. والمستطرف: ٢٣.
(٣) في الأصل "ولكنّها".
(٤) في الحاشية: أُم قشعم المنيّة والداهية.
(٥) مادِر: لقب مُخارِقٍ لئيمٍ من بني هِلال بن مالِك بن صَعْصَعَة، سقى إبله فبقي في الحوض قليلٌ فسلح فيه ومدر الحوض به. (لسان العرب، مدر)

وعُوَير وكلٌّ غير خير، يفرُّ منهم كلُّ ذي طبع لطيف ويختار العزلة عنهم ولو في كنيف.

ولذا بعدتُ عنهم بُعْدَ العَيُّوق[١] وبيضَ الأَنُوق[٢] وفررت منهم فرار موسى عليه السلام من الأقباط وخفت أن يُلقوني في جُبّ كيدهم، كما فَعل بيوسف عليه السلام بقيّةُ الأسباط، فلم أزل في داري كالحَرف مبنيًّا على السكون، أو كالعضب واراه جَفنٌ من الجفون، أنتقلُ فيه من روض كتاب إلى[٣] روض كتاب وأدير على الأفكار رحيق ما في حانة الكتب من الآداب وقد كنت أروّح النفس في كلّ أسبوع بالبروز إلى بعض رياض دمشق الأنيقة وأمتّعُ الأحداق منها برونق كلّ روضة وحديقة. وذلك [٦أ] لأنّ النفوس تكلّ وتملّ وتحبّ أنْ تفارق أمكنتها وتنتقل ثمّ لا تسكن حتّى تعود إلى محلّها الأوّل وهو عالم الأرواح المشحون بالنور والبهاء المشار إليه بقوله تعالى ﴿وأنَّ إِلى ربِّكَ المُنْتَهى﴾ [النجم ٤٢] والمؤمن يَسُوسُ نفسَه بفطنته وألمعيّته لأنّه راعي نفسه وكلّ راع مسؤول عن رعيّته، وكما ينبغي له مُداراة نفسه فكذلك ينبغي له مُراعاة جسمه في حفظ صحّته من الأمراض والأعراض لأنّ الجسمَ مطيّةُ الروح التي توصلها إلى جميع الأغراض.

فاتّفق لي مرّة أنّني خرجت في بعض الأسابيع إلى فضاءٍ رحيب وسيع تفيّأتُ بظلال أشجاره وتأمّلت في رقص جواري أنهاره واستلطفتُ تعانُق أغصانه وقدوده واستعذبتُ رشْفَ الشمسِ لَمْيَ الظّل[٤] من ثغور شقائقه وورده، وتملّيتُ بوجه روضه الذي اخضرَّ شاربُه وتقوّسَ فوق عيون الزهور من غصنه حاجبُه حتّى خلته

(١) العَيُّوق: نجم أحمر مُضيءٌ يتلو الثريّا في طرف المجرّة الأيمن.
(٢) الأَنُوق: طير من فصيلة النسريّات ويُعرف أيضًا بالعُقاب.
(٣) مكرّر في الأصل.
(٤) قد تكون «الطل».

من فراديس الجنان لا سيّما مذ سمعت ما أتقنته شواديه من فنون ألحانها على تلك الأعواد والأفنان.

شعر[١]: [من الخفيف]

ذهـــــبٌ أينمـــــا ذهبنـــــا ودُرٌّ حيــث درنــا وفِضَّــةٌ في الفضــاءِ

فبينما أنا أتأمّلُ ما فيه من عجيب القدرة وأوحِّد مَن ألبس عرائس غرائسه أثوابَ الخضرة والصفرة والبياض والحمرة وإذا بشخص يلوح تارةً ويخفى أخرى في فضاء ذلك القفر كأنّه هلالُ أوّل ليلة من الشهر، فحدَّقت له حَدَقي ومددت إليه عنقي، وتأمّلته مليًّا ليصيرَ أمرُه عندي جليًّا، فرأيته تعدو[٢] به مطيّتُه في الصَيْخب[٣] كعدو الظليم في الغيهب، وإذا هو بدويّ على هيقة كأنّها العقيقة [٦ب] قد مَشَقَها السيرُ كما مشق الكاتبُ النونَ وهي غلباء[٤] وَجناء[٥] مهجّنة[٦] أُمون[٧] تسبح في بحار السراب سبحَ النون، تسبق البرق والرياح وتطير بغير جناح. قد أهبّ اللهُ نسيمها وأسكن سَمومها وصقل بالتبغيل والإرقال أديمها حتّى أصبح لا يعلق به القُراد ولا يضاهيه إهاب الفَرَس والجواد، كأنّها الغزال

(١) نُسب للمعوج الرقي في: من غاب عنه المطرب: ١٩. ونُسب لابن مطير الأسدي في: خزانة الأدب: ٥/ ٤٨٠. وبلا نسبة في: حسن المحاضرة: ٢/ ٤٠٠.

(٢) «تعدوا» في الأصل.

(٣) في الحاشية: الصَّيْخب الحر والعدو السير السريع والظليم ذكر النعام والغيهب مثله والهيقة النعام والعقيقة تطلق على ثلاثة أشياء البرق والسيف والحجر المعروف وكلّها يصحّ إرادتها هنا من حيث التشبيه منه.

(٤) ناقة غلباء: غليظة العنق.

(٥) وَجْناء: تامة الخَلْق وغليظة لحم الوَجْنة.

(٦) مهجّنة: الناقة المهجّنة هي التي تُمنع من فحول الناس إلّا من فحول بلادها لعِتقها وكرمها.

(٧) الأُمون: المَطيّة المأمونة، لا تعثُر ولا تَفتُر.

الأتلع وإنّ قوائمها الرياح الأربع، تسبق يوم الدَّجْن والغين[١] لمح العين وتعظم أنْ يعتريها كَلال أو خُلوءٌ[٢] أو أنين، تصبر على مواصلة السير والسُّرى والصدى وتضع قوائمها على الأرض بلطف حتّى كأنّها سقوط الندى، يظنّ راكبُها أنّه راكب نعامة أو مُمتطي غَمامة، غنيّة عن السوط والصوت والزمام وكأنّما هي قوس وذلك البدويّ فوقها كسهم من السهام، شيخٌ تلوح منه الفَراسة والفِراسة واللطافة والكياسة والحماسة والرِّياسة، يكاد الأدب يتقاطر من أقطاره وتكاد البلاغةُ تناجيك من بين شِعاره ودِثاره فلمّا تراءى لي[٣] قصدني قصد الصادي للمورد العذب والمُجدِب للخِصب[٤] والثاغب للخَصب.

فلمّا دنا قال: حيّاك الله وبيّاك وعمّرك في العزّ وأحياك وقرّت عينُك وأسفر مُحَيَّاك، فقلت: مرحبًا بشيخ على ناقة وحبيب جاء على فاقة، وأنت أبيت وحُيِّيت تحيّة ملوك العصور وعُمّرت أعمار الضِّباب والنسور، ووُقيتَ المنيَّة وظفرت بكلّ أُمنيّة، ثمّ قلت: انزل واعقل فقال: نزلتَ في كلّ نعمة وعقلتَ كلَّ حكمة، فلمّا نزل وعقل قلتُ: أحلِب وأجلِب فجلس وقال: أحلبتَ وأجلبتَ[٥] وأثريتَ وأخصبتَ فما أحسن الإيناس قبل الإبساس[٦] وما أجمل التودّد للناس.

---

(١) في الحاشية: الدجن كفلس المطر الكثير والغين الغيم منه.

(٢) خَلأَتِ الناقةُ تَخْلأُ خَلأً وخِلاءً، بالكسر والمدّ، وخُلُوءًا، وهي خَلُوءٌ: بَرَكَتْ، أَو حَرَنَتْ مِنْ غيرِ علةٍ. (اللسان/ خلأ).

(٣) «تراءني» في الأصل.

(٤) في الحاشية: الخصب بكسر الخاء النبات الكثير وبفتحها طلع النخل منه.

(٥) في الحاشية: قوله أحلبت بالحاء المهملة أي ولدت نعمك إناثًا فيكثر عندك الحليب وأجلبت بالجيم أي ولدت ذكورًا تجلبها للبيع.

(٦) في الحاشية: قوله الإيناس هو ضد الوحشة والإبساس هو الرفق بالبهيمة عند الحلب والمراد المداراة منه. وهو مثلٌ يُضرب في المُداراة عند الطلب. انظر مجمع الأمثال: ١/ ١٠١ رقم ٢٧٢. والمستقصى: ١/ ٣٠٣ رقم ١٣٠٠.

شعر[١]: [من الطويل] [٧أ]

ولــمْ أرَ كــالمعروف أمّــا مَذاقُــه فَحُلْــوٌ وأمّــا وجهُــه فجميــلُ

فقلتُ له: بِرٌ صادف أهله ورِفقٌ وافق محلّه.

شعر[٢] [من الطويل]

ووَضْعُ الندى في موضع السيف بالعُلا مُضِــرٌّ كوضــع الســيفِ في موضــع

فقال: قد أثنيتَ قبل اختبار وأطريت قبل معرفة الآثار وقد قال الشاعر[٣]: [من البسيط]

لا تمْــدحنَّ فتــىً حتّــى تجرّبَــه ولا تذمنَّــه مــن غيــر تجريــبِ

وفي المثل: «لا تَهرِف قبل أنْ تعرف»[٤]. قلتُ: وفي المثل أيضًا: «إنّ الجواد عينه فُراره»[٥] وحسبك أنّ الأطبّاء عندهم أنّ السُّخْنَةَ أعظمُ أمارة وممّا حُدِّثتُ به عن الفاروق[٦] ورويت أنّه قال: «إذا لم أعلم ما لا أرى فلا علمت ما رأيت» وفي

(١) نُسب لأحمد بن الخصيب في: معجم الأدباء: ٦/ ٦١٤. ونُسب لبشر بن الهذيل الفزاري في: الحماسة البصريّة: ٢/ ٥٤. والبيت بلا نسبة في البيان والتبيين: ٣/ ٢٤٤. والبصائر والذخائر: ٩/ ١٦٤. وأمالي القالي: ١/ ٣٨.

(٢) البيت للمتنبّي. انظر ديوانه: ١/ ٢٨٨.

(٣) نُسب لنابغة بني شيبان في: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: ٣/ ٢٣٣. والمؤتلف والمختلف: ٢٥٣. وشرح شواهد المغني: ١/ ٨٣. وبلا نسبة في: المنتحل: ٢٠٥. الحماسة المغربيّة: ٢/ ٢٣١. وكتاب الأمثال لابن سلّام: ٦٧.

(٤) في الحاشية: قوله لا تهرف أي لا تمدح. وهو مثلٌ يُضرب لمن يتعدّى في مدح الشيء قبل تمام معرفته. انظر مجمع الأمثال: ٣/ ١٦٤ رقم ٣٥٣١. والمستقصى: ٢/ ٢٦١ رقم ٩٠٧.

(٥) في الحاشية: قوله عينه فراره أي عينه تكفي عن اختباره. وهذا المثل يُضرب لمن يدلُّ ظاهره على باطنه فيغنى عن اختباره. انظر مجمع الأمثال: ١/ ١٢ رقم ٥.

(٦) الفاروق: عمر بن الخطّاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص (ت. ٢٣هـ/ ٦٤٤م) ثاني الخلفاء الراشدين. انظر الأعلام: ٥/ ٤٥.

حديث النبيّ الأوّاه: «اتّقوا فِراسة المؤمن فإنّه ينظرُ بنور الله»[١] ولله درّ من قال[٢]: [من الخفيف]

إنّما النفس كالزُّجاجة والعلم ... سراج وحكمة الله زيت
فإذا أشرقتَ فإنّك حيّ ... وإذا أظلمتَ فإنّك ميت

وأحسن من هذا قول الآخر[٣]: [من البسيط]

الجسمُ بيتٌ وقنديلُ الفؤادِ بهِ ... والرأسُ قبّته والمُقْلةُ الجامُ
والمؤمنون إذا نارتْ بصائرُهم ... صحّتْ فِراستُهم والجامُ نمّامُ

وهذا كلّه عند أهل المعرفة والفلاح ممّا أشارت إليه آيةُ ﴿مَثَلُ نورِهِ كمِشْكاةٍ فيها مِصباحٌ﴾ [النور ٣٥] فقال: حقّق اللهُ فيّ ظنَّك الجميل ووفّقني وإيّاك لسلوك أقوم سبيل، اللهمّ اجعلني خيرًا ممّا يظنّون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون، فمن شأنك أنْ تُظهِرَ من عبدك المليح وتستر كلَّ خُلُق قبيح، ولا تعاملْ عبيدك بقطع الأرزاق في حالة العصيان والإباق، ولذلك كنتَ خيرَ الرازقين لرزقك من لم يبرحوا في بحار المعاصي غارقين.

فقلت له: ما سنُّك يا من هو للبلاغة قُسّ[٤] وللذكاء والفطانة عماد وأُسّ؟ فقال: سنّي اختُلف فيه فقيل: عَظْمٌ [٧ب] وقيل: عَصَبٌ واحْتُجّ للثاني بإحساس السنّ بالحار والبارد والألم والوصب بناءً على أنّ العظم لا تحلّه الحياة وهو مذهب أبي حنيفة ذو الفضل العظيم. وقال إمامنا الشافعيّ: بل تحلّه الحياةُ

(١) انظر جامع الترمذي: ٥/ ٢٠٠.
(٢) البيت لابن سينا. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء: ٤٥٢.
(٣) نُسبت لابن السمان الدمشقي في: خلاصة الأثر: ٢/ ٢٧٢.
(٤) قُسّ بن ساعِدة الإيادي (ت. نحو ٦٠٠م) من حكماء العرب وخطبائهم قبل الإسلام. انظر الأعلام: ٥/ ١٩٦.

واستَدلّ عقلًا بإحساس السنّ ونقلًا بقوله تعالى: ﴿قالَ مَنْ يُحْيِي العِظامَ وهي رَميمٌ﴾ [يس ٧٨].

فقلت: قد غلطتَ في جواب سؤالي وما أظنّك إلّا غالطتَ وفاكهت جليسك وباسطت فعَدِّ عن أسلوب الحكيم الذي هو فنّك وأخبرني الآن كم سنّك؟ فقال: سنّي مع اعتبار الأضراس الأربعة النابتة بعد الاحتلام الشهيرة بأضراس العقل عند العوامّ ستّ وثلاثون سنًّا، كلّ سنّ منها نعمة من الله يجب أنْ يتّصل شكرُها ولا يُنسى وهي: أربع ثنايا وأربع رَباعيّات وأربعة أنياب وأربعة نواجذ وستّة عشر ضرسًا.

فقلت: إنّي عن هذا لم أسل ولكن عن سنّ العمر والأجل فقال: مدّة عمري هي ما بين ميلادي وحلول قبري فقلت: سبحان الله فماذا أقول[١] فقد حِرتُ في أمرك؟ فقال لي: قل كم مضى من سِنِيِّ عمرك؟ فقلت: أجبني عن سؤالك الذي رتّبتَه وهذّبتَه ونقّحتَه فقال: والتينِ لقد بلغتُ الستين ودخلتُ معترك المنايا المداهِمة ووصلتُ إلى غالب أعمار هذه الأمّة فقلت له: عشتَ كما عاش نوح في سعد كسعد البِرجيس[٢] وصحّة كصحّة يوح[٣]؟ فقال: لا تقلْ فوالله لقد أَنِفتُ من ورود المياه[٤] وسئمت تكاليف الحياة وأصبحت كما قيل[٥]: [من السريع]

ومـــن يُعَمَّـــرْ يلـــقَ في نفســـه ... مـــــا يتمنّـــــاه لأعدائـــــهِ

(١) «فماذا قول» في الأصل.

(٢) البِرْجيس: نجم المُشتري.

(٣) يوح: اسم من أسماء الشمس.

(٤) المياء في الأصل.

(٥) بلا نسبة في معاهد التنصيص: ١/ ٢٣٠. والدر الفريد: ١٠/ ٤٣٠. ونُسبت لأبي فراس الحمداني في: النجوم الزاهرة: ٤/ ٢٠. والرواية فيه: «ومن يؤجّل يرَ» بدل «ومن يُعمَّرْ يلقَ». ونُسبت لإبراهيم بن نصر بن عسكر في: وفيات الأعيان: ٧/ ٩٣. والرواية فيه: «يسرِ» بدل «يلقَ».

وما أحسن قول بعضهم[١]: [من الكامل]

وإذا دعــوتَ بطــولِ عُمْــرٍ لِامْــرئٍ فــاعلمْ بأنّــك قــد دعــوتَ عليــهِ

وفي الحديث: «كَفَى بالسلامة داءً».[٢] قال الشاعر[٣]: وحسبُك داء أنْ تصحّ وتسلما [٨أ] وفي الكتاب المبين المنزّل بالحقّ: ﴿وَمَن نُعَمِّرهُ نُنَكِّسهُ فِي الخَلْقِ﴾ [يس ٦٨] وفيه: ﴿لقد خَلَقْنَا الإنسانَ في أحسنِ تَقْويمٍ ثمَّ رَدَدناه أسفلَ سافلينَ﴾ [التين ٤-٥] على أنّني لو عشت عمر لُقْمان[٤] وأُوتيت حكمة لقمان وملكت ملك سليمان وصرت كنصر بن دَهمان[٥] فلا بدّ وأنْ يصرف دينارَ عمري صيرفيُّ الزمان، وتسلبُ أيدي الحِمامِ منّي الحسَّ والأيْدَ ويأكلني الدودُ كما أكل قبلي دُريد[٦] فبالله ما لذّة حياة بعدها الموت وما طيب بقاء غايته الفوت. وهل يلتذُّ العاقلُ بلذّة غايتها الزوال ونعمة مصيرها الانتقال وهل يغترُّ بذلك إلّا كلُّ أحمق ذي جهل وطَيش، ولذا ورد في الكتب السماويّة كلُّ ابن آدمَ أحمقُ ولولا حُمقه ما هنأه عيش. وأشدّ الهموم على

(١) نُسب لأسامة بن منقذ في: مسالك الأبصار: ١٦/ ٤٢. ومعجم الأدباء: ٢/ ٥٧٦.

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٩/ ٩٢. ومسند الشهاب: ٢/ ٣٠٢. والفردوس بمأثور الخطاب: ٣/ ٢٩٠. والتنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني: ٨/ ١٣٧.

(٣) لحميد بن ثور الهلالي. انظر: يتيمة الدهر ١/ ٢٧٥. والكامل للمبرّد: ١/ ٢٨٤. ورسالة الغفران: ٢٦٣. والعمر والشيب لابن أبي الدنيا: ٦٢.

(٤) لُقْمان بن عاد بن ملطاط (تاريخ موته غير معروف) معمَّر جاهليّ قديم ومن ملوك حُمير في اليمن. انظر الأعلام: ٥/ ٢٤٣.

(٥) نصر بن دُهْمَان الغطفاني (تاريخ موته غير معروف) معمر جاهليّ. انظر الأعلام: ٨/ ٢٢. وفي الحاشية: قوله لقمان الأول هو من عاد وعمّر ثلاثة آلاف. ونصر بن دهمان بلغ سنّ الشيخوخة ثم عاد شابًا فضربت العرب به المثل. ودريد رجل من العرب قيل عمّر أربعمائة عام.

(٦) هو دُرَيْد بن الصِّمَّة الجشمي البكري (ت. ٨هـ/ ٦٣٠م) من أبطال الجاهليّة وشجعانها وشعرائها. انظر الأعلام: ٢/ ٣٣٩.

النفوس أنْ تعلم أنّ نعمها تزولُ وحالةَ دنياها تحول كما قال المتنبّي[١]: [من الوافر]

أشــدُّ الهــمِّ عنــدي في ســرورٍ تَــيَقَّنَ عنــه صــاحبُهُ انتقــالا

فقلتُ له: يا من بهرتْني صفاته الحسنى، أراك قد تلوتَ آية العصر[٢] وأعرضت عن المستثنى، أما قال فيها من لا تدركه العقولُ والأوهام والظنون ﴿إِلَّا الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ فلهم أجرٌ غيرُ مَمْنُون﴾ [التين ٦] ولا شكّ أنّ «ال» في «الذين آمنوا» للكمال وأنّ المراد بالذين آمنوا كاملو الإيمان والأعمال فالإنسان في خُسرٍ إلّا مَن خلصت نيّاتُهم وكثرت حسناتُهم، فهؤلاء يُطيل اللهُ في أعمارهم ويمتّعهم بقوّتهم وأسماعهم وأبصارهم ويمدّهم بسحائب أمداده الصيّبة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عمِلَ صالِحًا من ذَكَرٍ أو أُنثى [وَهُوَ مُؤْمِنٌ] فَلنُحيِينَّه حياةً طيِّبةً﴾ [النحل ٩٧] وذلك لأنّهم حفظوا جوارحَهم من معاصيه في الصِغَر [٨ب] فحفظها عليهم في حالة الكبر. والجزاء من جنس العمل والمؤمن الكامل من كان منه عزّ[٣] وجلّ على وَجَل، وقد ورد في الأحاديث الحثُّ على أعمال تزيد في الأعمار فمن فعلها أطالَ اللهُ عمره مع صحّة العقل والجسم وبلوغ الأوطار في جميع الأطوار لا سيّما إنْ نفع العباد بالعلم أو الجاه أو المال أو الدعاء لهم بالإصلاح في الدنيا والنجاة يوم العَرْض بإشارة بشارة ﴿وأمّا ما يَنفعُ الناسَ فيمْكُثُ في الأرضِ﴾ [الرعد ١٧].

ولا ينافي هذا حديثُ: «وإنّما يُسرَع بخياركم»[٤] لأنّه يصحّ أنْ يكون الخيارُ جمعَ خائر لا جمعَ خَيْر الذي هو أفعل تفضيل، فقد ذكر النووي في كتاب التهذيب

(١) الديوان: ٣/ ٢٢٤. والرواية فيه: «الغمّ» بدل «الهمّ».

(٢) في الحاشية: لعله التين.

(٣) «عَلَى» في الأصل.

(٤) الحديث الكامل هو «ما من يوم إلّا والذي بعده شرّ منه، وإنما يسرع بخياركم». انظر مسند أبي يعلى: ٧/ ٩٦.

أنّه يقال: «خِرتَ يا رجل فأنت خائر»[١] فأفاد أنّ فاعل خارَ أتى على صيغة فاعل، شكر اللهُ سعيه الجميل. وقد جمع العربُ فاعل على فِعَال كصاحب وصِحاب وجائع وجِياع ومثل ذلك خائر وخِيار لأنّه محتمل لذلك إذ قيل إنّ الجمع متوقّف على السماع وعلى هذا يكون الإسراع للخِيار وطول العمر للأخيار وهذا ممّا فتح الله به على الفقير في هذا المقام ولم أرَ من تعرّض له من العلماء الأعلام.

فقال: كيف تفعل برسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي ساد جميعَ الأنبياء والمرسلين بل سائرَ الخَلْق أجمعين وقد خرج من الدنيا ولم يتكمّل من السنين إلّا ثلاثًا وستّين؟ قلت: طول العمر خاصّ بمن كان نفعه للعباد مقرونًا بحياته لا بمن ينفعهم في حياته وبعد مماته مثل نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم القائل: «حياتي خيرٌ لكم ومماتي خير لكم»[٢] فالمقصود من طول العمر حاصلٌ له صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهو نفعُ المخاليق وحينئذٍ طول عمره صلّى الله عليه وسلّم [٩أ] وقصره سواء عند أهل التحقيق.

قال: ظاهرُ هذا الحديث التناقضُ لأنّ تقديره حياتي خيرٌ لكم من مماتي ومماتي خير لكم من حياتي وكلامه صلّى الله عليه وسلّم منزّهٌ عن كلّ أمر مكروه فقلت: لا مناقضة لأنّ المراد أنّ كلًّا منهما خيرٌ من الآخر من وجه لا من سائر الوجوه فقال: لا زلتَ زينةَ هذا الدهر وغُرّةَ[٣] هذا الوقت والعصر فقلت: وأنت لا أوحشني الله من مثالك ولا خلا الدهر من أمثالك فأخبرني يا صاحب الفوائد المستغربة: أأنت من العرب العاربة أو المستعربة؟

فقال: إنّ سوء الاكتساب يمنع من الانتساب.

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي: ١/ ١٠٠.
(٢) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٢/ ٤٠٤.
(٣) «غرتَ» في الأصل.

شعر[١]: [من الطويل]

وما حَسَنٌ أنْ يمدحَ المرءُ نفسَه ولكنّ من تُثني عليه الورى حَسَنُ

والدعوى قبيحة وإنْ كانت صحيحةً لكنْ إذا لم يُعرَف المرءُ في محلّ فلا بأس أنْ يُعْرِبَ عن فضله ليُعْرَفَ ويقابَلَ بالإجلال والتعظيم كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام للملك: ﴿اجعلْني على خزائنِ الأرضِ إنّي حفيظٌ[٢] عليمٌ﴾ [يوسف ٥٥] ويصحّ أنْ يكون من هذا القبيل خبرُ: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»[٣] لأنّ فضله صلّى الله عليه وسلّم لا يُعرَف إلّا من قِبَله فكان مضطرًّا أنْ يخبر أمّته بما خصّه به مولاه من الكرامة ورفعة القدر لنأخذ في إجلاله وتعظيمه ومهابته وتفخيمه فإذا عرفت هذا فأقول: [من الكامل]

أمّا العلومُ فقد ظفرتُ ببغيتي عِلمًا أنارَ ليَ البهيمَ المُظلِما
وعلمتُ أسرارَ الخليقةِ كُلَّها منها فما أحتاجُ أنْ أتعلّما
وورثتُ هرمسَ سرَّ حكمته الذي ما زال ظنًّا في الغيوب مُرَجَّما
وملكتُ مفتاحَ الكنوزِ بفطنةٍ كشفتْ لي السرَّ الخفيَّ المُظلِما [٩ب]
أهْوى التكرّمَ والتظاهرَ بالذي عُلِّمْتُهُ والعقلُ يَنْهى عنهما
وأريدُ لا ألقى غبيًّا مُوْسِرًا في العالمين ولا لبيبًا مُعْدِما
والناسُ إمّا عالمٌ أو جاهلٌ فمتى أُطيقُ تكرّمًا وتكلّما

(١) رواية البيت في كتب التراث:
وما حسنٌ أن يمدح المرءُ نفسه ولكن أخلاقًا تُذمّ وتُحمدُ
وهو بلا نسبة. انظر: الذخيرة: ٥/ ٢٤٠. وعيون الأخبار: ٤/ ٧٣. والعقد الفريد: ٤/ ٢٣٤. وأدب الدنيا والدين: ٢٤١.

(٢) «خفيْظ» في الأصل.

(٣) انظر صحيح مسلم: ١/ ١٠٨٠. وسنن أبي داود: ٧/ ٦٤. وجامع الترمذي: ٥/ ٢١٣، ٨/ ٦، ١١/ ٦. وسنن ابن ماجة: ١٤٤٠.

وبعد هذا فأقول: أنا من صميم العرب ومحضها، لا من مذيقها[١] ومخضها وقومي ذروة سَنامها وجوهر حُسامها وواسطة عِقدها وعماد عزّها ومجدها.

شعر[٢]: [من الطويل]

نجـومُ سـماءٍ كلّمـا غـابَ كوكـبٌ بـدا كوكـبٌ تـأوي إليـه كواكبُـهْ

فهم أكثر العرب رَمادًا وأطولهم نِجادًا وأثبتهم عِمادًا، لا تخمد نار قِراهم في الشتاء والصيف، ولا يسأمون من إكرام النزيل وخدمة الضيف ولا تُصطلى نار بأسهم إذا شبّها الرمح والسيف، يتكرّمون من أموالهم بنخبة النخبة وخلاصة[٣] الخلاصة ﴿ويُؤْثرونَ على أنفسِهم ولو كان بهم خَصاصةٌ﴾ [الحشر ٩] يرعَون الجوار ويحمون الذمار، ويحفظون الحليف ويقودون الضعيف ويرعون الذمام[٤] ويجتنبون لغو الكلام.

شعر[٥]: [من الكامل]

قـومٌ إذا نـزلَ الغريـبُ بأرضـهم تركـوه رَبَّ صـواهلٍ وقِيـانِ
وإذا دعـوتَهم ليـومٍ كريهـةٍ سدّوا شعاعَ الشمسِ بالخرصان[٦]
متصـعلكين علـى كثافـة مُلْكهـم متواضـعين علـى عظـيم الشـانِ
لا ينكتـون الأرضَ عنـد سـؤالهم لتَطَلُّـبِ العِـلّاتِ بالعيـدانِ

(١) في الحاشية: قوله مذيقها المذيق الشيء المخلوط. يقال لبن مذيق إذا خلط بالماء منه.
(٢) البيت لأبي الطمحان القيني. انظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ١٤/ ٧٥. وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣/ ١٦٩.
(٣) «خلاضة» في الأصل.
(٤) «الزمام» في الأصل.
(٥) نُسبت للقاسم بن أميّة في: الحماسة البصريّة: ٤١٨. وانظر تخريج الأبيات في هامش تلك الصفحة.
(٦) الخِرْصان هو سِنانُ الرُّمْح. والخُرْصان الدروع لأنها حِلَق مثل الخُرص.

بـل يبسـطون وجـوهَهم فـترى لهـا عنـد السـؤالِ كأحسـن الألـوانِ

ومع هذا فإنّي لا أفتخر بهذا النسب وإنّما فخري بنسب الأدب فإنّما المرء ابنُ نفسه إذ بها يعلو أو يسفل بين أبناء جنسه [١٠أ] كما قالت العرب[١]: [من الرجز]

نَفْـسُ عِصـامٍ سـوّدتْ عِصـامًا وعلّمتْـه الكـرَّ والإقـداما
وصـيّرتْه مَلِكًـا هُمامـا

وقال الشاعر[٢]: [من المنسرح]

كـنِ ابـنَ مـن شـئتْ واكتسـبْ أدبًـا يُغنيـكَ مضـمونه عـن النسـبِ
إنّ الفتـى مَـن يقـول هـا أنـا ذا لـيس الفتـى مَـن يقـولُ كـان أبـي

وليس الفتى من يفتخر بقومه وأهله وإنّما الفتى من تفتخر قومه بفضله كما قيل[٣]: [من البسيط]

كـم مـن أبٍ قـد عـلا بـابنٍ لـه شـرفًا كمـا عَلَـتْ برسـول الله عَـدنانُ

(١) نُسب للنابغة في: جمهرة أشعار العرب: ٧٨. ودلائل الإعجاز: ٥٥٧. ونُسب لعصام بن شهير حاجب النعمان في: أمثال العرب للضبّي: ١٦٧. وجمهرة الأمثال للعسكري: ٣١٢/٢. وخزانة الأدب: ٣٦٧/٩. وبلا نسبة في: التمثيل والمحاضرة: ٣٧. وعيون الأخبار: ٣٣٠/١. والعقد الفريد: ١٤٨/٢. ونهاية الأرب: ٥٤/٣. والدر الفريد: ١٩٨/٨.

(٢) نُسبت لأبي العتاهية في: جمهرة الأمثال: ٣١٢/٢. مع اختلاف في الرواية. ونُسب البيت الأوّل لأبي ربيعة النحوي في: معجم الأدباء: ٧١٦/٦. والوافي بالوفيات: ٤١/٢٦. وبغية الوعاة: ٣٠٠/٢. وبعده:
لا شيء في الأرض أنت تكسبُه أحمدُ عند الأنام من أدب.
والبيت الأوّل بلا نسبة في: محاضرات الأدباء: ٤٨/١. وخلاصة الأثر: ٤٧٥/١. والبيتان بلا نسبة في: خزانة الأدب: ٣٦٠/٢. والمستطرف: ٣١.

(٣) البيت لابن الرومي. انظر ديوانه: ٢٤٢٥/٦.

وما كلّ من سكن البادية جفا وما كلّ من سكن الحاضرة رقّ طبعه وَصَفَا، فالدُرّ لا تضرّه كثافة الصدف وملوحة البحر، والشوك لا ينفعه شرب ماء المزن ولا مجاورة لطيف الزهر، وعلى تسليم أنّ كلّ بادٍ جافي الطباع، فأنا أتطبّع لوجود الأدب وأكون كالذهب أو كالشمع في قبول الانطباع ولله دَرُّ من قال[١]: [من الوافر]

وما أنا منهمُ بالمكث فيهمْ ولكنْ مَعدِنُ الذهبِ الرَّغام[٢]

وأنا أقول[٣]: [من الطويل]

وإنّي على ما فيَّ [من] عُنجهيّتي ولوثة أعرابيّتي لأديبُ

فقلت له: والله لقد جمعتَ بين الشرفين وحويت كرم الطرفين وهما كرمُ النفس وكرم العرب، فيا حبّذا الجمع بين النسب والأدب ولكنْ أخبرني أيّ العرب أرومتك وأيّ القبائل جرثومتك؟

فقال: دعنا من القبائل والشعوب فقد صَرفتهم الصروف وشَعبتهم شَعوب[٤] واطوِ عنّا ذكرَ الرِمم البالية وعليك بذكر الهمم العالية [١٠ب].

فقلت: عزمت عليك إلّا ما أجبتني عن سؤالي لأنظر ما خطر في وهمي وخيالي فقد تفرّستُ فيك همَمَ الملوك الصِيْد ونخوة ضراغم البيد، فقال: إنْ

(١) البيت للمتنبّي. انظر الديوان: ٤/ ٧٠.

(٢) من الحاشية: الرَّغام تُراب لين أو رمل مخلوط بتراب.

(٣) البيت لأسود بن أبي كريمة في: البيان والتبيين: ١/ ١٦٧. ورواية البيت فيه: «وإنّي على ما كان من عنجهيّتي». والدرّ الفريد: ١٠/ ١٧٣. والرواية فيه: «وإنّي على ما فيّ من عنجهيّت». وبلا نسبة في: المسائل البصريّات: ١/ ٥٧٧. والرواية فيه: «عجرفيّتي» بدل «عنجهيّتي». وزهر الآداب: ١/ ٤٠٣. بنفس رواية البيان والتبيين. وأدب الخواص: ١١٥. والرواية فيه: «وإنّي على ما كان من أجنبيّتي».

(٤) الشَعوب: الموت.

صدقتْ فراستُك فأنا من ولد النعمان بن المنذر[١] فأبشر بصدق فراستك وبشّر فقلت: بَخٍ بَخٍ ملك عظيم وقيل كريم، ملك الحيرة وصاحب الخَوَرْنق[٢] ونائب كِسرى[٣] الذي خَلق الدهر وحديث عدله لم يَخلُق، محمود الأخبار ممدوح الآثار غير ما صدر منه من جزاء سِنِمّار[٤]. فقال: لقد شوّهت وجه مدحك ووسّعت بليغ جرحك ومزجت الشهد بالسُّموم والرُّخاء بالسَّموم وشبت الشَرْيَ بالأرْيِ[٥] وقدحت فأعظمت الوَرْي، على أنّه لا عار في ذلك على الملوك ولا شنار ولا نَبْوَة ولا كبوة ولا عثار بل عدّ العقلاءُ ذلك من السياسة وإنْ كان ظاهره الشناعة والشراسة، وقد أشار هو إلى ذلك بقوله[٦]: [من مجزوء الكامل]

تعفـــو الملـــوكُ عـــن الكبيـــ ـــــر مـــن الـــذنوبِ بفضـــلها
ولقـــد تعاقـــبُ في الصغيـــ ـــــر ولـــيس ذاك لجهلهـــا
لكـــنْ ليُرجَـــى حلمُهـــا وتُهـــابُ شـــدّةُ نكلِهـــا

(١) النُّعمان بن المُنذِر (ت. ٦٠٨م) آخر ملك بني لخم وأشهر ملوك الحيرة. انظر الأعلام: ٨/ ٤٣.

(٢) «الخوزنق» في الأصل وهو المجلس الذي يأكل فيه الملك ويشرب، فارسي مُعرب.

(٣) كُسرى الثاني أو خُسرو (ت. ٦٢٨م) ملك الدولة الساسانية في بلاد فارس.

(٤) سِنِمّار (تاريخ وفاته غير معروف) مهندس آرامي نبطي من سكان العراق قام ببناء قصر الخورنق ثمّ أُلقي من فوقه ولهذا يُضرب به المثل «جزاه جزاء سنمّار». انظر الأعلام: ٣/ ١٤٢. ومجمع الأمثال: ١/ ٢٨٣ رقم ٨٢٨.

(٥) في الحاشية: قوله الرخاء أي الريح اللينة والسَّموم الريح الحارة والشري الحنظل والأري العسل.

(٦) نُسبت لرجل من بني يشكر في: عيون الأخبار: ١/ ١٧٥. ومحاضرات الأدباء: ١/ ٢٨٧. ونُسبت للنعمان بن المنذر في: المنتحل: ٢٥٤. والدر الفريد: ٥/ ٣٨١. وربيع الأبرار: ٢/ ٩٩. والمجموع اللفيف: ٢٠٥. وبلا نسبة في التذكرة الحمدونيّة: ١/ ٣١٣.

فقلت: عذر أقبح من ذنب ومدح أشنع من سبٍّ. قال الشاعر[١]: [من الطويل]

إذا لـم يكـن وجـهُ اعتـذارك ظـاهرًا فـإنّ اطّـراح العـذرِ خيـرٌ مـن العـذرِ

على أنّه لا عذر في الغدر ولا خير في الختر.[٢]

فقال: وأنت أصلحك الله فأخبرني هل أنت من أطراف العرب أو من أشرافها؟ فقد أرى قدرك أناف على عبد منافها. فقلت: إنْ أردتَ بيان ذلك أوضحَ بيان فأنا من ولد ملوك آل غسّان[٣] فقال: كَرُم نسبُك وعَظُم حسبُك [١١أ] فقد انتميت إلى أعظم أُرُوم كانت نائبةً في الشأم عن ملوك الروم فأعظم بها ملوكًا كانت في وجه الشأم كالشام طالما ارتقب المجتدي بروقَ راحاتها وشام حتّى سبح في سيول كرمها وعام وعمّ نوالها الخاصّ والعامّ كيف لا[٤] وأمّهم مارية[٥] التي ضُرب بحسن قُرطيها المثلُ وأبوهم جَفْنَة[٦] الذي قال فيه حسّان بن ثابت شاعر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي ارتدى بالشرف وبالفضل العظيم اشتمل حيث يقول[٧]: [من الكامل]

(١) نُسب لمحمود الورّاق في: التمثيل والمحاضرة: ٨٥. والكامل: ٢/ ١٨٥. والعقد الفريد: ١٩/٢. والتذكرة الحمدونيّة: ٤/ ١١٣. ونهاية الأرب: ٣/ ٨٨. والشطر الأوّل فيها: «إذا كان وجه العذر ليس ببيّن». وبهجة المجالس: ١٠٦. والدر الفريد: ٣/ ٩١. وبلا نسبة في: ربيع الأبرار: ٢/ ٩٥. ونُسب لأبي عبد الله النميري في: المنتحل: ٩٦.

(٢) في الحاشية: الختر أشنع الغدر.

(٣) آل غسّان كانوا عمالًا للإمبراطورية الرومانية البيزنطية يحمون الحدود الشامية من غارات الفرس واللخميين. انظر معجم قبائل العرب: ٣/ ٨٨٤.

(٤) في الأصل "كيف ولا وأمهم مارية".

(٥) مارية بنت أرقم (تاريخ وفاتها غير معروف) امرأة من آل غسّان وكان لها قرطان كان فيهما مائتا دينار وقيل كان فيهما درتان كبيضتي الحمامة فأهدتهما إلى الكعبة. انظر زهر الأكم: ١/ ٦٩. ومجمع الأمثال: ١/ ٤١٠ رقم ١٢٤٣. والأعلام: ٥/ ٢٥٤.

(٦) جَفْنة بن عمرو مُزَيْقِيَاء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف (تاريخ وفاته غير معروف) أمير غسّاني من قدماء الجاهليين. انظر الأعلام: ٢/ ١٣١.

(٧) الأبيات لحسان بن ثابت. انظر ديوانه: ١/ ٧٤.

للّـــه دَرُّ عِصـــابةٍ نـــادمتُهم ... في أرضِ جِلَّـــق في الزمـــانِ الأوَّلِ
أولادُ جَفْنَـــةَ حـــولَ قـــبرِ أبـــيهمُ ... قَبْـــرِ بـــن ماريـــةَ الكـــريمِ الأفضـــلِ
يُسـقَونَ مـنْ مـاء الـبريص علـيهمِ ... بَـرَدَى يُصَـفَّقُ بـالرَّحيقِ السَّلسَـلِ
يُغشَـوْنَ حتّـى مـا تهـرُّ كلابُهُـمْ ... لا يسـألونَ عـنِ السـوادِ المُقبـلِ
بـيضُ الوجـوهِ كريمـةٌ أحسـابُهُمْ ... شُـمُّ الأنـوفِ مـن الطـرازِ الأوَّلِ

فالملوك عيال عليهم في الكرم والكواكب تتواضع لما اشتملوا عليه من رفيع الهمم، وألْسِنةُ التواريخ لم تزل تروي لنا أحاديثَ ما انفردوا به من حسن الأخلاق والشيم، قد بنوا المجد وحلّوا ذراه، ووطّدوا الملك وأوثقوا عراه، حتّى أصبحوا بالكياسة كاسين، ومن العارِ عُراة، ولم يَشْقَ منهم غيرُ جبلة بن الأيهم[١] الذي أنجد في الحمق والجهل وأتهم، وارتدّ من أجل لطمةٍ[٢] عن الإسلام، ولحق بقيصر حتّى وافاه[٣] وهو على كفره الحِمامُ.

فقلتُ له: لقد أدركتَ ثأرك عاجلًا فلا عدمْتُك نبيهًا وفاضلًا، فأخبرني من أيّ وكر درجتَ وإلى أيّ غرض خرجت؟ فقال: خرجتُ من بين الصلب والترائب ودرجت لطلب الفوائد والمكاسب، فقلت: دعنا من هذا النحو والصرف وأخبرني من أيّ بادية خرجت [١١ب] وإلى أيّ غرض ثَنَيْتَ العِطفَ وانعطفتَ إلى محلّ الشام هذا العطف؟ فقال: أمّا خروجي فمن مملكة ابن ذي يزن[٤] وبادية اليُمن واليَمَن الذي وَجد المصطفى صلّى الله تعالى عليه وسلّم من

(١) جَبَلَة بن الأَيْهَم بن جبلة الغسّاني من آل جَفْنة (ت. ٢٠هـ/ ٦٣١م) آخر ملوك الغساسنة. انظر الأعلام: ٢/ ١١٢.
(٢) انظر قصّة لطم جبلة بن الأيهم لرجل فزاري في البداية والنهاية: ٨/ ٧٠.
(٣) في الأصل "وفاه".
(٤) سيف بن ذي يزن (ت. نحو ٥٧٤م) أحد ملوك العرب اليمانيين. انظر الأعلام: ٣/ ١٤٩.

قبلها نفَسَ الرحمن وشهد لأهلها بالحكمة وكمال الإيمان، وتفنّن في مدحهم تفنّنًا غريبًا حتّى قال: «إنّهم أرقّ الناس أفئدةً وألين قلوبًا».[١]

وأمّا غرضي فهو تحصيل المعاش واستجلاب الرياش، وذلك لأنّ عواصف المنيّة عصفتْ برياض قومي فصيّرتْها عصفًا وزعزعتْ جبالَ أحلامهم فنسفتْها نسفًا، ولم تُبقِ من عينهم غيرَ أثر لا يُذكر وخَلَفٍ أعمى وليته كان أعور، قد هدموا ما شاد آباؤهم من المجد وأبلوا ما نسجوه من حُلَل المدح والحمد، فهم عار الآباء وأعقّ الأبناء وخبثُ تلك المعادن التي ماتت وذِكرُ فضلِها لا يموتُ بل هم والله مراحيض تلك البيوت، جُبلوا على المداهنة والمكاشرة وأصبحوا زيوفًا يكشفها محكّ التجريب والمعاشرة، وغرقوا في بحر الغفلة واللهو واشتروا العارَ لأنفسهم وقومهم كما اشتراه شيخ مَهْو[٢] أمّا كرمهم فدونه طَعْنُ الصعاد[٣] وخرط القتاد[٤]، الطامع فيه كالطامع في لبن التيوس وحصول السعد من كواكب النحوس، هذا وهم أَخْيَلُ من غراب وأحول من خضاب، وأغرُّ من سراب وأسفل من تراب، وأوقح من ذباب وأطوع للنساء من ثواب[٥]، البدعة عندهم سُنّة والسُنّة عندهم بدعة، قد جعلوا الدَّدَ[٦] ديدنًا ومخالفة الشرع شِرْعة، كما قيل:

---

(١) انظر صحيح البخاري: ١٠٧٤ و١٠٧٥. وصحيح مسلم: ١/ ٤٣.

(٢) مَهْو بطنٌ من عبد القيس والشيخ عبد الله بن بَيدَرَة. ويُضرب به المثل في الخسران. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٤٥ رقم ١٣٤٠. والمستقصى: ١/ ١٠١ رقم ٣٨٦.

(٣) جمع صعدة. وهي قناة الرمح. والمقصود الرماح. (لسان العرب، صعد).

(٤) القتاد: شجرٌ صلب له شوك مثل الأبر. (لسان العرب، قتد).

(٥) «أطوع من ثواب» مثلٌ يُضرب في الطاعة. وثواب رجلٌ مِطْواع من العرب. انظر مجمع الأمثال: ٢/ ٣٠٤ رقم ٢٣٣٨. والمستقصى: ١/ ٢٢٦ رقم ٩٤٩.

(٦) الدد: اللهو واللعب. (لسان العرب، ددا).

شعر: [من البسيط]

هـمُ الرجـالُ مجـازٌ حـين تنظـرُهم ... وفي الحقيقــة إنْ حقّقــتَ نســوانُ
مـا دام في فيـك ريـقٌ أنـت صـاحبُهم ... لأنّهــم عُــوّدوا بــالريق مــذ كــانُوا

[١٢أ] ليس فيهم إلّا الحُوَّل القُلّبِ والسحاب الجَهام والبرق الخُلَّب، قد انهمكوا في المطاعم والمشارب انهماك البقر ولم يحفظوا من أمثال العرب إلّا قولَهم «ببطنه يعدو الذكر»[(١)] ولا من الأشعار إلّا قول الشاعر: [من الكامل]

النـاسُ في الـدنيا علـى سـفرٍ فكُـلْ ... إنّ المســافرَ مــا عليــه صــيامُ

فداء الذئب جلبَ لهم داءَ الضرائر وأوقع الفتن بين القبائل منهم والعشائر ﴿كأَنَّهم حُمُرٌ مُستَنفِرةٌ﴾ [المدّثّر ٥٠] كم بالَ منها حمارٌ فاستبال أحْمِرَه، وإذا رشح إناءُ أحدهم بِطَلٍّ أو هَمَى[(٢)] سحابُه بِوَبْل كان ذلك خطرةً من وساوسه ودسيسةً من دسائسه، والدليل على أنّها من الوساوس أنّ تلك الخطرة تكون بيضة العُقْر التي يبيضها الديك مرّةً في العمر، ولا عجب لكوكب النحوس أنْ يسقي الأرضَ مرّةً من غيث السماء فقد قال تعالى: ﴿وإِنّ من الحجارةِ لَمَا يتفجَّرُ منه الأنهارُ وإنَّ منها لَمَا يَشَّقَّقُ فيخرُجُ منه الماءُ﴾ [البقرة ٧٤] وفي المثل: «دمعة من عوراءَ غنيمةٌ باردةٌ»[(٣)] فمن وجدها فليغتنمْها بلا مجاهدة ومكابدة، على أنّ أحدهم يزعم أنّ حاتم الطائيّ من عتقائه وأنّ عنترة العبسيّ من أرقّائه وأنّ

(١) لهذا المثل أكثر من قصة. يُقال إنّ الذكَر من الخيل يَعدو على حسب ما يأكل. ويقال أصل المثل أنّ رجلًا أتى امرأته جائعًا فلما شبع أراد الباءة فقالت المرأة هذا المثل. وقال أبو زيد: زعموا أنّ امرأة سابَقَتْ رجلًا عظيمَ البطن فقالت له تُرهبه بذلك: ما أعظمَ بطنك! فقال الرجل: «ببطنه يَعدو الذَّكَر». انظر مجمع الأمثال: ١/ ١٦٤ رقم ٤٥٦. والمستقصى: ٢/ ٦ رقم ١٣.

(٢) «همي» في الأصل.

(٣) هذا المثل يُضرب للبخيل يصلُ إليك منه القليل. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٧٤ رقم ١٤٢٠. والمستقصى: ٢/ ٨١ رقم ٢٩٦.

حاجب بن زراره[١] والسموأل بن عادياء[٢] تطفّلا على مائدة وفائه وأنّ نابغة ذُبْيَان إنّما تكلّم بلسانه وأنّ قُسّ بن ساعدة ما خطب إلّا بفضل بيانه وأنّ الجرادتين[٣] مغنّياته وأنّ ندماني جذيمة الأبرش[٤] من بعض ما حواه وأنّ كسرى من حاشيته وأنّ قيصر حامل غاشيته وأنّ تُبَّعًا من أتباعه وأنّ ذا القرنين[٥] ما ملك الدنيا إلّا برأيه وسعة اطّلاعه وأنّه وإنْ تأخّر وجودُه فقد أتى بما لم تستطعه الأوائل، وأنّه أشجع من عامر بن الطفيل[٦] وأعزُّ من كُلَيب وائل[٧] وأنّ الفضل دائرةٌ هو نقطتها وأنّ السيادة هو [١٢ب] أبو عذرتها وابن بَجدتها، على أنّه أكذب من الأسود العنسيّ[٨] وأحمق من هَبَنَّقة القيسيّ[٩]

(١) حاجب بن زرارة بن عُدس الدارمي التميمي (ت. نحو ٣هـ/ ٦٢٥م) شاعر مخضرم، أسلم. انظر الأعلام: ٢/ ١٥٣. واسمه مكتوب «حاجب بن زاره» في الأصل.

(٢) السَّمَوْأَل بن غريض بن عادياء الأزدي (ت. ٥٦٠م) شاعر جاهلي حكيم من سكان خيبر في شماليّ المدينة. انظر الأعلام: ٣/ ١٤٠. واسمه مكتوب «السموؤل بن عاديا» في الأصل.

(٣) الجرادتان: جاريتان مغنّيتان للملك النعمان أو بمكة. (لسان العرب، جرد)

(٤) جذيمة الأبرش: جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم التنوخي القضاعي (ت. نحو ٢٦٨م) ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق وكان يُقال له «الوَضّاح» و«الأَبْرَش» لبرص فيه. انظر الأعلام: ٢/ ١١٤.

(٥) ذو القرنين ملك مذكور بعدله في القرآن. انظر سورة الكهف ٨٦ و٩٤.

(٦) عامر بن الطُّفَيْل بن مالك بن جعفر العامري (ت. ١١هـ/ ٦٣٢م) فارس قومه وأحد فتاك العرب في الجاهلية. انظر الأعلام: ٣/ ٢٥٢.

(٧) كُلَيب بن ربيعة بن الحارث بن مرّة التغلبيّ الوائلي (ت. ٤٩٤م) سيّد الحيين بكر وتغلب في الجاهليّة. انظر الأعلام: ٥/ ٢٣٢.

(٨) الأسود العنسيّ: هو عبهلة (أو عيهلة) بن كعب بن عوف العنسيّ (ت. ١١هـ/ ٦٣٢م) مدعٍ بالنبوّة من أهل اليمن. انظر الأعلام: ٥/ ١١١.

(٩) هَبَنَّقَة القيسيّ: هو يزيد بن ثروان القيسي (تاريخ موته غير معروف) يُضرب به المثل في الغفلة. واسمه مكتوب «العبسي» في الأصل. انظر الأعلام: ٨/ ١٨٠. ومجمع الأمثال: ١/ ٣٨٦ رقم ١١٦٩.

وأجهل من جاهليّ وأحقر من باهليّ[١] وأتيس من تيس وأغلم من عبد القيس[٢] بل أشره في الغلمة من بني فزارة[٣] وأبغى من الربيع بن زِيَاد[٤] ومن أخيه عُمَارة[٥] وأنهمُ من بني أميّة وأعصى لله ولرسوله من عُصيّة[٦] وأغدر من الحارث بن ظالم[٧] وأخلف من عُرقوب[٨] وأطمع من أشعب[٩] ووافِد

(١) قبيلة باهلة معروفة عند العرب بضعة الشأن، قال الشاعر:
وما ينفع الأصل من هاشمٍ إذا كانت النفس من باهلة

(٢) عبد القيس بن أَفْصى قبيلة عظيمة منهم جماعة جمة من الصحابة ومن بعدهم. وكانت مواطنهم بتهامة ثمّ خرجوا إلى البحرين. انظر معجم قبائل العرب: ٧٢٦/٢. وجمهرة النسب: ٥٨٢.

(٣) بنو فزارة بن ذبيان بطن عظيم من غَطَفان من العدنانية. وكانت منازلهم بنجد ووادي القرى ثمّ تفرّقوا فنزلوا بصعيد مصر وضواحي القاهرة وغيرهما من الأماكن. وكان من هذا البطن جماعة من العلماء والأئمة. انظر جمهرة النسب: ٤٢٨. ومعجم قبائل العرب: ٩١٨/٣.

(٤) الربيع بن زياد العبسيّ يُلقّب بالكامل (ت. نحو ٥٩٠م) أحد دهاة العرب وشجعانهم ورؤسائهم في الجاهليّة. انظر الأعلام: ١٤/٣.

(٥) عُمَارة بن زِيَاد العبسي يُلقّب بالوهاب (تاريخ وفاته غير معروف) من رؤساء القادة في الجاهلية. انظر الأعلام: ٣٧/٥.

(٦) عُصَيّة بن خُفاف بطن من بني سُلَيم من العدنانية وكانوا ينزلون جبل سُواج. انظر معجم قبائل العرب: ٧٨٦/٢.

(٧) الحارث بن ظالم بن غيظ المري (ت. نحو ٦٠٠م) أشهر فتّاك العرب في الجاهليّة. ويُضرب به المثل «أفتك من الحارث بن ظالم». انظر الأعلام: ١٥٥/٢. ومجمع الأمثال: ٤٧٠/٢ رقم ٢٨٢٠.

(٨) عُرقوب: قيل هو ابن سعد ابن زيد مناة بن تميم (تاريخ موته غير معروف) جاهليّ. وقال أبو عُبَيْد إنّه رجل من العماليق. وهو مضرب المثل في إخلاف المواعيد. انظر الأعلام: ٢٢٥/٤. ومجمع الأمثال: ٤٤٧/١ رقم ١٣٤٥ و٣٣٠/٣ رقم ٤٠٧٠. والمستقصى: ١٠٧/١ رقم ٤٢٢.

(٩) أشعب بن جبير (ت. ١٥٤هـ/ ٧٧١م) شخصية فكاهية من أهل المدينة يُضرب به المثل في الطمع. كان مولى لعبد الله بن الزبير، تأدّب وروى الحديث وكان يجيد الغناء. انظر الأعلام: ٣٣٢/١. ومجمع الأمثال: ٣٠١/٢ رقم ٢٣٣٣.

البراجم[١] وأظلم من الحجّاج الثقفي وأكثر هذيانًا من مسيلمة الحنفي وأخنث من هِيت[٢] وطُوَيْس[٣] ودلال[٤] ونسيم السحر وبرد الفؤاد ونومة الضحى وظلّ الشجر، وأفسد من جراد وأعلق بالدنيا من قراد، وأطيش من الفراش وأهون من الخَشاش، وأنشف من حشيشة وأخفّ عقلًا من ريشة، وأجفى من الدهر وأقسى من الصخر، وأخطر من تجربة السَمّ وركوب البحر وأحقر من تبنة على لبنة[٥] ومن ذنب الحمار على البيطار[٦] ومن البومة على الرماة ومن الدنيا عند الله.

(١) وافد البراجم: هو عمار الدارمي التميمي (تاريخ موته غير معروف) قد وفد على بلاط الملك عمرو بن هند حينما كان يحرق رجالًا من بني تميم. وقد ظنّ أنّ دخان النار كان يشير إلى وجود طعام فألقاه الملك في النار. ويُضرب به المثل في الشقاء والطمع. انظر الأعلام: ٥/ ٣٥. ومجمع الأمثال: ١/ ١٣ رقم ٦.

(٢) «أخنث من هِيت» مثلٌ من أمثال أهل المدينة سار على عهد النبيّ محمّد. وهيت كان من مخنّثي المدينة يدخل على النساء فلا يُحجَبن. فكان هيت يدخل على أزواج النبيّ محمّد متى أراد فدخل يومًا دار أُمّ سلمة ومحمّد كان عندها. فأقبل على أخي أُمّ سلمة ويقول له كلامًا خبيثًا، فسمع ذلك النبيّ محمّد وأمره بأنْ يسير إلى خاخ (وهو موضع بين الحرمين) حيث بقي هيت حتى أيّام عثمان خوفًا من العقاب. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٤١ رقم ١٣٣٧. والمستقصى: ١/ ١١١ رقم ٤٣١.

(٣) «أخنث من طويس» مثلٌ. وكان طُوَيْس من مخنّثي المدينة وهو أوّل من غنّئ في الإسلام بالمدينة وله أخبار أخرى. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٥٤ رقم ١٣٦٦. والمستقصى: ١/ ١٠٩ رقم ٤٢٩.

(٤) «أخنث من دلال» مثلٌ. ودلال أيضًا من مخنّثي المدينة واسمه نافذ وهو ممّن خصاه أمير المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٤٣ رقم ١٣٣٨. والمستقصى: ١/ ١٠٩ رقم ٤٢٨.

(٥) هو قريب من المثل «أهون من تبنة على لبنة». والتبنة هي عصيفة الزرع من البُرّ لا قيمة لها فهي هيّنة من الهوان أي عدم القيمة. انظر مجمع الأمثال: ٣/ ٥١٠ رقم ٤٦٣٣.

(٦) المثل: «أهون من ذنب الحمار على البيطار». وذنب الحمار كذلك لا قيمة له عند البيطار عندما يطبّب البيطار الحوافر. انظر مجمع الأمثال: ٣/ ٥١٠ رقم ٤٦٣٣.

فلو لبس أحدُهم النهارَ لدنَّسَه أو تفل في البحر لنجّسَه، أحمق هِلْباجة[١] كأنّه الهاجة[٢]، قد تعوّد خبز السفر وسفل يده من الصغر، والتفّ بحُصُر الجوامع وأصبح من عرائس المحافل المجامع، تراه أكسى من بصلة وهو أنهش من أَصَلة[٣] وأفتك من أرقم[٤] وأكره من علقم[٥]، ظهارته ليث وبطانته خنزير، وهو كالقبر لا يفارقه منكر ولا نكير، لا يبضُّ حِجْرُه ولا يُحمَد أثرُه، يهبّ مع كلّ ريح ويدرج في كلّ وكر ضيّق وفسيح، ويفتخر بفعل القبيح ويعجز الطبيب عن مداواة حمقه ولو كان المسيح، يأكلُ خبزَه بلحم الأصدقاء ويشرب فوقه ما سفك من الدماء، يُشامم شَمام[٦] وهو أقود من زمام وأضعف من بنت الشمام وأبغض من الدِمام[٧] ومن نقض الذمام [١٣أ] وأحمل للنقص من إمام، ثوب فضل رثّ تحت جسم حمار غثّ، لا ينهض بحثّ ولا يُصغي لبثّ، وله قصيد كأنّه الفصيد وقريض أشعار كقريض الفار وغزل أقبح من القَزَل[٨] وتشبيب كأنّه النبيب[٩] ومديح أقبح من القبيح، ومنادمة كأنّها مشاتمة ومحاضرة كأنّها مصادرة ومناصحة كأنّها مناطحة ومهازلة كأنّها مقاتلة.

لا يميل إلى الحقّ ولا يرى كاملًا غيره في الخلق، إذا مدحته مطر واستمطر وعبس وبسر وأدبر واستكبر وقال: ﴿إِنْ هذا إِلّا سحرٌ يُؤْثَر﴾ [المدّثّر: ٢٤]، يرعى

(١) هِلْباجة: الأَحمق الذي لا أَحمق منه. (لسان العرب، هلبج)
(٢) الهاجة: النعجة التي لا تشتهي الفحل، والضِّفْدَعَة الأُنثى والنعامة. (لسان العرب، هيج)
(٣) أصلة: حيَّة قويَّة عظيمة.
(٤) أَرْقَم: من الحيّات الذي فيه سواد وبياض، وهو أَخبث الحيات وأَطلبها للناس. (لسان العرب، رقم)
(٥) العَلْقَم: شجر الحَنْظَل ثمره مُرّ. (لسان العرب، علقم)
(٦) شَمام: اسم جبل.
(٧) دِمام (جمع مؤنث من دميم): كلّ ما هو قبيح.
(٨) القَزَل: أَسوأ العَرَج وأَشدّه. (لسان العرب، قزل)
(٩) نبيب التيس: صوته عند الهياج. (لسان العرب، نبب)

الخَلَّة[١] ولا يرعى الخُلَّة[٢] ويوهمك أنّه صحيح الوداد وهو من أحرف العلّة، لا يقرّ له من طلب الدنيا قرار فهو جِيفةُ ليلٍ، قُطْرُبُ نهار[٣] وأمّا كلامه فهو ممّا يذرق عليه الطير ويبول عليه الثعلب، وتدفنه السنانيرُ ويعافه القرادُ والحمل والكلاب والخنازير، أذلّ من نَعْل وألأم من نَغْل[٤] وأجهل من أبي جهل[٥]، الفاضل عنده أضيع من قمر الشتاء ومن المصباح عند العمياء، ومن الذهب في التراب ومن عقود الدرّ في أعناق الكلاب، والوقوف عليه أصعب من الوقوف على أحد الأوتاد والجلوس عنده أعظم من الجلوس على نار الفضاء وشوك القتاد كما قلت فيه وفُقت واصفيه: [من المجتث]

كم وجهِ شخصٍ يَبَشُّ ... وقلبُه لكَ حَشُّ[٦]
كأنّه دينارٌ ... علاه حُسْنٌ ونقْشُ
لكنَّ باطن ذاك الـ ... ـدينار زيفٌ وغشُّ
فإنْ شككتَ فجرّب ... فالقبر بيديه نبشُ
فأهلُ دهري أفاعي ... لها سُموم ونهشُ[٧] [١٣ب]

(١) الخَلَّة: الخَمرة الحامضة أو المتغيّرة الطعم من غير حموضة.
(٢) الخُلَّة: الصداقة والمحبّة التي تخلّلت القلب.
(٣) الجِيفة: جُثَّةُ الميت إذا أنتنت. والقُطْرُب هو ذبابة لا تفتر عن الحركة وفي حديث ابن مسعود: «لا أَعرِفَنَّ أَحدَكم جِيفةَ لَيْلٍ قُطْرُبَ نهارٍ» أي يسعى طول نهاره لدنياه وينام طول ليله كالجِيفة التي لا تتحرّك». (لسانً العرب، جيف)
(٤) النغل: ولد الزنية.
(٥) أبو جهل هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي (ت. ٢هـ/ ٦٢٤م) من أشدّ الناس عداوةً للنبيّ محمّد. أدرك الإسلام وكان يُقال له «أبو الحكم» فدعاه المسلمون «أبو جهل». انظر الأعلام: ٥/ ٨٧.
(٦) الحَشّ: النخل المجتمع يتغوّطون فيها. (لسان العرب، حشش)
(٧) نَهَشَ الكلبُ فلانًا: عضَّه وخَدَشَه.

فالبعضُ سودٌ خلعن الثيابَ والبعضُ رُقْشُ
والكلّ عند صيال عُمْيٌ وبُكمٌ وطُرشُ
فاحذرْ أذاها ففيها مع شدّةِ الضعف بَطْشُ
وقد نصحتُك جَهدي ممّن عن الحقّ يعشُ
ممّن يُرى إنسانًا مهذَّبًا وهو وحشُ
يعلو عليك كعرشٍ ذي رفعة وهو فرشُ
كم خاضَ بحرَ ضلال فاغتاله فيه قرشُ
وما درى أنّ عُقبى دنياه موت ونعشُ
فاحذر كثيرَ أذاهم فأوّل الغيثُ رشُّ
وماذا عليّ إذا ما لم تقبل النصح أرشُ[1]

فلمّا سمعتُ نظامَه الذي يتعلّم منه السحرَ هاروت[2] وتصبحُ أبياتُ النوابغ عنده أوهى من بيوت العنكبوت، ويخجل عنده منثورُ الزهر ومنظوم الدرّ والياقوت طربت بقريضه وأجبته على عروضه فقلت: [من المجتث]

لله دَرُّكَ يا من إذا شدا فهو وَرْشُ
وَرْشٌ له في فؤادي وَكْنٌ ووَكرٌ وعِشُّ
وكم له بيتُ شعرٍ له من الحسنِ نمشُ[3]
يُحيي مواتَ فؤادي كأنّما هو طشُّ[4]

(١) الأرش: الدية والاختلاف والخصومة.
(٢) هاروت (وماروت) ملكان نزلا من السماء ليمتحنا المؤمنين بسحرهما. انظر قصص الأنبياء المسمّى بعرائس المجالس للثعالبي: ٤٣.
(٣) في الحاشية: أي أثر.
(٤) في الحاشية: أي مطر.

وكـــــلّ قلـــــب عليـــــه لـــــه ارتيـــــاح وهـــــشُّ[١]
أجـــــادَ في وصـــــفِ قـــــومِ لهـــــم عُـــــرامٌ وفُحـــــشُ
بهـــــائمٌ لـــــيس فيهـــــا مثـــــل الحمولـــــة فـــــرشُ
وذو الوجاهـــــــة مـــــــنهم في وجـــه دهـــري خمـــشُ[٢] [١٤أ]
تـــــراه كالتـــــاج يعلـــــو فـــوق الـــورى وهـــو خفـــشُ[٣]
وفي انتفـــــــاخ كـــــــزِقٍّ لـــــه المذلّـــــة فـــــشُّ
ولـــــيس كـــــالقطنِ إذ كـــــم قـــــد أصـــــلحَ القطـــــنَ نفـــــشُ
دومًـــــا تـــــراه حمـــــارًا مســـــتأتنًا وهـــــو كـــــبشُ
ببـــــــاطنٍ كحديـــــــدٍ وظـــــاهرٍ هـــــو هـــــشُّ[٤]
فالجســـــمُ منـــــه ســـــمينٌ ودينُـــــه فيـــــه نخـــــشُ[٥]
لـــــذلك تشـــــريه منـــــه بتافـــــه وهـــــو نـــــشُّ[٦]
فـــــإنْ تـــــردّى ببيـــــر فـــــلا تلفـــــاه نعـــــشُ

فقال: لا خانتك أفكارُك ولا كسدتْ أبكارُك، فلقد أتيتَ بدرر تركتْ نظامي كالصدف وبجواهر ألفاظ ما الألفاظ لديها إلّا كالخَزَف[٧]، مع إتيانك بها من البحر والعَروض والقافية وعدم إغارتك على قافية من قوافي أبياتي الماضية، ولقد ساجلتني في هجوِ قومٍ تجاوزوا الحدودَ وهدموا شرفَ الجدود، وخاضوا في بحر

(١) في الحاشية: الإقبال مع السرور.
(٢) في الحاشية: جرح الظفر.
(٣) في الحاشية: خف.
(٤) في الحاشية: لين.
(٥) في الحاشية: الهزال.
(٦) نشّ الغدير والحوّض: جفّ وذهب ماؤه.
(٧) الخزف: ما عُمِل من طين وأُحرق بالنَّار فصار فخّارًا.

الظلمات وسكروا من خمر الشهوات، وصيّروني بينهم مُثْلةً حتّى حبّبوا إليّ الخلوة والعزلة، فأصبحت لبيتي حِلْسًا وطبت بالوحدة نفسًا، وسجنت نفسي ثمّ قيّدتُها بقيد الصبر الوافر لعلمي بأنّ الدنيا سجنُ المؤمن وجنّةُ الكافر، فكنتُ وإيّاهم كما قالت حَذام[١]: «فلو تُرِكَ القطا ليلًا لنام»[٢] وكانوا كما قيل[٣]: [من الطويل]

ضَـفادِعُ في ظَلمـاء ليـلٍ تجاوبَـتْ فـدَلَّ عليهـا صَـوْتُها حيَّـة البَحْـرِ

فقلتُ: سبحان الله لقد شاركتَني حتّى في العزلة عن الخلق والوحدة ولم تنفرد عنّي إلّا بالفضل العظيم وحده، ولقد هوّنت عليَّ الوقوعَ [١٤ب] في هذا الشَرَك ففي المثل «الشرُّ خير إذا كان مشتركًا»[٤] ومن كلام الشعراء[٥]: [من الوافر]

إذا الحِمـــلُ الثقيـــلُ توازعتْـــه رقـابُ الجمعِ خـفّ على الرقـابِ

ومن ذلك قول الخنساء[٦]: [من الوافر]

ولـــولا كَثْـــرَةُ البـــاكينَ حَـــوْلي علـــى أحبـــابهم لقتلـــتُ نفســـي
ومـــا يَبكـــونَ مثـــلَ أخـــي ولكـــنْ أُعـــزّي الـــنفسَ عنـــهُ بالتأسّـــي

(١) حَذام بنت الريان (تاريخ وفاتها غير معروف) جاهلية يمانية يُضرب بها المثل في صدق الخبر. انظر الأعلام: ٢/ ١٧١.

(٢) هذا المثل يُضرب لمن حُمِل على مكروه من غير إرادته. ويُقال نزل عمرو بن مامة على قوم من مُراد فطرقوه ليلًا فأثاروا القطا من أماكنها فرأتها امرأته طائرة فنبّهت المرأة زوجَها فقال: إنما هي القطا فقالت: لو تُرِكَ القطا ليلًا لنام. انظر مجمع الأمثال: ٣/ ٨٢ رقم ٣٢٣٠ بلفظ «لو تُرك...» وليس «فلو تُرك». والمستقصى: ٢/ ٢٩٦ رقم ١٠٤٨.

(٣) البيت للأخطل. انظر ديوانه: ص ١٣٦.

(٤) انظر مجمع الأمثال: ٢/ ١٦٩ رقم ١٩٨٥.

(٥) نُسب للسريّ بن أحمد بن السري الموصلي في نهاية الأرب: ٣/ ١٠٧.

(٦) انظر ديوان الخنساء: ٢٢٦-٢٢٧.

فالحمد لله الذي أنزلني وإيّاك هذه الطبقةَ، ولكنْ أخبرني ما الذي ألجأك بعد اختيار العزلة إلى السفر الذي ورد فيه أنّه قطعةٌ من سقر؟

فقال: ألجأني إلى ذلك ما ألجأ الأُسْدَ إلى مفارقة أشبالها ومرابضها والطيور إلى ترك أوكارها ونواهضها[١]، وهو طلبُ ما يُمسك الرمقَ من القوت ومراعاة العيال التي شرفُها ملازمة البيوت، فهذا الذي حملني على ركوب الأهوال مفارقة الوطن والعيال، حتّى قطعتُ كلّ مَوماة[٢] لا أسمع فيها إلّا مناجاة الأصرمَين[٣] ولم يصحبني بها غير الأسودَين[٤]، يَضِلُّ الساري بها وإنْ كان نجمًا ويصبح قوسًا وإنْ كان سهمًا، لا يُسمع غيرُ عزيف الجِنَّان ونئيم[٥] الصدى[٦] ونعيق الغربان، بردُها زَمْهَرير وحرُّها من فَيْح[٧] السعير، كأنّها أُمُ مِلْدَمْ[٨] بردها وحرّها جهنّم وها أنا قد قطعتُ شقّتَها البعيدة وتجلّدت لخطوبها الشديدة، حتّى خضت فيها بحارَ السَراب على سفن الركاب، برياح العزم وشِراع الحزم، بحر لا تقطعه النينان[٩] ولا يوجد فيه رشفةٌ لظمآن، الداخل فيه مفقود والخارجُ منه كالمولود، وقد أعان اللهُ على خوضه بهذه النعامة المُزرية بعصافير كِسرى، وتُفاخرُ كلَّ قلوص إلّا العضباءَ[١٠] التي تشرّفت بركوب [١٥أ] صاحب الإسرا.

(١) النّاهِض: فرخُ الطائر الذي قَدَرَ على الطَّيَرَان.
(٢) الموماة: الفلاة.
(٣) الأصرمَين: الذِّئب والغراب، سُمِّيا بذلك لقطعهما الأنيس.
(٤) الأسودَين: الماء والتمر.
(٥) النئيم: صوتٌ فيه ضعف.
(٦) الصَدى: ذكر البوم.
(٧) الفَيْح: سُطُوع الحرّ وفَوَرانُه.
(٨) أُمُ مِلْدَمْ: كنية الحُمَّى.
(٩) النينان: الحيتان.
(١٠) العَضْباءُ: اسم ناقة الرسول. (لسان العرب، عضب)

ولقد غيّرتني الغِيَرُ وسفرتْ لي عن وجهها وعثاءُ السفر[١]، وسَفَعَتْني[٢] ذُكاء ولفحتْني سموم الهواء، وأنحلني الفراقُ وأقلقني تراكُمُ الأشواق، ولولا أنّ الخروجَ من الديار من أعظم البوس لما قرنه اللهُ تعالى في كتابه العزيز بقتل النفوس، بل قال الشاعر[٣]: [من الطويل]

لَموتٌ بحدّ السيفِ أسهلُ موقعًا على النفس من قتلٍ بحدّ فراقِ

وقيل لبعضهم: لِمَ كان السفر قطعة من العذاب؟ فقال: لأنّ فيه فراق الأحباب بل بالغ بعضهم فقال[٤]: [من البسيط]

لولا مفارقةُ الأحبابِ ما وجدَتْ لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلا

وقالوا: أهول السباق أهون من ألم الفراق، ومن الدليل على حريّة المرء حنينُه في غربته إلى أوّل وطن مسّ جلدَه بتربته ولو كان كبئر برهوت[٥] أو بيتِ العنكبوت، كما قال الشاعر[٦]: [من الطويل]

وكنّا ألِفناها ولم تَكُ مَألفًا وقد يُؤلفُ الشيءُ الذي لم يكُن حَسَنْ
كما تُؤلفُ الأرضُ التي لم يَطِبْ بها هواءٌ ولا ماءٌ ولكنّها الوطَنْ

وحسبك قول من شرف مَعَدًّا وعدنان: «حبّ الوطن من الإيمان»[٧] ولهذا أنزل الله تعالى عليه حين هاجر من مكّة على غير أُهبةٍ للسفر ولا استعداد ﴿إِنَّ

(١) وَعْثاءُ السفر: مشقته وشدّته.
(٢) «سفعتني» في الأصل.
(٣) بلا نسبة في البحر المحيط: ٢/ ٢٤٤. والكشّاف: ١/ ٢٣٦. وحاشية الطيبي على الكشّاف: ١٥/ ٣١١.
(٤) البيت للمتنبّي. انظر الديوان: ٣/ ١٦٣.
(٥) بئر برهوت: بئر في اليمن.
(٦) نُسبت لأبي بكر بن العلّاف المخرّف. انظر توضيح المشتبه: ٢/ ١٩١.
(٧) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ١/ ١١٠.

الذي فرضَ عليكَ القرآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ﴾ [القصص ٨٥] تسليةً له عن بُعد الوطن ووعدًا له برجوعه إلى ذلك السَّكَن فقلت له: أُعيذ شيبك من الشوائب ونفسك من النوائب: [من البسيط][١]

فـيمَ اقتحامُـكَ لُـجَّ البحـرِ تركبُـهُ وأنـت تكفيـكَ منـه مَصَّـةُ الوَشَـل

فقال[٢]: [من البسيط]

أُريـدُ بَسْـطةَ كـفٍّ أسـتعينُ بهـا علـى أداءِ حقـوقٍ للعُـلا[٣] قِبَلـي

[١٥ب] وتالله ما سعيي على نفسي التي ترضى باليسير ولكن على عيال يعتقدون أنّ وليَّهم على كلّ شيء قدير، والفتى من يُرجى دوام نفعه وخيرُه ولم يهتمّ في سعيه لنفسه كالسعي لغيره، كما قلتُ سابقًا:

إنّ الفتـى مـن لـم يـزلْ يحنـو علـى أبنـاءِ جنسـهِ
أبـدًا تـراه لغيـره يَسـعى ولا يَسـعى لنفسـهِ

وللّه درّ من قال[٤]: [من السريع]

ظِـلُّ الفتـى ينفـعُ مَـن دونَـهُ ومـا لـه في ظِلِّـهِ نَفْـعُ

فقلت له: هلّا كان ذلك قبل ارتحال شبابك وتمزيق إهابك، وذهاب أطيبَيك[٥] ونفاد أعذبَيك[٦]، واجتماع قواك واعتدال سواك، وكيفَ لزمتَ في ذلك

(١) من لاميّة العجم للطغرائي. انظر ديوانه: ٣٠٨. الوَشَلُ: الماءُ القليلُ يتحلَّب من جبل أَو صخرة ولا يتَّصل قَطُره وكذلك القليلُ من الدمع.
(٢) من لاميّة العجم للطغرائي. انظر ديوانه: ٣٠٢.
(٣) «للوَري» في الأصل ومصحَّح في الحاشية.
(٤) نُسب لأبي الفتح البستي في: التمثيل والمحاضرة: ١٢٧. والدر الفريد: ٧/ ١٥١. وبلا نسبة في: المنتحل: ١٨٩. والرواية في هذه الكتب: «حظّ» بدل «نفع».
(٥) الأَطْيَبان: الطعام والنكاح. وقيل: الفم والفَرْج. وقيل: الشَّحْم والشَّباب عن ابن الأَعرابي. (لسان العرب، طيب)
(٦) الأَعْذَبان: الطعام والنكاح. وقيل: الخمر والريق. (لسان العرب، عذب)

الوقت الدَعَةَ والوطن حتّى استوجبت أنْ يُقال لك: «الصيفَ ضيّعتِ اللبن»[١] وأصبحت قحلًا نحلًا تحكي الهلال دقّةً وشكلًا، فقال: كان لي حينئذ أهلُ معونة يكفونني الثقلة والمؤونة، فلمّا اجتثّتْهم المنيّةُ وانقطعت منهم الأمنيّة، ومات منهم من يُعاش في أكنافهم ويحتفلون بإخوانهم وأضيافهم، وتشعّث حالي ومرّ منه ما هو حالي، تجشّمتُ عَرَق القِربة[٢] وتكلّفت تعب الغُربة وتالله ما خرجتُ من الوطن الذي الفؤاد به يعلّق إلّا بعد وصولي إلى حالة أعظم من حالة ابن المذلَّق[٣] ثمّ استعبرَ وأنشأَ يقول[٤]: [من الطويل]

مَـن يـكُ مثلـي ذا عيـالٍ ومُقتِـرًا ... مـن المـال يطـرحْ نفسَـه كـلَّ مطـرح
ليبلـغَ عـذرًا أو يُصـيبَ رغيبـةً ... ومبلـغُ نفـسٍ عـذرُها مثـلُ مَـنْجَحِ

ويرحم الله من قال[٥]: [من الطويل]

(١) هذا المثل يُضرب لمن يطلب شيئًا قد فَوَّته على نفسه والقصة أنّ امرأة اسمها دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زُرَارة كانت تحت شيخ كبير فكرهته فطلّقها ثمّ تزوّجها فتى جميلُ الوجه وأجْدَبَتْ فبعثت إلى الشيخ تطلب منه حَلُوبة فقال الشيخ: «في الصيف ضيّعتِ اللبن». وانظر مجمع الأمثال: ٢/ ٤٣٤ رقم ٢٧٢٥. والمستقصى: ١/ ٣٢٩ رقم ١٤٢٦.

(٢) من المثل «جَشِمْتُ إِلَيْكَ عَرَقَ القِرْبَة». ومعناه تكلفت لك ولأجلك أمرًا صعبًا شديدًا. انظر مجمع الأمثال: رقم ٨٧٧.

(٣) ابن المذلّق رجل من عبد شمس. ويُضرب به المثل في الفقر والإفلاس. انظر مجمع الأمثال: ٢/ ٤٦١ رقم ٢٨٠٠. وجمهرة العسكري: ٢/ ١٠٧ رقم ١٣٤٧.

(٤) نُسبت لعروة بن الورد في: التمثيل والمحاضرة: ٥٧. وثمار القلوب: ١٠٣. ولباب الآداب: ١٢٦. وأمالي القالي: ٢/ ٢٣٤. وبهجة المجالس: ٤٠. ونهاية الأرب: ٣/ ٦٨. ونُسبت لأوس بن حجر في: عيون الأخبار: ١/ ٣٤٣.

(٥) البيت للكميت بن زيد الأسدي. انظر ديوانه: ٧١. والبيت في الديوان «فلا رأي للمحمول إلّا ركوبها». والبيت في: الشعر والشعراء: ٢/ ٥٦٨. والتمثيل والمحاضرة: ٦٨. والحماسة المغربيّة: ٢/ ٣٣٥. ونهاية الأرب: ٣/ ٧٤. والدر الفريد: ٣/ ١٣٤. ورواية البيت في كلّ هذه الكتب كما أثبتناها.

إذا لـــم يكـــنْ إلّا الأســـنّة مركبـــا فـــلا أرى للمُضـــطرِّ إلّا ركوبهـــا

[١٦أ] وفي المعنى قول الآخر[١]: [من الطويل]

ويركبُ حدَّ السيفِ من أنْ تضيمه إذا لم يكنْ عن شفرةِ السيفِ مِزْحَلُ

وبعد هذا فإنّي على ظنٍّ قد لا يتحقّق ورجاءٍ قد تذروه رياحُ الأقدار فيتمزّق، ولكنّ الله قد أمر بالسعي وترك الدعة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهاجِرْ في سبيلِ الله يَجِدْ [في الأرضِ] مُرَاغَمًا كثيرًا وسَعَةً﴾ [النساء ١٠٠] وقال تعالى حاثًّا على السعي لخلقه: ﴿فامشوا فِي مَناكِبِها وكُلوا من رِزْقِهِ﴾ [الملك ١٥] وفي حديث من صلّى اللهُ وملائكتُه عليه وسلّموا: «سافروا تصحّوا وتغنموا»[٢] وقال الشاعر[٣]: [من السريع]

إنْ خانـــك الـــدهرُ فكـــنْ لائـــذًا بالبيـــدِ والظلمـــاء والعـــيسِ

ولا تكـــنْ عبـــد المُنـــى فـــالمُنى رؤوسُ أمـــوال المفـــاليس

وفي المعنى قول أبي الأسود الدؤلي[٤] حيث يقول[٥]: [من الوافر]

ومـــا طلـــبُ المعيشـــةِ بـــالتمنّي ولكـــنْ ألـــقِ دلـــوكَ في الـــدلاءِ

فـــإنّ مقـــادرَ الـــرحمن تجـــري بـــأرزاق العبـــادِ مـــن الســـماءِ

(١) البيت لمعن بن أوس المزنيّ. انظر ديوانه: ٩٤.

(٢) انظر مسند أحمد: ١٤/ ٥٠٧. والأوسط: ٧/ ٢٤٥. والسنن الكبرى: ٧/ ١٦٥.. وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ١/ ٤٢١.

(٣) البيتان لأبي بكر الخالدي. انظر التمثيل والمحاضرة: ١١٣. ويتيمة الدهر: ٢/ ٢٢٥. ونهاية الأرب: ٣/ ١٠٧.

(٤) أبو الأسود الدُّؤَلي: ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني (ت. ٦٩هـ/ ٦٨٨م) واضع علم النحو، من فقهاء التابعين وشعرائهم وفرسانهم. انظر الأعلام: ٣/ ٢٣٦.

(٥) انظر ديوان أبي الأسود الدؤلي: ١٦٠، ٣٠٤، ٤٢٥. وجمهرة الأمثال: ١/ ٧٤. والأضداد لابن الأنباري: ٣٩٧. وخزانة الأدب: ١/ ٢٨٥. ومسالك الأبصار: ٧/ ٧٦. والوافي بالوفيات: ١٦/ ٣٠٦.

وقال آخر[١]: [من الطويل]

على المرء أنْ يسعى بما فيه نفعُه ويقضي إلهُ الخلق ما كان قاضيا

ومن زعم أنّ مباشرة الأسباب تنافي التوكّل فقد عمي عن أسباب الشرّ والخير، والتحقيقُ أنّ حقّ التوكّل مباشرةُ الأسباب مع عدم الاعتماد عليها كما يشير إليها حديث الطير[٢] وإنّما يباشرها العبد أدبًا وامتثالًا لربّ الأرباب وليرتقي بها إلى معرفة ذاته التي هي السبب الأعظم المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقوا في الأسبابِ﴾ [ص ١٠].

فقلتُ: وما حكمة أمر العبد بمباشرة السبب ولو شاء الله لرزقه من غير تعب لأنّ السبب أمرٌ عادي عند كلّ مُنتَبِه يخلق اللهُ المُسبَّب عنده لا به؟ فقال: [١٦ب] تلك حكمةٌ باهرة وآية ظاهرة أَمَرَكَ بمباشرة السبب في الدنيا لينبّهَك على أنّك لا تنال إلّا بشقّ الأنفس ما فيها من الشهوات الفانية فكيف تنال مع الراحة نعيم الآخرة الباقية؟ فقلت: صدقتَ وبالحكمة نطقتَ فكيف يلتئم ما قدّمت من مدح السفر مع حديث «السفر قطعةٌ من العذاب»[٣]؟ فقال: اعلم أنّ السفر كالأَفعى فيه السَّمُ والترياق وكالماء فيه الحياة والإغراق، فقوله «سافروا تغنموا»[٤] تعرّضْ لخيره، وقوله «السفر قطعة من العذاب»[٥] تعرّضْ لضيره.

(١) البيت لإبراهيم بن المهدي. انظر التمثيل والمحاضرة للثعالبي: ١٢. والشطر الأوّل من البيت كما ورد في التمثيل والمحاضرة «على المرء أن يسعى ويبذل جهده».

(٢) حديث الطير هو: «لو أنّكم توكّلتم على الله حقّ التوكّل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا». انظر سنن ابن ماجه: ١٣٩٤.

(٣) انظر صحيح البخاري: ٤٣٤، ٧٣٩، ١٣٨٢. وصحيح مسلم: ٩٢٧/١. والموطأ: ٥٧٦/٢. وسنن ابن ماجة: ٩٦٢.

(٤) تقدّم تخريجه.

(٥) تقدّم تخريجه.

ومثله ما ورد في المال من المدح والمذام ومنه «نعم البيتُ الحَمَّام»[١] و«بئس البيتُ الحَمَّام»[٢] وهذا نوع من أنواع البديع تسمّيه أهله بالمغايرة لا يقتدر عليه إلّا كلُّ ذي قريحة غير قريحة وفكرة ذكيّة غير فاترة ولا شحيحة، لكن لا بدّ أنْ يَمدح فيه الشيءَ من غير الوجه الذي ذمّه وبالعكس وذلك ممّا تنشرح له الصدور وتطيب به النفس.

قال: ثمّ أعود إلى بقيّة جواب كلامك وما عرضت لي فيه من ملامك فأقول: وماذا على مَن أذهب أطيبيه وأعذبيه الزمانُ إذ حفظ اللهُ عليه القلبَ واللسان؟ وقد عرفتُ المرء بأصغريه[٣] لا بأكبريه[٤] وأمّا الشيب فهو ثوب الوقار وزهرة الأعمار، وزبدة حياة المرء التي مخضتْها يدُ التهذيب والتأديب، وسبيكةُ الفضّة التي سبكتْها راحةُ التجريب، وفجر الوسنان وأفضل الألوان، ونجوم الهدى ورجوم العِدا، ونذير الأبرار وبطاقة العتق من النار، ففي الزبور يقول الباري: «الشيب نوري وأنا أستحي أنْ أحرقَ نوري بناري»[٥] على أنّ ما نقص من المرء من شبابه [١٧أ] يزيد في عقله وآدابه كما قال ابن المعتز[٦]: [من المتقارب]

وما يُنتَقَصْ من عقول الرجالِ يَزِدْ في نُهَاها وألبابها

(١) انظر المقاصد الحسنة: ٧٠٠ بلفظ «نِعْم البيت الحمَّام فإنّه يَذْهَبُ بالوسخ ويذكّر الآخرة».

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٥/ ٣٣٨. وضعيف الجامع الصغير: ٣٤٧.

(٣) من أمثال العرب: «المرْء بِأَصْغَرَيْهِ» وأَصْغَراه قلْبُه ولسانه. ومعناه أَن المَرْءَ يعلو الأُمور ويَضْبِطها بِجَنانه ولسانه. (لسان العرب، صغر)

(٤) الأكبران: قيل: الهِمَّة والفِعال أو الهِمَّة والنَّفْس. انظر معجم اللغة العربية المعاصرة: ١٨٩٦ (كبر).

(٥) انظر معجم السفر لأبي طاهر السِلَفي: ٨١ بلفظ «الشيب نوري وأنا أكرم أن أُحرِق نوري بناري».

(٦) انظر ديوان ابن المعتز: ١/ ٢٢٠.

وقال عليّ[١] رضي الله تعالى عنه: «بقيّة عمر المرء ليس لها ثمنٌ يستَدْرك بها ما فات ويحيي بها ما مات» وقلتُ سابقًا من فصل: إذا رحل عن المرء شبابُه ووقع نَسْرُه وطار غرابه، ذهبتْ لذّةُ عمره ولم يبقَ منه غير دُرْديّ[٢] خمره، لكنّ ما أحسن تلك البقيّة إذا استدرك بها من التقصير وصرفها في طاعة مولاه السميع البصير، فهنالك يبدّل اللهُ حركات نفسه سكنات وسيئاته حسنات، فيسمعُ هواتفَ الحقّ تنادي نفسه بأذن تُصغي إلى الحقّ وتعي، ﴿يا أَيَّتها النفْسُ المُطمَئِنّةُ ارْجِعي﴾ [الفجر ٢٧-٢٨] فترجعُ إلى سعة رحمة الرحيم وتسبح في بحار كرم الكريم، وإنّما الأعمال بالخواتيم.

وأمّا الصِبا فهو شعبةٌ من الجنون ومطيّة المغرور المفتون، تسلكُ به أضيق المسالك وتقتحم به في حفر المهالك، وهو سكران من خمرة الشهوات غارق في بحر اللذّات، فلا يستفيق من سكرته إلّا بسكرة تقطع الوريد ويقول مديرها عليه ﴿وجاءتْ سكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كنتَ منه تَحيد﴾ [ق ١٩].

وأمّا قولك إنّي قَحْلٌ نَحْلٌ فحسبك قوله ﴿وأوحى ربُّكَ إلى النحل﴾ [النحل ٦٨] أمَا بلغك يا ذا اللَسَن أنّ إمامنا الشافعيّ قال: «ما أفلح سمينٌ قطُّ إلّا أنْ يكون محمّد بن الحسن»؟ أمَا علمتَ أنّ لحم الآدميّ وشحم كِلاه لا يربو إلّا لعدم همّه بآخرته ودنياه؟ ومن لم يهتمّ بأحدهما خرج عن الإنسانيّة وتمخّض[٣] للحيوانيّة.

ثمّ قال: سبحان الله لقد رأيتُ منك عجيبًا وأمرًا غريبًا قلت: وما ذاك جُعِلتُ فداك؟ فقال: رأيتُك تضحك وتمحك[٤] وتَقرُب وتَعزُب، [١٧ب] وتَطلُع

(١) عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القريشي (ت. ٤٠هـ/٦٦١م) رابع الخلفاء الراشدين. انظر الأعلام: ٤/ ٢٩٥.

(٢) الدُردي: ما رسب أسفل من العسل أو الزيت.

(٣) «تمحض» في الأصل.

(٤) المَحْكُ: المُشارَّة والمُنازعة في الكلام والتمادي في اللَّجاجَة عند المُساوَمة والغَضب ونحو ذلك. (لسان العرب، محك)

وتَغرُب، وتطفو وترسب، وتغنّي وتنوح وتكتم وتبوح، وتتصابى وتتمشيخ وتتواضع وتتبذّخ، وتارةً أراك صِدِّيقًا وأخرى أحسبُك زنديقًا، حتّى كأنّك في تلوّنك الغولَ أو الحرباءَ أو أبو بَراقِش[١] أو أبو قَلَمُون[٢] مع علمك أنّ التلوّن يُسقِطُ الإنسان من العيون كما يُسقط أوراق الغصون، كما قيل: [من الكامل]

إيّاك تُظهِرُ للأنام تلوّنًا فيضيعَ قدرُك عندَهم وتُلامُ
أوما ترى الأوراقَ تسقطُ مُذْ بدا تلوينُها فتدوسُها الأقدامُ؟

وقال آخر[٣]: [من الكامل]

كم أنت في حقّ الصديقِ تُفرّطُ ترضى بلا سببٍ عليه وتَسخطُ
يا من تلوّنَ في الوداد أما ترى ورقَ الغصونِ إذا تلوّن يسقطُ؟

فقلت: والله ما اقتدحتُ زَندَك إلّا لأرى ما عندك ولا قرعتُ مَرْوَتَك إلّا لأرى مروءتك، وما اختبرتك إلّا لأتّخذك صاحبًا وخليلًا وظِلًّا ومقيلًا، فقد أوصى الحكماءُ بالاختبار قبل الاصطفاء والاختيار واختبار من تريد اتّخاذه صاحبًا من الرجال بواحدة من ثلاث خلال: الأولى: أنْ تنظرَ كيف كان مع إخوانه وأهل عشرته الذين سبقوك إلى مودّته وصحبته فإنْ رأيتَه فَرِكَهم وجفاهم وتركهم فتباعدْ عن صحبته ألف مرحلة واعلم أنّه لا جديد لمن لا خَلَق له. قال الشاعر[٤]: [من المتقارب]

إذا ما أردت إخاءَ امرئٍ فسَلْ كيف كان لإخوانِهِ

(١) أبو بَراقِش: طائرٌ يتلوّن يُضرب به المثل في التحوّل والتغيّر. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٠٤ رقم ١٢١٤. والمستقصى: ١/ ٨٩ رقم ٣٣٩.
(٢) أبو قَلَمُون: طائرٌ من طير الماء يُتراءَى بألوان شَتَّى وقيل إنّه ضربٌ من ثياب الروم يتلوّن ألوانًا للعيون. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٠٤ رقم ١٢١٥.
(٣) لابن عزّ القضاة. انظر الوافي بالوفيات: ٩/ ١٠٠.
(٤) نُسبا للعبّاس بن فضل بن عتبة في بهجة المجالس وأنس المجالس: ١/ ٦٥١.

فإمّـــا رغبـــتَ فأحببتَـــه وإمّـــا ترغّبـــتَ عـــن شـــانهِ

الثانية: أنْ تنظر كيف صلتُه لرَحِمه موجودِها ومفقودها لا سيّما أبويه الذين هما السبب القريب في كون نفسه ووجودها، فإنْ وجدته [١٨أ] لأحد أبويه منازعًا أو لأحد من رحمه قاطعًا ففرّ منه فرارك من العيب والعار واعلم أنّ الله قاطِعُه عن كلّ خير وأنّ مصيره إلى النار، ولعمري إنّ قاطِعَ الرحم أخبثُ من قاطع الطريق فكيف يطمع العاقل أنْ يكون له من ذلك العدوّ خيرُ صديق؟ ومن كان قاطعًا لرحم الأنساب كيف يُرجى وصله لرحم الأصحاب؟ الثالثة: أنْ تُغضِبَ من تريد اتّخاذه صاحبًا وحميمًا فإنّ الغضب يبوحُ لك من أخلاقه بما كان مكتومًا كما قال الشاعر: [من الطويل]

إذا رمتَ أنْ تختار في الدهر صاحبًا لنفسك من بين الأنامِ فأغضِبهْ
فإمّا تراه كاتمَ الغيظِ فارْضَهُ وإلّا فقد جرّبتَه فتجنّبهْ

وقد أضرمتُ لك نارَ الامتحان فوجدتُك الياقوت والمرجان، شعر[1]: [من البسيط]

وطالما أُصْلِيَ الياقوتُ نارَ غضا ثمّ انطفى الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

فامْدُد يدك أبايعْك على الأُخُوَّة فإنّك أجَلُّ من رأيتُ في دهري من أهل الفتوّة، فقال: هاك يَدَ المبايعة امتثالًا لأمرك وتعظيمًا، ﴿فمَنْ نكَثَ فإنَّما يَنكُثُ على نفْسِهِ ومَنْ أوْفى بما عاهدَ عليهُ اللهَ فسيؤتيهِ أجرًا عظيمًا﴾ [الفتح ١٠].

فلمّا تمّت المبايعةُ وثبتت المشايعةُ قلت: أريد منك أنْ تملأ صَدَفَ آذاني بدرر حِكَمك المبتكرة ونوابغ كلمك التي هي في خزائن أفكارك مدخّرة، فقال:

(١) البيت بلا نسبة في البحر المحيط: ٥٢/١٠. ومقامات الحريري: ٣٩٠. ومقامات السيوطي: ٤٧. وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام: ٢٢٦/١.

اسمع لما أقول واعقِلْ واعمل بما عقلتَ ولا تُهمِل وشِبْ عملَك بالإخلاص لتفوز بالخلاص ولات حين مناص، لا تصعّر خدَّك ولا تصغّر جِدَّك ولا تجاوز حدَّك، وكنْ بين القرب والشطط فإنّ خير الأمور الوسط.

قلت: زدني فقال: احذر الصاحبَ الصاخب والنسيب النشيب وعليك بالخليل الجليل الأثيل الأصيل النبيه [١٨ب] النبيل الذي يتباعد منك عند وضع الموائد ويتفقّدك في أوقات الشدائد، ويسترُ ما بدا من عيبك ويحفظُك في حضورك وغيبك وينعشك إذا عثرت ويفهم ما في ضميرك من عينك إذا نظرت، ويغار عليك من خياله ويفديك بنفسه وبماله كما قال الشاعر[١]: [من الرجز]

إنّ أخـــاك الـــذي يتبعـــك ومـــن يضـــرّ نفسَـــه لينفعَـــكْ
ومـــن إذا ريـــبُ الزمـــانِ صـــدَعَك شـــتّتَ شـــملَ حالِـــهِ ليجمعَـــك

واحذر أنْ تتّخذ صاحبًا من السَفَل وهو من يصحبك للأغراض والعِلَل، فإنّه متى انقطعتْ علّتُه تبعتْها خُلَّتُه، وإيّاك ووضعَ أمانة الأسرار في خزائن صدور الأشرار، فإنّهم أنمّ من الزجاج على الشراب[٢] ومن المشيب على الخضاب بل أنمّ من جَرَس[٣] ومن جوزتين في مِخلاة فرس، واسمع قولَ بعض الحكماء الذي لا يضلّ من يسمعُه، سرُّ المرء من دمه فلينظر أين يضعه.

(١) لأبي العتاهية. انظر ديوانه: حاشية ٢٧٤. وأنس المسجون وراحة المحزون: ١٧٢. وبلا نسبة في جمهرة الأمثال: ٥٨/١. وزهر الآداب: ٥٢١. والعقد التليد في اختصار الدر النضيد: ٣٤٩.

(٢) هذا القول قريب من المثل «أنمّ من الزجاجة على ما فيها». يقال الزجاج جَوهر لا ينكتم فيه شيء لما في جِرْمه من الضِّياء. انظر مجمع الأمثال: ٤٠٤/٣ رقم ٤٣٠٢. والمستقصى: ٤٠٢/١ رقم ١٧١١.

(٣) «أنمّ من جَرَس» مثلٌ يُضرب في كثرة النمّ. انظر مجمع الأمثال: ٤١٤/٣ رقم ٤٣٢٤. والمستقصى: ٤٠٢/١ رقم ١٧٠٨.

قلت: زدني فقال: احذر الشَرَه فإنّه يهدم الشرف وربّما عجز صاحبُه عن تلافي التَلَف، قلتُ: زدني فقال: كلام الغليظ الفَظِّ أشنعُ من شرب الدواء وتجرّعُ الفظّ، يتزاحمُ في الاستماع ولا تهضُمه الطباع، ومجالسة الثقلاء كمسألة البخلاء، وهي حُمّى الأرواح وجذام الأشباح، وغشاوة العيون وجالبة الشجون، واللطيف نقيضُ الكثيف عند أهل الميزان، والنقيضان لا يجتمعان كما لا يرتفعان.

فقلتُ: زدني فقال: العفاف هو الرضى بالكفاف، وحسبُ المرء ما يكفيه من المعاش وما يستره من الرياش، وربّما كان في الزيادة على ما يكفيه ما يُطغيه، كما قال من أغنى وأقنى ﴿إِنَّ الإِنسانَ لَيَطغى أنْ رآهُ استغنى﴾ [العلق ٦-٧] بل ربّما كان في زيادة المال نقصُ الأعمار كما في زيادة [١٩أ] الدُّهن في السِّراج والماء للأشجار قال الشاعر[(١)]: [من الطويل]

وقد يُذبح الإنسانُ من أجل ماله ... كما يُذبح الطاووسُ من أجل ريشهِ

وقال الآخر[(٢)]: [من البسيط]

كدودة القزِّ ما تبنيه يُهلكُها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفعُ

فقلت: زدني فقال: ارضَ من الفيض بالغيض ومن البيض بالقيض[(٣)]، وانظر إلى من هو تحتك في الدنيا وإلى من فوقك في الدين، وازهد في النعيم الفاني تَفُزْ بالنعيم

(١) نُسب للأمير أبي الفضل الميكالي في: التمثيل والمحاضرة: ١٢٨. وربيع الأبرار: ٥/ ٨٥. والتذكرة الحمدونيّة: ٨/ ١٠٥. ومسالك الأبصار: ١٥/ ٣٦٠. والدر الفريد: ٦/ ٢١٢. والشطر الأوّل في هذه الكتب: «وقد يهلكُ الإنسانَ كثرةُ ماله».

(٢) نُسب لابن الشبل في: البداية والنهاية: ١٦/ ٧٨. ومجمع الآداب: ٦/ ٥٧٦. ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان: ١٩/ ٣٥٤. والمنتظم في تاريخ الأمم: ١٦/ ٢١٣. والوافي بالوفيات: ٣/ ١١. بلا نسبة في: نهاية الأرب: ١٠/ ٢٩٨. ومعترك الأقران: ٢/ ٥١٠. والمستطرف: ٣٦٠. والمنهج المسلوك في سياسة الملوك: ٣٨٠.

(٣) القيض: قِشرةُ البَيْضة العُلْيا اليابسة.

الباقي أبد الآبدين فما أطيب الخمر لولا الخُمار[١] وما أكثر اللذّات لولا العار والنار.

فقلت: زدني فقال: لا تعاشر أهلَ الفسوق ولا تشمّر ساقك إلى السوق، وإيّاك وعلاجَ من في عقله خِلاج[٢] وإيّاك وما يُعتذر منه[٣] وعليك بما لا تستغني عنه ولا يغرّك من الناس محاسنُ اللباس واشكر على المعاونة إذا كانت مداهنة أو مهادنة.

قلت: زدني فقال: أحسن بالله يقينك فإنّ الله يعينُك، وإذا صحّحتَ المعرفةَ ذهبت أفكارك المُتلِفة، وإذا صحّحت التسليم لربّك والتفويض بَعث لك رزقك على يد مَن منه يئست وهو في طرَفَي نقيض، قلت: زدني فقال: المَقنَعة مَفنَعة[٤] والحريص لا يزال جامع البطن خميصه ولا يبرح عبدَ الدينار والدرهم والبطن والفرج والخميصة[٥].

قلت: زدني قال: من استكمل تقواه وأحسن رعواه ونبذ دعواه ورفع شكواه إلى من يعلم سرّه ونجواه واستمطر سحائب كرمه وجدواه أعطاه فأغناه عمّن سواه، ومن أعرض عن ذكره وعدل عن شكره واستغرق في سُكْره وكّله إلى غيره وحرمه بركةَ بِرّه وخيره.

قلت: زدني فقال: كنْ من أبناء [١٩ب] كلّ زمان وإذا لم تتمكّن أنْ تكون ليث عرين فكنْ جمل عِران[٦] واصبر على الغصص حتّى تمكّنك الفرص، والبس لكلّ دولة لبوسها وإذا[٧] جمحتْ بك الأوقاتُ فاصبر فلا بدّ لصروف

(١) خُمار الخمرة: ما أَصابك من أَلمها وصداعها وأَذاها.
(٢) الخِلاج: الاضطراب.
(٣) «وإيّاك ومن وما يعتذر منه» في الأصل.
(٤) الفَنَعُ: طِيبُ الرائحة ونَفْحةُ المِسْكِ وزيادة المال وكثرته.
(٥) الخميصة: كساءٌ أسودُ مربّعٌ. ولعلّه يقصد الثياب بشكل عام.
(٦) العِران: القتال.
(٧) في الأصل "وإذ" بدون ألف.

الدهر أنْ تسوسَها، وإذا وجدت الناس خُشَبًا مسنّدةً فلا تكنْ أنت سُوسَها.

قلت: زدني قال: ربّ شخصٍ عذلك فعدلك وآخر سرّك فضرّك، وقد تكره النفس من ينصحُها وتحبّ من يغشّها ويمدحُها، كما تكره الإهْلِيلَج[١] وهو دواؤها وتحبّ اللوزينج ومنه يتولّد داؤها.

قلت: زدني فقال: استعذ بالله من غلبة النفس ومن السكرات الخمس، ومن ظلمة القبر والرمس قلت: وما السكرات الخمس؟ قال: هي المذكورة في قول الشاعر[٢]: [من الخفيف]

ظلماتٌ خمسٌ إذ ابتُلـيَ المر ءُ بها صار خُلَّةً للزمانِ
سَكرةُ الحُبِّ والشبيبةُ والما ل وسكرُ المُدامِ والسلطانِ

ثمّ قال: واستعذ بالله من الحَين والأين ومن شرّ الأعميين، قلت: فما الأعميان يا بديع الزمان؟ فقال: أمّا عند العرب فهما الجملُ الهائج والبحر المائج، وأمّا عندي فهما قَبقَب[٣] المرء وعَوفه[٤] أي فرجُه وجوفُه ثمّ قال: واستعذ بالله من القَلَبة[٥] والغَلَبة ومن الإحْنَة[٦] والمحنة، ومن العُرِّ[٧] والعار

(١) الإهْلِيلَج: شجر ينبت في الهند وكابُل والصين، ثمره على هيئة حَبِّ الصَّنَوْبر الكبار.
(٢) البيتان بلا نسبة في: ثمار القلوب: ٤٩٧. والمنتحل: ١٩٢. وربيع الأبرار: ٥/ ١٨٠. وهناك اختلاف يسير في بعض كلمات هذين البيتين في هذه الكتب، ورُويت في ثمار القلوب على النحو الآتي:
سَكَرات خمسٌ إذا مُنيَ المر ءُ بهنّ صار أُكلةً للزمان
سكرةُ المال والحداثةُ والعشـ ـقُ وسكر الشباب والسلطان.
(٣) القَبقَب: البطن.
(٤) العَوف: الذَكَر.
(٥) القَلَبة: العلّة.
(٦) الإحْنة: الحقْد.
(٧) العُرّ والعَرّ: الجرب والقروح.

ومن فتنة الدرهم والدينار ومن حسد القريب والجار، ومن الولد العَقوق ومن زوجة تكفر الإحسانَ وتترك ما عليها من الحقوق ومن آفة اللسان، والنظر ومن الفقر والمرض عند الكبر ومن الفتَّانَيْنِ[١] والفِتْنَتَيْنِ[٢] ومن عداوة الجاهل وغدر الصاحب وتغاير الضَّرَّتين، ثمّ قال: أعوذ بالله من غَلَبَة الدَّيْن [٢٠أ] وغضب الوالدين ومن القِلّة والعِلّة والمَذلّة.

ثمّ تواتر منه الأنينُ وتأوّه آهة الحزين وقال: ويحَ غريبٍ في الدنيا طار غرابُه ونصل خضابُه وتكدّر شرابه وغرّه سرابه ودرجتْ أترابه ومُهد له في القبر ترابُه، وهو غارق في بحار اللهو مستغرق في نومة السهو، متلذّذٌ بذلك المنام مغترّ بما يراه فيه من الأحلام، تبدَّتْ له الدنيا في ثياب الغرور وسترت حزنَها بلباس السرور، وأذاقته عُسَيلتها حتّى ذهل عن مكرها ونسي ما تُخَيِّلُه للعيون من سحرها، فبينما هو راغبٌ في مدحها عن ذمّها إذ جرّعته كأسَ صابها وسمّها، وسلبتْه بعد روحه الأهلَ والمال وأسلمته إلى مضيق قبر لا يرى فيه إلّا الأعمال، فهنالك زال عنه خُمارُ خمرها وانكشف له ما موَّهته من سحرها وناداه هاتف الوعيد والتهديد بقوله ﴿فكشَفنا عنكَ غِطاءكَ فبصرُكَ اليومَ حديد﴾ [ق ٢٢].

فعند ذلك طلبَ الخلاصَ ولات حين مناص، فأقبل يعضُّ على يديه ندمًا ويبكي بدل الدموع نجيعًا ودمًا، فتأمّلْ فِعلَ الدنيا بعشّاقها ومن ولدته من بنيها وربّته بلحومها وأمراقها، كيف وطئتْهم بأخفافها وفطمتهم من دَرّ أخلافها، ورشقتهم بنبل مصابها وجرّعتهم من علقم هجرها وصابها، وفَرَتْهم بأظافيرها وأنيابها، واسترجعتْ منهم هِباتِها الفاخرة وردّتهم بأسوأ حال إلى ضرّتها الآخرة، فانقلبوا من دار كانت بشهواتهم عامرة إلى دار غدت من حسناتهم غامرة، ومن

(١) الفَتَّانان: الدِّرْهَم والدِّينار، ومُنْكَر ونكِير. (القاموس المحيط، فتن)
(٢) الفتنتان: المال والولد.

زوجة طالحة بعقولهم مهروها إلى زوجة صالحة لجهلهم هجروها [٢٠ب] ثمّ أنشأ يقول[١]: [من الطويل]

ألا إنّما الدنيا على المرء فتنةٌ على كلّ حالٍ أقبلتْ أم تولّتِ

وذلك لأنّ الغنيّ فيها مفتون والفقير فيها محزون، حالها حائل وظلّها مائل، ومناعها غير مانع[٢] ونافعها سمّ ناقع، لأنّها حِبالة ومتاعها زبالة، وهي نار الحُباحِب لكنّها في صورة ذبالة، حلالها حساب وحرامها عذاب، تَغُرُّ وتضرُّ وهي تمرّ مرّ السحاب لا ترى حركتَها العيونُ ولا تريك إلّا السكون، حشوها نِعَم وغايتها عدم وهي لا تظهر إلّا في ملابس النِعَم. شعر: [من السريع]

فيا لها سكّرةٌ حلوةٌ قد نغّصتْها لوزةٌ مُرّةٌ

فطوبى لمن عرف مكرَ دنياه وأمات ماله فأحياه.

فقلت: زدني فقال: الدنيا هِرَّة تأكلُ أولادَها وذئبةٌ إذا نظرتْ في قَرِينها جُرحًا أجهزت عليه لشدّة فسادها، فمن أرضعته من دَرّتها خَفَقَتْه بدِرّتها، فيا شقاوة أبنائها ويا سعادة أبناء ضرّتها، وكيف يلذّ للعاقل فيها رضعةٌ أو درّةٌ وهو عالم أنّه يُحاسَب منها على مثقال ذرّة؟

فقلت: زدني فقال: لا تزال الدنيا ترمي أبناءها بالقرح بعد القرح وتقدّمهم للمنايا كما يقدّم الراعي غَنَمه للذبح، فيا فوز من تبلّغ من تَيَّاره بالرَّشْحِ والنشْح واكتفى من متاعها بمقدار ما يُخرجه الزنادُ عند القَدْح.

قلت: زدني فقال: الدنيا والآخرة كالكلبة واللَبْوَة هذه كثيرة النجل وتلك

(١) نُسب لمحمّد بن حازم الباهليّ في: التمثيل والمحاضرة: ٨٦. ونهاية الأرب: ٣/ ٨٨. والدرّ الفريد: ٥/ ٦٣. وبلا نسبة في المنتحل: ١٧٥. ومعاهد التنصيص: ٢/ ٥٢.

(٢) يمكن أن يكون «ومتاعها غير ماتع». وعلى الوجه الأوّل ممكن أيضًا فالدنيا مناعٌ غير منيع أي حصن غير حصين للإنسان من أن يُتَخَطّف منه.

قليلة النسل وأُمّ الكرام قليلة الأولاد ولذا قلّت الكرامُ وكثرت الأوغادُ، كما قال الشاعر[١]: [٢١أ] [من الوافر]

بُغــاثُ الطيــرِ أكثرُهــا فراخًــا وأمُّ الصــقرِ مِقــلاةٌ نَــزورُ

وحسب الدنيا من الذمّ عند أهل الفِطَن أنّ اسمها مأخوذ من الدناءة وأنّ كنيتها أمُّ دَفْر[٢] وأمُّ دَرَن[٣] فالسعيد من غسل يديه وقلبَه من غَمَرِها[٤] وفطن لها فسلِم من غُبنها وغَرَرها، وتباعد من نارها وما تطاير من شررها، قلت: زدني فقال: الدنيا كلّها عِظاةٌ وعِبَر لا يفتُرُ لسانُ حالها عن تنبيه البشر، فسكوتها كلامٌ لا يسمعه الغافلُ وسكونها حركةٌ لا يحسُّ بها إلّا العاقلُ، قد أقامت على أبنائها الحجّةَ وأوضحت لهم الطريقَ والمَحَجَّة، وأرتهم مصارع آبائهم وآثارَ ما شادوه من بنائهم، وأوقفتهم على قبورهم وأسكنتهم في دورهم وقصورهم، فهي لا تُذَمّ لذاتها وإنّما لأبنائها الذين أعرضوا عن خالقهم وأقبلوا على لذّاتها، كما قال الإمام الشافعيّ رضي الله تعالى عنه[٥]: [من الوافر]

نَعيــبُ زمانَنــا والعيــبُ فينــا ولــو نطــق الزمــانُ بنــا هجانــا

وذلك أنّ الله سبحانه وتعالى جعلها دارَ مَمَرٍّ فاتّخذوها دار مَقَرٍّ، وجعلها مزرعةً للحسنات فصيّروها مزبلة للسيئات، وأعلمهم بأنّها سريعةُ الزوال فعلّقوا

(١) يُنسب للعبّاس بن مرداس ولكثيّر عزّة. انظر ديوان العبّاس بن مرداس: ١٧١ وتخريجات المحقّق لكلّ أبيات القصيدة التي منها هذا البيت وأماكن ورودها في كتب الأدب والتراث.

(٢) أُمّ دَفْر: كنية للدنيا والدَفْرُ الداهية.

(٣) أُمّ دَرَن: كنية للدنيا والدَّرَن السُّلّ.

(٤) الغَمَر: الدسم والحقد والغلّ (لسان العرب، غمر).

(٥) البيت منسوب لمحمّد بن محمّد بن جعفر بن لنكك في بغية الوعاة: ٢١٩/١. والوافي بالوفيات: ١٣٤/١. ونُسب للإمام الشافعيّ في: المحمّدون من الشعراء: ١٤٠. وبلا نسبة في: مناقب الشافعيّ: ٦٥.

ببقائها الآمال، فهم الذين ألبسوها ثيابَ المذلّة ولم يرعوا لها إلًّا ولا ذمّةً، وقصدوا بذلك برّها فكان ذلك للعقوق طريقًا كما قيل[١]:

ومـــن البِـــرِّ مـــا يكـــون عُقوقًـــا

فلمّا رأتهم قطعوا حبالَ خالقهم بوصل حبالها ردعتهم بعد لسان حالها بأفعالها، فضربتهم بعصا أعراضها وسياط أمراضها، فما نجع ذلك فيهم ولا ردعَهم ولا صدّهم عن غيّهم ولا منعهم، بل أشبهوا الطفلَ الصغير لأنّه يزدادُ نومًا كلّما حرّكتَه فعند ذلك جرّدتْ [٢١ب] لهم سيوفَ حِمامها ورشقتْهم بنبالها وسهامها، وأطعمتهم للدود والتراب وصاروا عبرةً لأولي الألباب ثمّ أنشأ يقول: [من الوافر]

نَـرَى الـدنيا وصـبوتَها فَنَصُـبوا ... ومـا يخلـو مـن الشـهوات قلـبُ
ولكـــنْ في خلائقهـــا نِفـــارُ ... ومطلبُهـا بغيـر الحـظّ صـعبُ
كثيـرًا مـا نلـومُ الـدهرَ فيمـا ... يمـرُّ بنـا ومـا للـدهرِ ذنـبُ
ويعتِـبُ بعضُـنا بعضًـا ولـولا ... تعـذّرُ حاجـةٍ مـا كـان عَتْـبُ
فضـولُ العـيشِ أكثرُهـا همـومٌ ... وأكثـرُ مـا يضـرّك مـا تُحِـبُّ
فـلا يغـررْك زخـرفُ مـا تـراه ... وعـيشٌ لـيّنُ الأعطـافِ رطْـبُ
إذ مـا بُلغـةٌ جاءتـك صَـفوًا ... فخـذها فـالغِنى مرعـىً وشُـرْبُ
إذ اتّفـق القليـلُ وفيـه سِـلْمٌ ... فـلا تُـرِدِ الكثيـرَ وفيـه حـربُ

قلت: زدني فقال: العاقل من أخلى من العيوب عيبتَه وحفظ حضور أخيه وغيبتَه، والسيّد من عمّ نوالُه، وشاع طَولُه وصدق قولُه وعفّ ذيلُه، ولم يَهُلْه

(١) نُسب للشافعي في: الوافي بالوفيات: ٢/ ١٢٦. والمحاضرات والمحاورات: ٢٠٨. ومطلعه: «رام نفعًا فضرّ من غير قصد». ونُسب ليوسف النقيب الحلبي في: سلك الدرر: ٤/ ٢٦٣.

صرفُ الدهر وهولُه، ومن إذا قدر صفح، وإذا أثرى ندح وإذا تَرِبَ ارتدى بالعفّة واتّشح، وإذا مُدِح أجاز ومدح، واللئيم ثأطةٌ مُدَّت بماء[١] وكنيف امتلأ بالأقذاء، وعند الضرورة يؤتى الكنيف والحزم أنْ يتوقّى المريضُ هواءَ الخريف، لأنّ شرّ الضروع ما دَرَّ على العصْب وشرّ العطا ما أُخذ بسيف الغصب، فلا أجر لمعطيه ولا بركة لآخِذِهِ فيه.

قلت: زدني فقال: البخيل يرتاعُ من السؤال ويرتاب ويأخذه النُّحاز[٢] والنُّحام[٣] والقُحاب[٤] ويفتلُ شعر لحيته وينكتُ الأرض بمخصرته ويصفرّ وجهُه ويضعُفُ منه الصوتُ وينظرُ إلى السائل نظرَ الشحيح إلى الغريم المفلس [٢٢أ] أو نظر المغشيّ عليه من الموت، والكريم يتبسّم لسؤال الندى كما تتبسّم ثغورُ الأزهار عن شنب الندى، وذلك لأنّ اللئيم يغصُّ بالسؤال ولذا يعتريه كما قدّمناه السعال، كما قال الشاعر في بخيل[٥]: [من الطويل]

مليءٌ ببُهرٍ والتفاتٍ وسعلةٍ ومسحةِ عُثنونٍ وفتلِ أصابعِ

قلت: زدني فقال: اللّهمّ سلّط الجَحاجحة[٦] على أموال النحانحة[٧] ليصلَ الفقير إلى حقّه ويعيشَ بما قُسِمَ له من رزقه، لأنّهم كالخمر لا يُخرج إلّا بالعصر

(١) «ثَأْطَةٌ مُدَّتْ بِمَاءٍ» مثلٌ يُضرب للرجل يشتدُّ موقُه وحُمْقه. والثأطة: الحَمْأة، وإذا أصابها الماء ازدادت رطوبةً وفسادًا. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٢٧٠ رقم ٧٧٣.

(٢) النُّحاز: داءٌ يصيب الدواب في رئاتها فتسعُلُ سُعالًا شديدًا.

(٣) النُّحام: صوت تشاغل البخيل بالسعال عند سؤاله.

(٤) القُحاب: سعال الخيل أو الجمل.

(٥) بلا نسبة في: البيان والتبيين: ١/ ٤. والكامل: ١/ ٨٠. وزهر الآداب: ١/ ١٠٦. ونهاية الأرب: ٧/ ٩. والعقد الفريد: ٤/ ١٤٦. ومحاضرات الأدباء: ١/ ٨٨. والتذكرة الحمدونيّة: ٥/ ١٢٥.

(٦) الجحاجحة (جمع الجحاح): وهو السيّد السمح الكريم.

(٧) النحانحة: البخلاء.

وكالجوز لا يؤكل إلّا بعد الكسر وكالغصن لا يُجنى إلّا بعد الهصر.

قلت: زدني فقال: لا خير في عالمٍ إذا لم يكن في بحر العمل مغموسًا ولا في مدرّس لم يكن مُدْرِسًا ومدروسًا.

قلت: زدني فقال: شرّ الرجال من تزيّن بالداح[١] وتشبّه بالرداح[٢] فكان كنيفًا ظاهرُه الزينة والنفاسة وباطنه الخباثة والنجاسة، فقلت: زدني فقال: المَقنَعة مَفنَعة، والطَّبْع[٣] في الطمع، وقليل يكفي خيرٌ من كثير يُلهي، وخير مَعيشة المرء في هذا الوقت التمعّد، وأجمل طرائقه عدمُ التوسعة في المعاش ولزوم التزهّد، فالتوسّع في المعاش أمرٌ عسير وهمّ كبير، والهمّ ثلثا[٤] الهرم والهرم يُفضي إلى العدم، وأحزم الناس الأعزبُ[٥] المِلتَب[٦] الذي كان لبيته حِلسًا وإذا تكلّم تكلّم[٧] همسًا، قد اتّخذ كتابه نديمًا لجلب أنسه وكان مع ذلك خادمَ نفسه، ودفن نفسه حيًّا كالدَّسَّاسَة[٨] حتّى يسمع بخروج الجَسّاسة[٩]، فمن أراد صفو العيش فليكن وقتَنا أخفى من نُعَيش[١٠] فإنّ الضِّجعة[١١] الداريّ كالمِسك الداريّ[١٢] كلّما توارت نوافجُه ظهرت نوافحُه وعبقت في الكون روائحُه.

(١) الداح: الثوب الموشّى المنقوش.
(٢) الرَّداح: وصف للمرأة الثقيلة الأوراك.
(٣) الطَّبْع: الدنَس والعيب والصدأ. (لسان العرب، طبع).
(٤) في الأصل "ثلثي.
(٥) الأعزب: المبتعد عن الناس.
(٦) الملتب: اللازم بيتَه فِرارًا من الفِتَن.
(٧) في الأصل "تكلما" مع ألف.
(٨) الدَّسّاسة: حيَّةٌ صمَّاء تندسُّ تحت التُّراب.
(٩) الجَسّاسة: دابة في جزائر البحر تَجُسُّ الأَخبار وتأْتي بها الدجالَ.
(١٠) النُّعَيْش: السُّها وهو أَخفى بناتِ نعشٍ.
(١١) الضِّجْعة: الملازم للبيت لا يكاد يخرج منه.
(١٢) الداريّ: لعلّه الملازم لبيته وداره أيضًا.

قلت: زدني فقال: الخَلَّة تدعو إلى السَّلَّة[١] والضرورة [٢٢ب] تُلجِئ أسدَ الغاب إلى[٢] افتراس أخسّ الكلاب، والمضطرّ يركبُ الأهوال وهو عالمٌ بركوب تلك الأحوال، ويركب الصعب من لا ذَلول له[٣] ومن فاته بُرُّ الزمان رعى ثومه وبصلَه، والهِرُّ إذا وجد البُلغة[٤] قنع وكلّ حذاء يحتذي الحافي الوَقِع[٥] والدهر يُتحفُ الكلابَ بالتحف ويُرضي الأسودَ بالجِيَف، ويسوق للأُطْروش[٦] زمرًا وللعنّين بكرًا.

فقلت: لا زلتَ لقمانَ الحِكَم ولا برح وجهك عنوانَ الفضل والكَرَم، فأَخبرني كيف كان المال والفضل كالنرجس والورد لا يحويهما فصل، وكالضبّ والحوت لا يحويهما وطن وكالحياة[٧] والموت لا يجتمعان في بدن؟ فقال: أحسنُ ما قيل في حكمة عدم اجتماع الفضل والمال أنّ ذاك لعزّة الكمال لأنّه لو حواهما شخصٌ لحوى الكمالَ برمّته والله هو المنفرد بالكمال دون بريّته، وذلك أنّ صاحبَ الفضل يملك رقّ ذوي المعارف والعقول وصاحبَ المال يملك رقّ كلِّ سفيه وجهول.

---

(١) «الخَلَّة تدعو إلى السَّلَّة» مثلٌ. الخَلَّة: الفَقْر. والسَّلة: السَّرِقة أو سَلُّ السيوف. ومعناه أنّ الفقير يدعو إلى دَنَاءة المكسب. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٢٦ رقم ١٢٧٨.

(٢) في الأصل "على".

(٣) «يركب الصعب من لا ذَلول له» مثلٌ يُضرب في القناعة بنَيْل بعض الحاجات. انظر مجمع الأمثال: ٣/ ٥٢٨ رقم ٤٦٩١. والمستقصى: ٢/ ٤١٢ رقم ١٥٣٣.

(٤) البُلْغَة: ما يكفي لسدّ الحاجة ولا يفضُل عنها.

(٥) «كلّ حذاء يحتذي الحافي الوَقِع» مثلٌ يُضرب عند الحاجة تَحمِل على التعلُّق بما يقدر عليه. ويُقال وَقَعَ الرجلُ إذا حَفِيَ من مَرِّه على الحجارة. انظر مجمع الأمثال: ٣/ ١٣ رقم ٣٠١٢. والمستقصى: ٢/ ٢٢٤ رقم ٧٥٥.

(٦) الأُطروش: الأطرش.

(٧) «الحيات» في الأصل.

وقيل: الحكمة أنّ الله تعالى لو أعطى العاقلَ لظنّ أنّه لوفور عقله، ولو حرم[١] الجاهل لظنّ حرمانَه لأجل جهله، والله تعالى عزّ وجلّ منزّهةٌ أفعالُه عن العلل، وفي ذلك دليل على القضا وحثّ للعبد على التسليم والرضا، كما قال إمامُنا الشافعيّ[٢]: [من الكامل]

وَمِـنَ الـدليلِ علـى القَضـاءِ وكَوْنِـهِ بؤسُ اللبيبِ وطِيْبُ عيشِ الأحمقِ

فقلت: الأصحُّ أنّ حكمة ذلك لم تزل أخفى من ليلة القدر ومن هلال أوّل ليلة في الشهر، ولذا قال شيخ مشايخنا العارف النابلسيّ[٣] قدّس الله سرّه القدسيّ[٤]: [من الخفيف]

حِكَـــم حـــارتِ البريّـــةُ فيهـــا وحقيـــقٌ بأنّهـــا تحتـــارُ

[٢٣أ] فقال: كلام الشيخ قُدّس سرّه في عقول الجهّال لا في عقول أهل المعرفة والكمال، لا سيّما من خرجوا من عالم الخيال إلى عالم المثال، وذلك كحيرة عقل ابن الرَّاوَنْدي[٥] القائل[٦]: [من البسيط]

كـم عـالمٍ عـالمٍ ضـاقت مذاهبُـهُ وجاهـلٍ جاهـلٍ تلقـاه مرزوقـا
هـذا الـذي تـركَ الأحـلامَ حـائرةً وصـيّرَ العـالِمَ النحريـرَ زنـديقا

(١) في الأصل "ولو أحرم".
(٢) انظر ديوان الشافعي: ٨٩. ومناقب الشافعي: ٢/ ٩٢. والمحاضرات والمحاورات: ١٦٤.
(٣) العارف النَّابُلُسي هو عبد الغني النابلسي الدمشقي الحنفي (ت. ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م) شاعر سوريّ ومتصوّف وعالم بالدين والأدب. انظر الأعلام: ٤/ ٣٣٤.
(٤) البيت منسوب لإبراهيم بن سفر. انظر سلك الدرر: ١/ ٣٢.
(٥) ابن الرَّاوَنْدي هو أحمد بن يحيى بن إسحاق الرواندي (ت. ٢٩٩هـ/ ٩١١م) فيلسوف مجاهر بالإلحاد. انظر الأعلام: ١/ ٢٦٧.
(٦) انظر معاهد التنصيص: ١/ ١٤٧. وكنوز الذهب في أخبار حلب: ٢/ ٣٢٦. وبلا نسبة في النجوم الزاهر في أخبار مصر والقاهرة: ٧/ ٣١٣.

وقد رأيتُ قاضيَ القضاةِ برهانَ الدين بن جماعة شكر الله سعيه وأراه ربح تلك البضاعة كتب على قول ابن الراوندي ما صورته: العالم النحرير لا يتحيّر في هذا الأمر المشهور وإنّما الحيرة فيه للجاهل المغرور، وذلك أنّ من له أدنى بصيرة وأجلى سريرة يعلم أنّ من حكمة الله وبديع صنعه بعباده وجودَ الغنى والفقر، إذ لو كان الكلُّ فقراءَ لما تمّ للعالم نظامٌ ولو كان الكلّ أغنياءَ لاستقلّ كلُّ إنسان بنفسه لعدم احتياج غيرُه إليه من الأنام، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى ﴿لِيَتَّخِذَ بعضُهم بعضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف ٣٢] ثمّ من بعض فضله أنْ جعل لبعض الفقراء عِلمًا وعقلًا يهتدي بها إلى الصبر ليخفَّ عنه ثقلُ الفقر، وجعل أكثرَ الأغنياء جهّالًا لئلّا يطغوا باجتماع العلم والمال لأنّ ذلك رتبةُ الكمال، على أنّه قد ورد عمّن لا شكّ في صدقه أنّ علم الشخص محسوبٌ من رزقه شعر[١]: [من الوافر]

رضينا قِسْمةَ الجبَّارِ فينا ... لنا عِلْمٌ وللجُهَّال مالُ

قلت: ولا يخفى فضلُ العلم على المال عند ذوي الكمال لأنّه كالفرق بين الماء والآل[٢] والشاخص والظلال والصورة والمثال والحسّ والخيال، لأنّ المال تُصلح به دنياك والعلم تُصلح به دنياك وأخراك، [٢٣ب] والمال تتركُه في هذه الدنيا قهرا والعلم يصحبُك في الدار الأخرى، حتّى لقد ورد في الحديث المرفوع إلى صاحب الوسيلة والدرجة العليا: «إنّ الناسَ يحتاجون إلى العلماء في الآخرة كما يحتاجون إليهم في الدنيا»[٣]، والمال يُشغلك عن الله وعبادته والعلم يحثّك على

(١) نُسب لمحمّد بن مناذر في: لسان الميزان: ٥/ ٣٩٣. وطبقات الشعراء: ١٢٥. والشعر والشعراء: ٢/ ٨٥٩. وعيون الأخبار: ١/ ٣٥٣. وبلا نسبة في ربيع الأبرار: ٥/ ٩٥. ولباب الآداب: ١٨٠. والتذكرة الحمدونيّة: ٨/ ١١١. والرواية في كلّ هذه الكتب هي: «لنا علمٌ وللثقفيّ مال».

(٢) الآل: السَّراب.

(٣) انظر الفردوس بمأثور الخطاب: ١/ ٢٣٠ بلفظ «إنّ أهل الجنّة يحتاجون ألخ».

مراقبته وطاعته، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزداد بالإنفاق[١] منه والمال ينقص بالإنفاق على النفس والعيال، وقد ظهر الحقُّ وما بعد الحقّ إلّا الضلال، ولذا قال أبو حنيفة حفظ اللهُ شموسَ أتباعه من الكسوف: «لو علم الملوك لذّةَ ما نحن فيه من العلم لقاتلونا عليه بالسيوف» قال الشاعر[٢]: [من الكامل]

إنّ الأكابرَ يحكمون على الورى ... وعلى الأكابر تحكمُ العلماءُ

بل حُكي أنّ بعض الحكماء قال لبعض الملوك: أنت عبدُ عبدَيَّ فقال الملك: وكيف ذاك؟ فقال: لأنّي ملكتُ الشهوةَ والغضبَ فهما عبدَايَ وقد ملكاك وقد بلغني أنّ ابنَ دقيق العيد[٣] لمّا أنشأ قوله[٤]: [من البسيط]

أهلُ المراتب في الدنيا ورفعتِها ... أهلُ الفضائلِ مرذولون عندهمُ
فليتنا لو قَدِرنا أنْ نُعرّفَهم ... مقدارَهم عندنا أو لوْ دَروهُ هُمُ
قد أنزلونا لأنّا غيرُ جنسهمُ ... منازلَ الوحشِ في الأهمال بينهمُ
فما لهم في توقّي خيرنا نظرٌ ... ولا لهم في ترقّي قدرنا هِمَمُ
لهم مُريحان من جهلٍ وفرطِ غنىً ... وعندنا المُتْعِبان العِلمُ والعدَمُ

فعارضه محمّد بن البقّيّ[٥] بقوله[٦]: [من البسيط]

---

(١) «انقاق» في الأصل.

(٢) نُسب لذي اللسانين أبي عبد الله النطنَزي في: بغية الوعاة: ١/ ٥٢٨. والوافي بالوفيات: ١٢/ ١٩٧. ونُسب لسعيد بن يحيى الكاتب في: مجمع الآداب: ٢/ ٤٩٨.

(٣) ابن دقيق العيد: محمّد بن عليّ بن وهب بن مطيع القشيري (ت. ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) قاضٍ من أكابر العلماء بالأصول. انظر الأعلام: ٦/ ٢٨٣.

(٤) انظر الوافي بالوفيات: ٨/ ١٠٤. والدرر الكامنة: ١/ ٣٦٧. ومسالك الأبصار: ٥/ ٧٣٦.

(٥) هو أحمد بن محمّد البقّي المصري (ت. ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م). واسمه مكتوب «الثقفي» في الأصل وهذا خطأ. انظر الوافي بالوفيات: ٨/ ١٠٣ رقم ١٢٣٨.

(٦) انظر الوافي بالوفيات: ٨/ ١٠٤. والدرر الكامنة: ١/ ٣٦٧.

إنّ المراتــبَ في الــدنيا ورفعتَهــا عند الذي حازَ علمًا ليس عندهمُ
لا شـكّ أنّ عنـدنا علمًـا رأوه ومـا لمــثلهم عنــدنا قَــدْرٌ ولا لَهــمُ
همُ الوحـوشُ ونحـن الأُسـد، حكمتُنـا تقودُهُمُ حيثُ شئناهم وهمْ نَعَمُ [٢٤أ]
لنـا المريحـان مـن علـمٍ ومـن أدبٍ وفـيهمُ المُتعبـان الجهـلُ والحَشَـمُ

فالحمد لله الذي فضّلنا بالعلم على كثير من عباده المؤمنين، وحمانا من الدنيا كما يحمي الطبيبُ المريضَ حرصًا على حصول الشفاء وخوفًا عليه من دائه الدفين، وحَسْبُ العالِم إذا فاته شيءٌ من حُطام هذه الدنيا الفانية أنْ يمنّ اللهُ عليه في دينه ودنياه بوجود العافية، ولقد جَهِلها كثيرٌ من الناس فتراهم لا يعرفون قدرها إلّا إذا ابتلاهم الله بالأدواء كما قال الشاعر[١]: وبضدّها تتعرّفُ الأشياءُ

فنسأله تعالى أنْ يجعل أركان عافيتنا غيرَ عافية وأنْ يرزقنا من فيض فضله كما رزق كلّ عافية، ففي الإنجيل: «العافية مُلكٌ خفيّ»[٢] وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٣] وصحّحه ابن حِبّان[٤] عن أبي هريرة[٥] عن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما يرفعه: «إنّ الناس لم يؤتَوا شيئًا بعد كلمة الإخلاص مثل العافية فاسألوا الله العافية»[٦] وفي الحديث أيضًا: «إليك انتهت الآمالُ يا صاحب

(١) للمتنبّي ومطلعه: «وندیمهم وبهم عرفنا فضلَه». انظر الديوان: ١/ ٢٢.
(٢) انظر كتاب الشكر: ٥١.
(٣) الإمام أحمد هو أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني الوائلي (ت. ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة. انظر الأعلام: ١/ ٢٠٣.
(٤) ابن حِبّان هو محمّد بن حِبَّان بن أحمد التميمي (ت. ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) مؤرخ وعلّامة ومحدّث وجغرافي. انظر الأعلام: ٦/ ٧٨.
(٥) أبو هُرَيْرَة هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي (ت. ٥٩هـ/ ٦٧٩م) صحابي من أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. انظر الأعلام: ٣/ ٣٠٨.
(٦) انظر مسند أحمد: ١/ ١٨٩.

العافية»[١] وقال عليٌّ رضي الله تعالى عنه وقد ذكر العافية: «وأيّ عطاء، وأيّ عطاء، وأيّ عطاء». ومن نظم الإمام الشافعيّ رحمه الله تعالى[٢]: [من السريع]

لا تـأسَ في الـدنيا علـى فائـت وعنـدك الإسـلامُ والعافيـة
إنْ فـاتَ شـيءٌ كنـتَ تسـعى لـه ففيهمـا مـن فائـتٍ كافيـة

وقال غيرُه[٣]: [من السريع]

مـا أنعـم اللهُ علـى عبـده بنعمـةٍ أوفى مـن العافيـة
وكـلُّ مـن عـوفيَ في جسـمه فإنّـه في عيشـةٍ راضـية

وذكر الزمخشريّ[٤] في ربيع الأبرار أنّ الله لمّا خلق العافية قال لها: سليني فقالت: أسألك العافية[٥].

فقلتُ: زدني فرفع يديه إلى السماء [٢٤ب] وقصد قبلةَ الدعاء وقال: اللهمّ وفّقنا لصالح الأعمال وقصِّرْ ما امتدَّ منّا للدنيا من الآمال، واجْلُ مرآة عقولنا من صدأ[٦] الهوى وأغننا بالافتقار إليك عن السِوى، واكشف عن قلوبنا سدولَ الغطاء ولا تمتحنّا بالمنع ولا تستدرجنا بالعطاء، فقد صرفنا دينارَ العمر في السهو واللغو

(١) انظر الأوسط: ٨/٧. ومسند الشهاب: ٣٤٤/٢. ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ٢٨٩/١٠. وضعيف الجامع الصغير: ١٧٤. وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٤٦٨/٦. ورُوي في كلّ هذه المصادر بلفظ «إليك أنتهت الأمانيّ يا صاحب العافية».

(٢) انظر: طبقات الشافعيين: ٣٤. وتاريخ دمشق لابن عساكر: ٤١٥/٥١. ومناقب الشافعي للبيهقي: ٦٦/٢. وديوان الشافعي بتحقيق إميل بديع يعقوب: ١٥٢.

(٣) نُسبت للضحّاك بن سلمان في: بغية الوعاة: ١٢/٢. ونزهة الألباء: ٢٨٦. ومعجم الأدباء: ٤٥١/٤.

(٤) محمود بن عمر بن محمّد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م) من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. انظر الأعلام: ١٧٨/٧.

(٥) انظر ربيع الأبرار: ١٦٥/٣.

(٦) "صدي" في الأصل.

وانغمسنا في تيّار بحرِ اللعب واللهو، واستغرَقنا في المنام واشتغَلنا بلذّة الأحلام، وأطلنا الأمل وأسأنا العمل ونسينا الأجل وعرينا من الوجل والخجل، فلا عَبرة ولا عِبرة ولا نظرة[١] في العواقب ولا فكرة، نُشيّعُ الأمواتَ وكأنّا بعدهم خالدون ونَعْمُرُ دنيانا كأنّا للموت جاحدون، ونُغَرُّ بما تُظهِره من بِشْرها ونذهلُ عمّا تستره عنّا من مكرها وسحرها، وننسى ما رأيناه من شدّة بطشها وجِلادها لجميع أبنائها وأولادها، ونخوضُ في بحر شهواتها العميق ونتغافل عمّا نراه فيه من كلّ هالك غريق، حتّى أصبحت جِنانُ أعمارنا خاويةً على عروشها وهُيِّئت لكلّ نسمة مِنّا رَوَاحلُ نعوشها، ولم نَترك فيها من آثارنا إلّا ما ملأنا به صحائفَ سيّئاتنا وبطونَ حشوشها، فنسأل الله تعالى الذي علِم جميعَ قبائحنا وستر ما يرى من فضائحنا أنْ لا يقطعَ إحسانَه عنّا وفضلَه وأنْ يوفّقنا للخير ويسلك بنا سبلَه، وأنْ يعفوَ عمّا اجترحناه من المآثم والجرائم وأنْ لا يردّ أصابعنا التي رفعناها لسؤاله إلّا بحسن الخواتم.

قلت: زدني فقال: لا زيادةَ على الكفاية وكلُّ شيء [٢٥أ] ينقصُ إذا بلغ الغاية، وشرّ الأمور المائلُ إلى طرفيها وهما تفريطها وإفراطها كما أنّ خير الأمور أوساطُها، وحسبُك من الفجر ما انتشر منه في الأفق ومن القلادة ما أحاط بالعنق، ومن البحر دَرُّه ومن السحاب[٢] قطره، ومن الروض زهره، فقد أجمع أهلُ الطبّ الذين فجّروا ينبوعه أنّ كلَّ كثير عدوٌّ للطبيعة والذكيّ تكفيه اللفظة وتغنيه اللحظة، ومن لم ينفعه القليلُ لم ينفعه الكثير ولا ينبّئك مثلُ خبير.

فقلت: لله درّك من حكيم حاذر[٣] وطبيب ماهر وناظم وناثر، وصوفيّ وفقيه وأديب نبيه، وشاعر مُفْلِق ونديم مونق، فلقد نَدَرَتْ منك نوادرٌ كأنّها الخيل

(١) «نظر» في الأصل.

(٢) «السحب» في الأصل.

(٣) «خادر» في الأصل. والأسد الخادر: المقيم في عرينه. والحاذر: اليَقِظُ. وهي أليقُ بالسياق.

البوادر وقلائدُ الجواهر والأنجم الزواهر وغضيض الأزاهر وسماع المزاهر، حتّى وجدتُني عند سماعها أتلذّذ بفقَرها وأسجاعها، أين مُلحة الإعراب من مُلحة الأعراب؟ وأين الدُّرّ من الحصى؟ وأين السيف من العصا؟ وأين النجوم من التخوم؟ وأين الشيح والقيصوم من البصل والثوم؟ فسبحان من علّمك البيان وجعل خبرك دون العيان، وعدَلَ منك القلبَ واللسان وجمع فيك من الفضائل والمزايا ما تفرّقَ في نوع الإنسان.

حتّى كنتَ في الرحمة كالصدّيق خيرِ الصحاب وفي قول الحقِّ وإصابته كعمر بن الخطّاب، وفي الحياء كعثمان بن عفّان وفي القضاء كعليّ وفي السياسة كمعاوية بن أبي سفيان، وفي الفقه كمُعاذ[١] وفي الحديث كأبي هريرة وفي الحزم والدهاء كعمرو بن العاص[٢] وابن شعبة [٢٥ب] المغيرة، وفي الصدق كأبي ذرّ[٣] وفي التفسير كابن عبّاس وفي الشعر كحسّان والنابغة ولبيد والعبّاس بن مرداس[٤] وفي الفرائض كزيد[٥] وفي الأدب كالأصمعيّ[٦]

(١) مُعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي (ت. ١٨هـ/ ٦٣٩م) صحابي جليل وأعلم الأمّة بالحلال والحرام كان أحد الستّة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي. انظر الأعلام: ٧/ ٢٥٨.

(٢) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القريشي (ت. ٤٣هـ/ ٦٦٤م) فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم، ومن أولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم. انظر الأعلام: ٥/ ٧٩.

(٣) أبو ذرّ هو جُندب بن جُنادة بن سفيان بن عبيد من بني غِفار (ت. ٢٣هـ/ ٦٥٢م) من كبار الصحابة يُضرب به المثل بالصدق. انظر الأعلام: ٢/ ١٤٠.

(٤) العبّاس بن مِرداس بن أبي عامر السلمي (ت. نحو ١٨هـ/ ٦٣٩م) شاعر فارس من سادات قومه أمّه الخنساء الشاعرة. انظر الأعلام: ٣/ ٢٦٧.

(٥) زيد بن ثابت (ت. ٤٥هـ/ ٦٦٥م) أعلم الصحابة بعلم الفرائض. انظر الأعلام: ٥/ ٥٧.

(٦) عبد الملك بن قُرَيْب بن عليّ بن أصمع الباهليّ الأصمعي (ت. ٢١٦هـ/ ٨٣١م) راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. انظر الأعلام: ٤/ ١٦٢.

وأبي عُبَيد[١] وفي الزهد كسيّد التابعين وأهل قرن أُوَيس[٢] وفي الحلم كسيّد بني تميم الأحنف بن قيس[٣] وفي الحفظ كالشافعيّ وأبي العلاء[٤] وابن سينا[٥] وفي الجواب الحاضر كأبي العينا[٦] وفي المنادمة كإسحاق[٧] وأبي نُواس وفي النخوة والهمّة كالمعتصم[٨] ثامن خلفاء بني العبّاس وفي الحماسة كابن سَنَاء المُلْك[٩] وأبي فراس[١٠] وفي السياحة كالمسيح والخضر وإلياس وفي الذكاء كالرّكاض[١١]

(١) أبو عُبَيد هو القاسم بن سلَّام الهروي الأزدي الخزاعي (ت. ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه. انظر الأعلام: ٥/ ١٧٦.

(٢) أُوَيس القَرْنِيّ هو أُوَيس بن عامر بن جَزء بن مالك القرني المعروف بسيّد التابعين أو خير التابعين (ت. ٣٧هـ/ ٦٥٧م) أحد النساك العباد المقدّمين. انظر الأعلام: ٢/ ٣٢.

(٣) الأحنف بن قَيس بن معاوية بن حُصين المرّي السعدي المِنْقَري التميمي (ت. ٧٢هـ/ ٦٩١م) أحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين ويُضرب به المثل في الحلم. انظر الأعلام: ١/ ٢٧٦.

(٤) أبو علاء المعريّ هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخيّ المعريّ (ت. ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) شاعر فيلسوف. انظر الأعلام: ١/ ١٥٧.

(٥) ابن سينا هو الحسين بن عبد الله بن سينا (ت. ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) الفيلسوف الرئيس وصاحب التصانيف في الطبّ والمنطق والطبيعيات والإلهيات. انظر الأعلام: ٢/ ٢٤١.

(٦) أبو العيناء هو محمّد بن القاسم بن خَلّاد بن ياسر الهاشمي (ت. ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م) أديب فصيح ومن أسرع الناس جوابًا. انظر الأعلام: ٦/ ٣٣٤.

(٧) إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمي الموصلي (ت. ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م) من أشهر ندماء الخلفاء. انظر الأعلام: ١/ ٢٩٢.

(٨) المُعْتَصِم هو محمّد بن هارون بن المهدي (ت. ٢٢٧هـ/ ٨٤١م) خليفة من الخلفاء العبّاسيين. ومكتوب «المتعصم» في الأصل. انظر الأعلام: ٧/ ١٢٧.

(٩) ابن سَنَاء المُلْك هو هبة الله بن جعفر بن سناء الملك السعدي (٦٠٨هـ/ ١٢١٢م) شاعر من النبلاء. انظر الأعلام: ٨/ ٧١.

(١٠) أبو فِراس هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي (ت. ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) أمير وفارس وشاعر. انظر الأعلام: ٢/ ١٥٥.

(١١) لعلّه جُدَيرة بن أباق بن بديل الراجز اسمه الركاض ويكنى أَبَا الذائد. انظر نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر العسقلاني: ١/ ١٦٥ رقم ٥٧٠.

وإياس[١] وفي تعبير الرؤيا كابن سيرين[٢] وفي التصنيف والتأليف كابن شاهين[٣] وفي الخطب كقُسّ بن ساعدة وسحبان[٤] وفي المناظرة كأبي حنيفة النعمان وفي حسن الاختراع كالخليل بن أحمد[٥] والحريريّ[٦] وبديع هَمَذان[٧] وفي التاريخ كخطيب بغداد[٨] وفي الكتابة كالصادَين وهما الصابيّ[٩] والصاحب بن عبّاد[١٠] وفي الاقتدار على العبارة كواصل[١١] وفي حسن الإنشاء

(١) هو إِياس بن معاوية بن قُرّة المزني (ت. ١٢٢هـ/ ٧٤٠م) قاضي البصرة وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة ومضرب المثل في الذكاء. انظر الأعلام: ٢/ ٣٣.

(٢) ابن سيرين هو محمّد بن سيرين البصري (ت. ١١٠هـ/ ٧٢٩م) إمام وقته في علوم الدين في البصرة ومن أشراف الكتّاب واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. انظر الأعلام: ٦/ ١٥٤.

(٣) ابن شاهين هو عمر بن أحمد بن عثمان (ت. ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) واعظ علامة وكان من حفاظ الحديث. انظر الأعلام: ٥/ ٤٠.

(٤) سحبان بن زفر بن إياس الوائلي (ت. ٥٤هـ/ ٦٧٤م) خطيب يُضرب به المثل في البيان. انظر الأعلام: ٣/ ٧٩.

(٥) الخليل بن أحمد الفراهيدي، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض (ت. ٧٨٦/ ٧١٨م). انظر الأعلام: ٢/ ٣١٤.

(٦) الحريريّ هو القاسم بن عليّ بن محمّد بن عثمان (ت. ٥١٦هـ/ ١١٢٢م) الأديب الكبير وصاحب مقامات الحريريّ. انظر الأعلام: ٥/ ١٧٧.

(٧) أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني (ت. ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م) أحد أئمة الكتاب وصاحب المقامات. انظر الأعلام: ١/ ١١٥.

(٨) خطيب بغداد هو أحمد بن عليّ بن ثابت (ت. ٤٦٣هـ/ ١٠٧٢م) أحد الحفاظ المؤرّخين المقدّمين. انظر الأعلام: ١/ ١٧٢.

(٩) الصابيّ هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني الصابئ (ت. ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) نابعة كتّاب جيله. انظر الأعلام: ١/ ٧٨.

(١٠) الصاحب بن عبّاد هو إسماعيل بن عبّاد بن العبّاس الطالقاني (ت. ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدهر علمًا وفضلًا وتدبيرًا وجودة الرأي ولُقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه. انظر الأعلام: ١/ ٣١٦.

(١١) هو واصل بن عطاء الغزّال (ت. ١٣١هـ/ ٧٤٨م) رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلّمين. انظر الأعلام: ٨/ ١٠٨.

كالقاضي الفاضل[١] وفي شرف النفس كالملوك وفي التواضع كالفقير الصعلوك، من رآك تحقّق قولَ الشاعر الماجد[٢]: [من السريع]

لـــــيس علـــــى الله بمســـــتنكرِ أنْ يجمـــــع العـــــالمَ في واحـــــدِ

فبالذي خصّك بالمواهب اللدنّيّة والحِكَم العطائيّة، ومنّ عليك بالمنن الكبرى وتتابع الفتوحات وأقام على فضلك دلائلَ الخيرات، والآيات البيّنات وأوجدك لأحبّاء العلوم [٢٦أ] وجعلك البحر المحيط بالفضل وأخرج لنا منك الدرّ المنثور والمنظوم وأتحفَ مَن رأى شمائلَك بالشفاء وغرسَك في أرض الكمال روضًا أُنُفًا وجعلك شمسَ المعارف الكبرى، وأطلعك في مشارق الحكم ومطالِعها بالسعد بدرًا فكنتَ كشّافَ المشكلات وموضحَ المعضلات وبهجةَ العلماء وروضة الحكماء إلّا ما أجبتني إلى ما أريد وصيّرتني لك من جملة العبيد.

فقال: لقد أقسمتَ عليّ بمولًى كريم وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيم فما الذي تريد يا أخا لبيد؟ فقلت: أريد أن تكون نزيلي وإنْ لم أكن لذلك أهلًا فإنْ أجبتني كان ذلك منك منّةً وفضلًا فقال: سبحان الله وهل لي منزلٌ غير دارك وهل أختار غيرَ جوارك؟ فيا حبّذا إنْ نلتُ تلك المرتبة وحظيتَ بهذه المزيّة والمنقبة، وتالله لو لم تعرض عليّ هذا التجمّلَ لنزلتُ بك وإنْ نُسِبْتُ إلى التطفّل، فلا عطر بعد عروس وقليل في لحظة من مجالستك بذل النفيس والنفوس، ومن الذي يتاح له ورد البحر فيعدل إلى الغدير؟ أو يحصلُ له ظلُّ الروح فيفرّ منه إلى الهجير؟ أو جنّة رضوان فيؤثر عليها السعير؟ فقلت: والله ما هذا إلّا من رقّة طبعك ولطف

(١) القاضي الفاضل هو عبد الرحيم بن عليّ بن سعيد اللخمي (ت. ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) وزير للسلطان صلاح الدين ومن أئمة الكتّاب. انظر الأعلام: ٣/ ٣٤٦.

(٢) البيت لأبي نواس. انظر ديوانه: ١/ ٢٠٥.

أخلاقك وطيب نفسك وعناصرك وأعراقك، وإلّا فليس منزلي من منزل الكواكب والأقمار، ولست أنا صالحًا أن أكون عبدًا لخدمتك وإنْ كنتُ من الأحرار، فقال: لقد عظّمتَ حقيرًا وخِلتَ لَمْعَ السراب غديرًا، واستسمنتَ ذا ورم ونفختَ في غير ضَرَم[١] فهلمّ بنا إلى منزلك الآهِل وعجّلْ ببرّك فإنّ خير البرّ العاجل، فقد آنَ للغرب أنْ يشربَ كأس الشمس وللشرق [٢٦ب] أنْ ينثر دراهم نجومه الثواقب وللأفق أنْ يخضب شيبَه بحمرة الشفق وسواد الغياهب، فعند ذلك نهضتُ للمسير نهضةَ الأسودِ الضارية وكأنّما ملكت بإجابته قرطَي مارية.

فلمّا وصلنا إلى الدار دخل معنا شخصٌ تَلوحُ عليه الثقالةُ والفجاجة وتَرشَح من إهابه البرودة والسماجة، قد ظنّه الشيخ من أتباعي كما ظننتُه من أتباعه فأحببت أنْ أكشف للشيخ مسدولَ قناعه وقلتُ: صغارٌ في ذلك الوغد ولا علّة في فؤادي لا سيّما وقد خفت أنْ يتيقّن الشيخُ أنّه من أهل عشيرتي ووِدادي، فأَسْقُط بذلك من عين كماله لأنّ أهل المعرفة يستدلّون على المرء بقرينه ويعدّونه من أشكاله، وفي الحديث: «اعتبروا الأرضَ بأسمائها واعتبروا الصاحب بالصاحب»[٢] وفي كلام الحكم: ما الدخانُ على النار بأدلّ من الصاحب على الصاحب.

فقلتُ له: أنت من أتباع هذا السيّد العظيم والمولى الكريم؟ فقال الشيخ: لا والذي أدخله بلا دعوة ولا استئذان، ما وقعت عيني على شخصه إلّا في هذا المكان. فقال الرجلُ: والله ما هذه إلّا ضيقة عين أما علمتم أنّ زاد الواحد يكفي الاثنين؟ فقلت له: يا طفيل الأعراس ويا أبخر الأنفاس ويا مُظلِم الحواسّ، ليس

(١) «استسمنت ذا ورم» مثلٌ يُضرب عند خطأ الرأي في استجادة القبيح واستحسان الخبيث واستصواب الخطأ وقد أضاف إليه الحريري «ونفخت في غير ضرم» في المقامة الحُلوانيّة. انظر زهر الأكمة:٣/ ١٧٨.

(٢) انظر موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة: ٢/ ٧٢. وضعيف الجامع الصغير: ١٣٢.

زَجْرُنا لك من أجل الطعام الذي هو همّةُ مثلك من الطغام، ولكنّ جنابَ الشيخ لطيفٌ يحتاج إنْ جالستَه لحظةً إلى كثير العلاج فخذ ما شئت من هذا الطعام وانصرف عنّا بسلام.

فقال: هات ما تقول ولا كرامة ولا شرف ولا أجر ولا شكر ولا خَلَف[١] فطالِبُ الخير من أمثالكم والمدد كمبتغي الصيد في عِرّيسة الأسد[٢] [٢٧أ] فتبًّا لداركم التي ضعُف فارُها ولم تعرف إستَ القدور نارُها، وأنتم فيها كالوحوش في القفر أو الأموات في القبر فقلت للشيخ: غضًّا عن عتابه وصفحًا عن جوابه لأنّه كالذي قال فيه الشاعر[٣]: [من الرجز]

أصبحتَ كالخنزير عندَ الطاردِ ليس لمن يقتله من حامدِ

فلمّا سمع قولي قام وأخذ ما أراد من الطعام وهمهم ودمدم وذهب إلى حيث أَلَقَتْ رَحْلَها أمُّ قشعم[٤] فلاحظتُ الشيخَ بعد ذهابه وراعيت وقلت له: يا سيّدي كيف رأيت؟ فقال: حُمّى الروح وجُذام الجسد وشماتة[٥] العدوّ وداء الحسد، أثقل من الزواقى[٦] والزاووق[٧] والصرفان[٨] ومن عسيب وشمام ورضوى

(١) الخَلَف: العوض.
(٢) «كمبتغي الصيد في عرّيسة الأسد» مثل يُضرب لمن طَلَبَ مُحالًا. انظر مجمع الأمثال: ٤٨/٣ رقم ٣١١٥. وجمهرة الأمثال: ١٦٨/١.
(٣) نُسب لابن الرومي في: المنتحل: ١٤٢. والتمثيل والمحاضرة: ٣٥٩. وثمار القلوب: ٤٠٥.
(٤) أُمّ قشعم: المنيّة والداهية.
(٥) «شماشة» في الأصل.
(٦) «أثقل من الزواقى» مثلٌ. الزواقي الديكة. وقيل في معناه: إنّ العرب كانت تسمُر بالليل فإذا زقت الديكة استثقلتها لأنها تُؤذن بالصبح. انظر مجمع الأمثال: ٢٧٦/١ رقم ٨٠١.
(٧) «أثقل من الزاووق» مثلٌ. الزَّاوُوقُ اسم للزِّئبق في لغة أهل المدينة. انظر مجمع الأمثال: ٢٧٧/١ رقم ٨٠٢.
(٨) هو قريب من المثل «أثقل من الرصاص» لأنّ الصَّرَفَان هو الرَّصَاص. انظر مجمع الأمثال: ٢٧٨/١ رقم ٨٠٥.

وثَهَلان[١] ومن الرقيب على المحبّ المهجور[٢] ومن أربعاء في صَفَر لا تدور[٣]، تظنّه سَهْلًا وهو حَزْن وسُهَيلًا[٤] وهو حَضَارِ والوَزَن[٥]، يُستحسن عند رويته العمى وعند حديثه الصمّمُ، وهو أعظمُ من هجوم البلاء وزوال النعم، وقد حضرني فيه أبياتٌ جاش بها الجَنانُ فقذفها على اللسان ثمّ شرع يقول: [من مجزوء الوافر]

وليـــــلٍ زارنـــــا فيـــــه ... ثقيـــــلُ الـــــروحِ والظـــــلِّ
أتـــــى في صـــــورةِ الأفعـــــى ... ومشْـــــي الـــــذَرّ[٦] والنمـــــلِ
ثقيـــــلٌ وجهُـــــه أقـ ... ـبـــحُ مـــن قـــولٍ بـــلا فعـــلِ
ومِـــــن مَـــــنٍّ علـــــى حُـــــرّ ... ومِـــــن تِيْـــــهٍ علـــــى فضـــــلِ
ومـــــن قـــــردٍ ومـــــن غـــــولٍ ... ومـن ضـبّ ومـن حِسْـلِ[٧] [٢٧ب]
ومـــــن عُسْـــــرٍ بـــــلا يُسْـــــر ... ومـــــن هجـــــرٍ بـــــلا وصـــــلِ
ومـــــن مـــــالٍ بـــــلا جُـــــودٍ ... ولا نفْـــــعٍ ولا بـــــذلِ
ومـــــن ليـــــلٍ بـــــلا فجـــــرٍ ... علـــــى ذي العِشْـــــق والتَبْـــــلِ[٨]

(١) عسيب وشمام ورضوى وثَهَلان: جبال في شبه الجزيرة العربية. ويُضرب بها المثل في الثقل أيضًا. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٢٧٥ رقم ٧٩٤ ورقم ٧٩٥.

(٢) قريب من المثل «أثقل من رقيب بين محبّين» ومعناه واضح. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٢٨٠ رقم ٨١٧.

(٣) قريب من المثل «أثقل من أربعاء لا تدور». وقال فيه الميداني: وذلك إذا كان في آخر الشهر فهو لا يعود. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٢٨٠ رقم ٨١٨.

(٤) سُهَيْلٌ: نجمٌ، قيل: عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ أو هو من النجوم اليمانية.

(٥) حضار والوزن: كوكبان يطلعان قبل سهيل فإذا طلع أحدُهما ظنّ الناسُ أنّه سهيلٌ للشبه. (لسان العرب، حضر).

(٦) الذَّرُّ: صِغارُ النَّمل، واحدته ذَرَّةٌ.

(٧) الحِسْل: ولد الضبّ.

(٨) التَّبْل: الذهاب بعقل العاشق.

وممّـــن يُكْـــرِهُ المَرضـــى على المشـــروب والأكـــلِ
ومـــن مُثْـــرٍ ملـــيٍّ ينـــ تحـــي ذا الحـــقّ[١] بالمطـــلِ
وممّـــن ســـاد في دهـــري بـــلا أصـــلٍ ولا فصـــلِ
وممّـــن نـــمّ بالإفســـا د بـــين الخِـــلِّ والخِـــلِّ
ومـــن خِـــلٍّ غـــدا يصـــبوا لمـــزج الشـــهدِ بالخَـــلِّ
ومـــن فَـــدْمٍ[٢] يَعُـــدُّ الحُمْـــ ـــقَ فيـــه غايـــةَ العقـــلِ
ومـــن لفـــظٍ بـــلا معنًـــى ومـــن خـــطّ بـــلا شـــكلِ
ومـــن شـــبّابة الراعـــي ومـــن صَـــنْجٍ ومـــن طبـــلِ
وممّـــن يطلبـــون المـــد ح مجّانًـــا بـــلا نَفَـــلِ[٣]
وممّـــن يـــدّعي العِرفـــا نَ وهْـــو الطَّـــودُ في الجهـــلِ
هـــو الكلـــبُ ولكـــن لـــم يـــزلْ في هيئـــةِ الشِـــبْلِ[٤]
ففـــي الغيبـــة مقـــراضٌ وفي العينـــين كالكحـــلِ
فيـــا ربّـــاه لا تجمـــعْ بـــه مـــن بعـــدها شَـــمْلي
وعـــاملْني بمحـــضِ الفضـــ ـــل إنْ عاملـــتَ بالعـــدلِ

فقلتُ: لقد نبّه عزمُك عزمي واستدعى قريضُك نظمي، فلولا خشيتي من مَلال طبعك لعرضت ما حضر منه على سمعك، فقال: هِيه فوالله لكلامك عندي ألذُّ من رشف الشفاه وأطيبُ من أفواه الغواني التي تشتمّ منها روائح الأفواه. فأنشأت أقول: [٢٨أ] [من الخفيف]

(١) مكتوب "ذا لحق" في الأصل.
(٢) شخص فَدْم: ثقيل الفهم غَبيّ.
(٣) النَّفَل: غنيمة يستولي عليها الجيشُ المنتصر.
(٤) الشِّبْلُ: ولدُ الأسد.

جَمَــع اللهُ[١] كــلَّ خَلــقٍ قبــيح ... فيــه قُــدْمًا وكــلَّ خلــقٍ نكيــرِ
شــاربٌ مثــلُ شــاربِ القــطِّ لاحــتْ ... تحتــه لحيــةٌ كــذيل البعيــرِ
وفســادُ الرِّبــا وســمّ الأفــاعي ... وابــتلاعٌ كهمّــة الخنزيــرِ[٢]
لســتُ أُحصــي معائــبَ فيــه لــو أنْــ ... ـنَ مــدادي أمــواجُ كــلِّ البحــورِ

ثمّ أنشأت أيضًا أقول: [من الرجز]

لقــد بُلينــا بعــديم البركــة ... مُســتَثقَلٍ ســكونُه والحركــة
أثقــلُ مــن دَيــنٍ علــى مــديونِ ... مقــترنٍ بوجــع العيــونِ
أو أربعــاء لا تــدور في صَــفَر ... أو فجــاءةُ الكــابوسِ في نــوم السَــحَر
أو وقفــة[٣] الأحبــابِ للــوداعِ ... أو شــربُ كــأسِ المــوتِ في النــزاعِ
أو حُكــم جاهــلٍ علــى ذي الفضــلِ ... أو تِيــه أحمــقٍ علــى ذي عقــلِ
أجمــعُ للعيــوب واللآمــة ... مــن بغلــةِ النــدبِ أبــي دُلامَــة[٤]
فاعجــبْ لأرضٍ أبــتِ الأمانــة ... كيــف تراهــا حملــتْ جســمانه[٥]
كــأنّ وجهَــه كثيــرَ الكَلَــفِ ... وجــهٌ بــدا في طــول سيف مرهــف[٦]
وجســمُه أهــزلُ مــن خيــالِ ... وروحُــه أثقــل مــن جبــالِ
تَمُجُّــه الأســماعُ والأبصــارُ ... قــد مــلّ منــه الليــلُ والنهــارُ
أراحنــا اللهُ تعــالى منــهُ ... فســيّئُ الأخبــارِ يُــروى عنــهُ

(١) في الأصل جَمَع اللهُ فيه كلَّ خَلقٍ قبيح". وزيادة "فيه" تكسر وزن البيت.
(٢) «الخنزير» في الأصل.
(٣) «وقفت» في الأصل.
(٤) أبو دُلامة هو زند بن الجون الأسدي (ت. ١٦١هـ/٧٧٨م) شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة. انظر الأعلام: ٣/ ٤٩.
(٥) جسمان الرجل وجثمانه واحد. (لسان العرب، جثم).
(٦) «مهرف» في الأصل.

فقال: لا جمدَتْ قريحتُك ولا خمدت سجيحتُك، فقد أغريتَ وأطربت وأطنبت وأعجزت وأوجزت واستدركت على ما فات وأحييت عظامي الرفات، وفرّقت ما جمعه عليّ الدهرُ من الآفات.

فقلتُ له: كم من حليلةٍ وطَلَّةٍ[١] ورَبَضٍ[٢] رِبَحْلةٍ[٣]؟ فقال: واحدة وهي كثيرة وعظيمة وإنْ كانت حقيرةً لأنّ خير النساء شرٌّ ونفعهنّ ضرّ، فهنّ حبائل الشيطان وفتنة كلّ إنسان والشرّ قليله أهون من كثيره، وقَطْرُهُ أقلّ ضررًا من سحّ سَيْبه وغزيره، ولعمري لا تفي لذّةُ الحرائر بغصّة داء الضرائر، والحازم في وقتنا من ترك القليلَ منهنّ والكثير، وآثر الوحدةَ على جليس السوء فإنّه بئس القرين والعشير، وهل الزواج إلّا لذّة شهر ووزن مَهْر وغمّ دهر وقصم ظهر، ويرحم الله القائل: [٢٩أ] [من الكامل]

خَلِّ الزواجَ فما الزواجُ بِهَيِّنٍ ... وإذا دعتْك إليه نفسُك فاعْصِها
واذكرْ لها خطرَ الزواجِ لتنتهي ... فإنْ انتهتْ عنهُ وإلّا فاخْصِها

ورُوي عن الإمام الشافعيّ أنّه قال: «لي أربعون عامًا أسأل المتزوّجين فما رأيتُ أحدًا منهم مدح الزواج»، هذا وينبغي لمن بلغ مثلَ سِنِّنا وأصبح ركنُ قواه واهيًا كركننا، أنْ يترك تزوّجَ الغواني ويبعد عنها لأنّ المرأة تحبّ منك ما تحبّ منها، كما قال الشاعر[٤]: [من الكامل]

أَحلَى الرجالِ من النساء مواقعًا ... مَن كان أَشْبَهَهم بهنّ خُدودا

(١) الطَّلَّةُ: المرأة.
(٢) الرَبَض أو الرَبْض: الزوجة أو كلّ ما تأوي إليه.
(٣) الرِبَحْلة: المرأة الضخمة اللَحيمة الجيِّدة اللخَلْق. (لسان العرب، ربحل)
(٤) لأبي تمّام. انظر: محاضرات الأدباء: ٢/ ٢٢٢. والموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري: ١/ ٦١. وأمالي المرتضى: ٦١١.

وقال الفاضل الباعوني[١] رحمه الله: [من البسيط]

أَبَعْـدَ خمسـين يرجـو وصـلَ غانيـةٍ أخـو حِجـىً حظّـه مـنهنّ منـذورُ
زَهِدْنَ مـن قبـلِ ذا في مِسك عارضِـهِ فكيـف يـرغبنَ فيـه وهـو كـافورُ

فإذا رأيتَ أنثى تميلُ إلى ذي لحية سوداء حالكة أو بيضاء نقيّة فاعلم أنّ ميلها لماله أو لعلّة أخرى خفيّة، قال الشاعر[٢]: [من المتقارب]

وخَـودٍ دعتْنـي إلـى وصـلِها وعصـرُ الشـبيبةِ منّـي ذهـبْ
فقلـتُ: مشـيبي[٣] مـا ينطلـي فقالـتْ: بلـى ينطلـي بالـذهبْ

وكتب بعضُ من ظهر شيبُه إلى بعض النساء قولَه[٤]: [من البسيط] [٢٩ب]

هَـل تَعلمـين وراء الحـبِّ منزلـةً تُـدني إليـك فـإنّ الحـبَّ أضـناني

فقالت: نعم تأتي من باب الذهب فمَن أتى منه وجد ما أحبّ ممّن أحبّ، وإنْ وجدتَ فيهنّ صالحةً تخلو من ذلك المرض وتميل إلى الملتحي من غير علّة ولا غرض فهي أغربُ من الغراب الأعصم[٥].

---

(١) الفاضل الباعوني قد يكون ايّ أحد من ثلاثة: محمّد بن أحمد بن ناصر الباعوني (ت. ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م)، انظر الأعلام: ٥/ ٣٣٤. أو محمد بن يوسف بن أحمد، بهاء الدين الباعوني (ت. ٩١٦هـ/ ١٥١٠م)، انظر الأعلام: ٧/ ١٥٥. أو يوسف بن حمد بن ناصر بن خليفة الباعوني المقدسي الشافعي (ت. ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)، انظر الأعلام: ٨/ ٢١٥.

(٢) بلا نسبة في: معاهد التنصيص: ١/ ١٧٥. ونُسبت لابن النقيب في: شذرات الذهب: ٧/ ٧٠١.

(٣) «مشبيبي» في الأصل.

(٤) لبشّار بن برد. انظر: الدر الفريد: ١١/ ٣٨. والوافي بالوفيّات: ١٠/ ٨٥. والعقد الفريد: ٢/ ١٦٨. ورواية البيت في هذه الكتب «أقصاني" بدل "أضناني».

(٥) حيوانٌ أعصمُ: في ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر. و«أغرب من الغراب» مثل في الغرابة. انظر مجمع الأمثال: ٢/ ٤٣١ رقم ٢٧١٦. والمستقصى: ١/ ٢٦٠ رقم ١٠٩٤.

وقد ورد أنّ المرأة الصالحةَ في النساءِ كذلك الغرابِ[١] في حديث المصطفى صلّى الله عليه وسلّم. ومن الدليل على قلّة صوالحهنّ وكثرة طوالحهنّ أنّك إذا أَغْضَبْتَ مرّةً مَن تزعمُ أنّها تميلُ إليك كلَّ الميل وتُخيِّلُ لك أنّها تحبّك فوق طفاف الكيل، وأنّك أحبُّ إليها من نفسها وأهلها ومالها، وأنّك غايةُ قصدها ومطمح آمالها، اجتثّتْ منها أصولَ تلك المحبّة حتّى لم يبقَ لك عندها منها مثقالُ حبّة، وزوّرتْ عليك ذنوبًا أنت بريءٌ منها ونَسَبَتْ إليك عيوبًا أنت منزّه عنها، ونمّتْ بجميع أسرارك وجحدت جميعَ ما رأته من النعم في دارك، ولذا ورد عن البشير النذير أنّهنّ «يَكْفُرْنَ العشير»[٢] فاللذّة بهنّ يسيرة والغصّة بهنّ كثيرة، والحزم للعاقل أنْ يقتصر منهنّ على أقلّ قليل، كما يقتصرُ من الطعام على ما يسدّ الرَمَق ومن الشراب على ما يُبرِد الغليل، لأنّ كثرة الأمراض والأوصاب إنّما تتولّد من كثرة الطعام والشراب.

والمرأة حيّةٌ تسعى ما دامت حيّةً تسعى، والعاقل من أخذ فيها من التِّرْياق وحاذر ما فيها من السّمّ الزُّعاق، ولم يطمئنّ لمتصنّعةٍ منهنّ، واعتبرَ بقوله صلّى الله عليه وسلّم [٣٠أ]: «لا خيرَ في النساء ولا صبرَ عنهنّ» وما حذّر الحكماءُ من النساء وأنذروهم بمثل قوله تعالى: ﴿إنَّ مِن أزواجِكم وأولادِكم عدوًّا لكم فاحذروهم﴾ [التغابن ١٤] وأعظمُ من مرض المرء وفقره وفاقته أنْ يكون له عدوٌّ وهو مضطرّ إلى صداقته، كما قال أبو الطيّب[٣]: [من الطويل]

ومن نَكَدِ الدنيا على الحُرّ أنْ يرى عــدوًّا لــه مــا مــن صــداقته بُــدُّ

(١) «ورد ذلك...» يمكن تكرار الفعل هنا ليسهل فهمُ العبارة.

(٢) انظر صحيح البخاري: ١٧، ٢٥٦-٢٥٧، ١٣٥٢. والسنن الصغرى للنسائي: ٣/ ٢٦٣. والموطأ: ١/ ٢٦١.

(٣) انظر ديوان المتنبّي: ١/ ٣٧٤.

والحاجة تُلجئ السيّدَ إلى الأنذال وربّما أحوج المرضُ إلى شرب الأبوال، ولذا رُوي عن الجُنيد[١] أنّه قال وهو أَجَلُّ إمام: «إنّي أحتاج إلى المرأة كما أحتاج إلى الطعام» ورُوي عن ابن عمر الذي انعقد على فضله وزهده الإجماعُ أنّه كان إذا صام أفطر على الجماع، ورَوَى الإمام اليافعيُّ[٢] في كتاب نشر المحاسن عن الإمام الجليل أبي الفدا إسماعيل الحضرميّ[٣] الذي انتشر فضله في جميع الأماكن أنّه قال: «كلّ شيء قدرتُ على الزهد فيه مع كون نفسي له غير كارهة إلّا المرأة الحسنى والدابة النفيسة الفارهة».

ثمّ قال الشيخُ: فأخبرني أنت يا لطيفَ المزاج عن حالك مع الأزواج فقلت: أمّا أنا فقد اغتررتُ وغَرَّيت ونكحت وتسرّيت، وراعيت عددَ ما في الطباع فجمعتُ مَثنَى وثُلاث ورُباع فلم أرَ إلّا أمراضًا متخالفة وأهوالًا مترادفة، ونكدًا وخصامًا وضربًا ولطامًا، ونارًا لم أجد لها بردًا ولا سلامًا.[٤] إنْ رَضَّيتُ إحداهنّ أَسخَطتُ الأُخَر، وإنْ هجرتُهنّ كلّهنّ زاد الضرر وانتشر، ورمتني نيرانُ أخلاقهنّ بالشرّ والشرر [٣٠ب] واتّفقن على الإسراف في المعيشة والتبذير وكلّفنَني إلى[٥] ما لا أَصِلُ إلى بعضه بغاية الجدّ والتشمير، وأصبحتْ كلُّ واحدةٍ منهنّ في نفسي ومالي كسَقَر لا تُبقي ولا تَذَرْ حتّى أذهبن نسيسي[٦] وأنحلْنَ بدني وكيسي،

(١) الجُنَيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز (ت. ٢٩٧هـ/ ٩١٠م) صوفي من العلماء بالدين. انظر الأعلام: ٢/ ١٤١.

(٢) الإمام اليافعيّ هو عبد الله بن أسعد بن عليّ اليافعيّ (ت. ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م) مؤرّخ وباحث ومتصوّف من شافعيّة اليمن. انظر الأعلام (٤/ ٧٢).

(٣) أبو فدا هو إسماعيل بن عليّ بن محمود بن محمّد (ت. ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) مؤرّخ جغرافي. انظر الأعلام: ١/ ٣١٩.

(٤) «ان» في الأصل.

(٥) «كلفني» في الأصل وكذلك «إلى» مكرّرة مرتين.

(٦) النسيس: بقيّة الروح.

وأَسَلْنَ مني غيث المدمع ولا بِدْعَ إذا انهمل الغيثُ عند اختلاف الرياح الأربع، وها أنا منهنّ في أضيق سجن وأعظم وثاق، ولولا العجز عمّا يجبُ لهنّ من النفقة ومؤخَّر الصداق لفررتُ منهنّ ببتات الطلاق.

فقال: والله لقد زاد عليك أسفي لوفور حبّي لك وشغفي، ولَحَقَتْني عليك شفقةُ الصديق على الصديق وحمّلتني من همّك فوق ما بي ما لا أطيق، فأسألُ من أمِلَهُ عبدُه ورجا أنْ يجعل لك من أمرك هذا فرجًا، فقلت: لئن أقدَرَني على الخَلاص من تلك الحبائل ومَنَّ علينا بالنجاة من تلك الغوائل[١]، وأخرجني من لجج تلك البحور لأعيشنّ بقيّة عمري عيشَ المسيح ويحيى الحَصور.

فقال: أخبرني أيّها الألمعيُّ الذي يرى بظنّه ما لا يراه غيره بالبصر ما الذي ألجأك إلى التردِّي في تلك الحفر؟ ولا تعتذر بالقضاء والقدر، فقلتُ: والله إنّي كنتُ أتّقي ذلك الأمرَ كما يُتَّقَى العارُ والنار وأفرُّ منه فرارَ الجَبان الرعديد من البطل الكرَّار، ولم أزل أرى ذلك من الأمور الشاقّة الصعبة حتّى ما وقفتُ على كثرة ما نكح عليُّ بن أبي طالب وابنُه الحسن والمُغيرة بن شُعبة وعلى ما حكاه العزيزي[٢] عن ابن عبّاس أنّه[٣] قال: «خير هذه [٣١أ] الأمّة أكثرها نساءً» وعن سفيان بن عُيَينة[٤] أنّه قال: «كثرة النساء ليست من الدنيا» فأحببت أنْ أجعل لي بهؤلاء اقتداء فقال: أولئك قوم خرجوا من الوهم واللَبْس، وتنزّهوا عن كُدورة الطبع وخباثة الناس فأكثروا التزوّج لكثرة الأمّة وليباهي بها جميعَ الأمم نبيُّ

(١) الغوائل: الدواهي.

(٢) العزيزي هو عليّ بن أحمد بن محمّد العزيزيّ البولاقيّ الشافعي (ت. ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م) فقيه مصري. انظر الأعلام: ٤/ ٢٥٨.

(٣) في الأصل "أن".

(٤) سفيان بن عُيَينة بن ميمون الهلالي الكوفي (ت. ١٩٨هـ/ ٨١٤م) محدِّث الحرم المكي وكان حافظًا ثقة وواسع العلم. انظر الأعلام: ٣/ ١٠٥.

الرحمة، ومحافظةً على بقاء هذا النوع الإنسانيّ الذي كرّمه الله وعظّمه ونوّه بذكره وفخّمه وجمع فيه ما تفرّق في العالم كلّه وأشار إليه بليس كمثله، وخلقه على صورته المعنويّة المنزّهة عن مماثلة الصورة الحسّيّة، فصبرَ على اختلاف أخلاق نسائهم لأجل ذلك صباحًا ومساءً، وهؤلاء هم المشار إليهم بقول ابن عبّاس «خير هذه الأمّة أكثرها نساءً» فميل أحدهم إلى الثمار لا إلى الأشجار وإلى النسل لا إلى ذات السِوار، كما قال أبو العلاء[١]: [من السريع]

تشـــتاقُ أيّـــارَ نفـــوسُ الـــورى وإنّمـــا الشـــوقُ إلـــى دَرِّه

وأمّا أمثالنا ممّن يُكثِر التزويجَ لأجل لذّة النكاح، أو للتمتّع بالنظر والحديث من كلّ خَود رداح، أو لأجل مالها أو شرف رجالها ولم يعدل بينهنّ في القسمة ولم يَصبِر منهنّ على خُلُق حرمه فكثرة النساء له هَمٌّ في الدنيا وعذابٌ في الأخرى بل ترك التزوّج في حقّه رأسًا أولى وأحرى، ولذا قيل لعارف: لِمَ تركتَ التزوّج من ذاوت الجمال؟ فقال: التزوّج لا يكون إلّا بعد البلوغ وأنا لم أبلغ مبالغ الرجال، فانظر إلى مَلاحِظ أهل الكَمال.

قال الزمخشريّ في أطباق الذهب: «لا تَخطُبِ المرأةَ لحُسنها ولكن لحِصنها فإنْ اتّفق السترُ والجمال فذلك هو الكمالُ، وأكمل من ذلك أنْ تعيش [٣١ب] حَصورًا ولو عُمِّرتَ عصورًا»[٢].

فقلت: أخبرني جُعلتُ فِداك عن أجمل النساء خَلقًا وأحسنهنّ طبعًا وخُلقًا فأنت بهنّ أعرف عارف ولهنّ أبلغُ واصف فقال: أجملهنّ البِكْرُ العذراء اللطيفة السمراء، التي بلغت عمر البدر واسودّت غدائرها كليالي السِرار من آخر الشهر،

(١) انظر الدر الفريد: ٥/ ٣٥٠. ومسالك الأبصار: ١٥/ ٤٥٠. والرواية فيهما «ورده» بدل «درّه».

(٢) انظر أطواق الذهب: ٣٥.

الغَضَّة[١] البَضَّة[٢] الريحانة البَهْنانة[٣] الكعوب[٤] العَروب[٥] الجيداء[٦] الغيداء[٧] السِّبَحْلة[٨] الرِّبَحْلة الخَفِرة[٩] العَطِرة الرَّشوف[١٠] الرَّصوف[١١] الراتعة[١٢] الرابعة التي كأنّها في المُجون ولّادة[١٣] وفي العفاف رابعة[١٤] والتي إنْ قامت تثنّت وإنْ قعدت تبنّت[١٥] وإنْ نطقت تغنّت، إذا[١٦] قاربت الخُطا كأنّها القطا، وإذا مشت عَجِلةً حسبتَها حجلةً، وإذا تثنّت حسبتها غصنَ بان علاه ورد نيسان، تُقبِل عليك بأربعٍ وتُدبِر بثمانٍ[١٧]، قد أثمر خدُّها التفاح

(١) الغضّة: المرأَة الرَّقيقةُ الجلدِ الظاهرةُ الدم. (لسان العرب، غضض)
(٢) البضّة: المرأَة الناعمة الرَّقيقَةُ في سِمَنٍ وَامْتِلاء.
(٣) البَهْنَانَة: الخفيفة المَرِحة في هدوء ولين.
(٤) الكعوب: الفتاة التي نهَد ثَدْيُها وارتفع.
(٥) العَروب: المرأَة المتحبّبة إلى زوْجِها.
(٦) الجيداء: الطويلة العنق.
(٧) الغيداء: الوسنان المائل العنق؛ المتثنِّي في نعومة.
(٨) السِبَحْلة مثل الربحلة التي تقدّم شرحها.
(٩) الخَفِرَة: لديها حياء وحشمة.
(١٠) الرَشوف: طيّبة الفم والريق.
(١١) الرصوف: أَسْنانُها تَصافَّتْ في نبْتَتِها وانْتَظَمَتْ واستوت.
(١٢) الراتعة: المرأة التي تعيش في رَخاءٍ وَنَعِيمٍ.
(١٣) هي ولّادة بنت المستكفي بالله محمّد بن عبد الرحمن الأمويّ (ت. ٤٨٣هـ/ ١٠٩١م) أميرة أندلسية وشاعرة من بيت الخلافة الأموية في الأندلس. انظر الأعلام: ٨/ ١١٨.
(١٤) هي رابعة بنت إسماعيل العدويّة (ت. ١٣٥هـ/ ٧٥٢م) صالحة مشهورة من أهل البصرة، لها أخبار في العبادة والنسك، ولها شعر. انظر الأعلام: ٣/ ١٠.
(١٥) قال أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث له إنّ التبنّى هو تباعُد ما بين الفخذين. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٤١ رقم ١٣٣٧.
(١٦) في الأصل "إذ".
(١٧) قال أبو عبيد: «تُقبِل بأربع» يعني بأربع عُكَنٍ في بطنها. وقوله «وتُدْبِر بثمان» يعني أطرافَ هذه العُكَن الأربع في جنبيها لكلّ عُكْنة طرفان. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٤١ رقم ١٣٣٧.

وصدرُها الرمَّان، شعر[١]: [من الطويل]

تكـاد يـدي تَنـدَى إذا مـا لمسـتُها ويَنبُـت في أطرافهـا الـورقُ الخضـرُ

لينةَ اللَمس محمّرة الخَمس، مُخجِلة البدر والشمس كأنّما مُقلَتُها نرجسةٌ غَضَّةٌ وكأنّما خرطت لها يدُ المحاسن حُقَّين[٢] من عاج أو فضّة، جَفْنها مريض بلا عِلَّة وخَصْرها نحيل بلا ضَعف، ورِدْفها الصحيحُ قد امتلأ بماء الشباب كالظرف، لها خصرٌ كخصر النملة وردف يَعجب الرائي كيف أصبحت تطيق حمله، ووجهها إذا بدا فضحَ ابنَ ذُكاء[٣] وأمَّ شملة[٤] كأنّما لبست قشورَ اللؤلؤ والمرجان وكأنّما سَالِفُها فوق ورد خَدِّها الرَيحان، [٣٢أ] تَشِفُّ بَشَرَتُها عن المحاسن كما تشفّ الزجاجةُ عن الراح، وتُسْبِلُ شَعرَها فتُريك كيف يواري الليلُ نورَ الصباح، ليس فيها عظمٌ يُمَسّ ولا عِرقٌ يُجَسّ ولاعصب يُحَسّ، تراها العين أقربَ إليها من الحاجب[٥] على أنّها أبعدُ من منال الكواكب، وألين من الزبد والخِرنِق[٦] وأبهى من الفجر إذا بدا من المشرق.

قد حوت طولَ أربعةٍ عُنُقُها وأطرافها وقامتها وشعرها الحالك، وغَلْظةَ أربعةٍ ساقُها ومِعصَمُها وعجيزتها وما هنالك، ودَقَّةَ أربعةٍ سِنّها وأنفها وبنانها

(١) لأبي صخر الهذلي، انظر: ثمار القلوب: ٥٩٧. والوساطة بين المتنبّي وخصومه: ٢٦١. والحماسة المغربيّة: ٢/ ٩٥٤. والعمدة لابن رشيق: ٢/ ٦٥. والدر الفريد: ١/ ٢٤٤. وربيع الأبرار: ٢/ ٤٨٤.

(٢) مكتوب «حقينا» بالألف في الأصل وهناك علامة تصحيح لكن الناسخ لم يكتب شيئًا في الهامش.

(٣) ابن الذُّكاء: الصبح أو الشمس.

(٤) أمّ شملة: الشمس أو الدنيا، ويُقال الخمرة.

(٥) «الحاحب» في الأصل.

(٦) الخِرنِق: أرنب صغير في السنّ.

وخصرها، وسعةَ أربعةٍ جبينها وجبهتها وعينها وصدرها، وضَيْق أربعةٍ فمها ومنخرها ومنفذ أذنيها وما بين ساقيها، وقصرَ أربعةٍ لسانها وعينيها ويديها ورجليها، فقصر لسانِها عن كلّ فُحْشٍ وهَذْرٍ ولغو من الكلام، وعينِها عن النظر إلى غير زوجها من جميع الأنام، ويديها عن الإسراف في مال بعلها والتبذير، ورجليها عن الخروج من منزلها إلّا لعذر كبير، وأنْ يكون كلامها ألذَّ من الضَرَب[١] وأشهى من آلة الطرب، ومن النوم عند الصباح ومن تغريد ذات الطوق والجناح، إنْ خرجتَ عنها خرجتَ كارهًا وإنْ عدتَ إليها عدت والِهًا.

تَحفَظك في نفسها ومالك وتتواضع لك حتّى كأنّها جاريةٌ وأنت لها مالك، تحفظ وقت طعامك وتسكن وقت منامك وتسكت عند ملاحاتك[٢] لها وخصامك، وتعرفُ سرّك من لحظك وتُصغي لكلامك ولفظك، وتصبر عليك زمن الفاقة ولا تحمّلُك ما فوق الطاقة، [٣٢ب] تستكثر منك قليلَ ما تعطيها وتدفنُ منك كثيرَ ما يُؤذِيها، وتخشى غضبك وترغب في رضاك وتفضّلك على جميع من سواك، وهي في دهرنا هذا كالخال الأخضر والكبريت الأحمر، فمن وجدها فلْيُطْبِق عليها أبوابَ أجفانه وليَعَضَّ على صُحْبَتها بأضراسه وأسنانه.

فقلتُ له: لا زالت دُرَرُ ألفاظك تفاخرُ الدُّرَ[٣] والشُهبَ فأخبرني فِداك أبي هل مارست في زمانك الحبّ؟ فقال: والله إنّني قد سلكتُ فِجاجَه وخضتُ لُجَّه وأمواجه وسكِرتُ بطِلاه[٤] واصطليت لظاه، وركبت جَموحه وشربت غَبوقه وصَبوحه، وباشرتُ فيه الخطر وكابدت فيه السهر، وذقتُ حلوه ومرّه، وغلبتْ

(١) الضَرَب: العسل الأبيض.
(٢) «ملاحتك» في الأصل.
(٣) الدر مكرّر مرتين.
(٤) الطِلا: الخمر.

عليّ فيه الوسوسةُ والفكرة حتّى أصبحت فيه من بني عُذرة[١] وقرنتُ بالهوى نونَ الحواجب فصار هوانا وغرستُه في أرض العِفَّة فأثمر وُلوعًا وأشجانا، وطالما داريتُ فيه الرقيبَ وواصلت الأنين والنحيب، وصبرت على جفاء الحبيب، وبُليتُ فيه بصدّ الدلال وهجر الملال وملام العَذول وظنّ الجَهول، وعُضال الداء وشماتة الأعداء، ونحول الجسد والهيام والخبل حتّى ضُرب بي المثل.

فقلت: أرشدني إلى طريقته وعرّفني عن[٢] حقيقته، فقال: ذلك لا يُحَدّ أصلًا ولا أعرفُ له جنسًا ولا فصلًا، كما قالت بعضُ نساء العرب فيه وفاقت وَصْفَ واصفيه بقولها: «جلَّ واللهِ أنْ يُرى وخَفِيَ عن ألباب الورى، فهو كامنٌ فيك كمونَ النار في الحجر إنْ تركتَه توارى وإنْ قدحته أَوْرَى» [٣٣أ] وعلى هذا فلا يُدْرَك كنهُ ذاته ولكن يُحَدّ ببعض صفاته كما قال ابن الفارض[٣]: [من الطويل]

وعِـشْ خاليًـا فالحُـبُّ راحتُـهُ عَنَـا وأوّلُـــهُ سُـــقْمٌ وآخِـــرُهُ قَتَـــلُ

ولمّا بلغ الحبُّ هذه الضخامةَ وكان له العِظَمُ والفخامة، أشار إليه ابن الفارض أيضًا رضي الله تعالى عنه في قوله: «هو الحبّ فاسلم بضمير الشأن الدال على عِظَم القدر والشأن» وأشار بقوله: «هو إلى حاضر في الذهن والجنان».

وحَدَّهُ بعضُ الحكماء بلا إطالة فقال: «هو داءٌ تحرّكه البطالةُ». وأنا أقول: لو

(١) بني عُذرة بن سعد بطن عظيم من قضاعة من القحطانية تتفرّع منه أفخاذ عديدة. وهي قبيلة حميرية كانت تقطن في وادي القرى، ينسب إليها الحبّ العذري العفيف، ومنها الشاعر جميل بن معمر العذري الملقّب جميل بُثَينة. انظر معجم قبائل العرب: ٧٢٨/٢.

(٢) كذا في الأصل، ولعلّ الصواب "على".

(٣) ابن الفارض هو عمر بن عليّ بن مرشد بن عليّ (ت. ٦٣٢هـ/١٢٣٥م) أشعر المتصوّفين ويُلقّب بسلطان العاشقين. انظر الأعلام: ٥٥/٥. والبيت في: مسالك الأبصار: ٣٨٣/٨. وروضة المحبّين: ١٤١. ونفح الطيب: ٣١٤/٦.

كان الحبّ داءً لوجدنا له دواءً فإنْ قلتَ: دواؤه وِصالُ من يشتهيه صاحبُهُ ويريده قلتُ: الوصال ممّا يضاعفه ويزيده كما قال بعض المحبّين[١]: [من الطويل]

فلو أنّ روحي مازجت[٢] ثَمَّ روحَه لقلتُ أُدنُ منّي أيّها المُتَباعِدُ

وقال الآخر: [من مجزوء الرمل]

كلّما قلتُ بقُربي تنطفي نِيْرانُ قلبي
زادني القُرْبُ لهيبًا هكذا[٣] شأن المحبِّ

على أنّ الحبّ لم تَثْبُتْ زيادتُهُ ولا نَقْصُهُ وإنّما يزيدُ طمعُ صاحبه وحِرْصه، لأنّ حقيقة الحبّ أنّه لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالوفاء إذ لو قَبِل الزيادةَ والقلّة لكان معلولًا وهو لا يقبل العلّة، وهذا ممّا حيّر الأفكارَ ودلّ على وجدان الفاعل المُختار، فقلت له: كيف لا يقبل الزيادة والنقص [٣٣ب] وقد ورد فيه التصريح في الحديث والنصّ: «زُرْ غِبًا، تَزْدَدْ حُبًّا»[٤] فقال: الحديث على من كان في أوّل الحبّ وبدايته لا على من وصل به إلى غايته وإلى الأوّل يشير قول الشاعر[٥]: [من الخفيف]

لا تزرْ من تحبُّ في كلِّ شهر غير يومٍ ولا تزدهُ عليهِ
فاجتلاءُ الهلالِ في الشهر يومٌ ثمّ لا تنظرُ العيونُ إليهِ

وإلى الثاني يشير قول الآخر[٦]: [من الوافر]

(١) بلا نسبة في: الدر الفريد: ٣/ ٤٣٤.
(٢) «مازاجت» في الأصل.
(٣) «هكذ» في الأصل.
(٤) انظر المقاصد الحسنة: ٣٧٦.
(٥) انظر الدر الفريد: ٧/ ٣٢٢. والوافي بالوفيات: ٩/ ٢٢. وقلادة النحر: ٤/ ٥٤.
(٦) نُسبت لبهاء الدين السنجاري في الوافي بالوفيات: ٩/ ٢٠. وبلا نسبة في الدر الفريد: ٣/ ٢٠٤. وقلادة النحر: ٤/ ٤٥.

إذا أُنْسَـــيْتَ مـــن خِـــلٍّ ودادًا فـــزرْه ولا تخـــفْ منـــه مـــلالا
وكـــنْ كالشـــمس تطلـــعُ كـــلَّ يـــومٍ ولا تَـــــكُ في محبّتـــــه هـــــلالا

ثمّ قال: وأسباب الحبّ ثلاثةٌ عند أهل الحكمة، وهي: النظر، أو سَماع صفة، أو نغمة، ومن الآخير قول أبي تمام[١] وقد سمع جاريةً تغنّي بالفارسيّة فلم يفهم كلامها حيث يقول[٢]: [من الوافر]

فلـــم أفهـــم معانيهـــا ولكـــنْ شَـجَتْ قلبـي فلـم أحمـل شـجاها
فكنـــتُ كـــأنّني أعمـــى مُعَنّـــى يحـــبُّ الغانيـــات ولا يراهـــا

فإذا حَصَل أحدُ هذه الأسباب لإنسان ظهر[٣] له الحبُّ وهو أوّل ظهوره في صورة الاستحسان ثمّ يزيد فيظهرُ في صورة الميل إلى المحبوب، ثمّ يزيد فيظهر بصورة الشغف لأنّه يصل إلى شَغاف المحبّ وهو غشاؤه وحجابه الذي تكون فيه القلوب، ثمّ يزيد فيظهرُ بصورة الحبّ وذلك إذا خرق حجابَ القلب ووصل إلى حَبَّتِه، ثمّ يزيد فيظهرُ بصورة الودّ ثمّ بصورة الهوى ثمّ بصورة [٣٤أ] العشق ثمّ بصورة الوَلَه، ثمّ يزيدُ فيظهرُ بصورة التيّم وهي حالة تُملِّكُ المعشوقَ رقَّ العاشق ولو كان من العِلية ومعشوقُهُ من السَّفَلة ومن ذلك قول أمير المؤمنين الرشيد في جواريه الثلاث[٤]: [من الكامل]

(١) أبي تمّام هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (ت. ٢٣١هـ/٨٤٦م) الشاعر الأديب وأحد أمراء البيان. انظر الأعلام: ٢/ ١٦٥.
(٢) انظر الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري: ١/ ٨٥. ونهاية الأرب: ٥/ ١١٨. ومحاضرات الأدباء: ١/ ٨٢٠.
(٣) «ضهر» في الأصل.
(٤) انظر الذخيرة: ١/ ٤٧. ومسالك الأبصار: ٥/ ١٤٧. واعتلال القلوب: ٢/ ٣٤٧. وروضة المحبّين: ١٨٧. والرواية في هذه الكتب: «وحللن من قلبي بكلّ مكان». ونُسبت للعبّاس بن الأحنف على لسان الرشيد في نهاية الأرب: ٢/ ١٤٤.

مَلَـك الـثلاثُ الغانيـاتُ عِنـاني وحَلَلْـنَ مـن قلبـي أعـزَّ مكـانِ
مـا لـي تُطـاوِعني البريّـةُ كلُّهـا وأُطـيعهنّ وهـنّ في عصـياني
مـا ذاك إلّا أنّ سـلطانَ الهـوى وبـه اعتـززْنَ أعـزُّ مـن سـلطاني

ومنه قول المستعين[١] أحدُ خلفاء الأندلس[٢]: [من الكامل]

عَجَبًـا يَخـافُ الليـثُ حـدَّ سـناني وأخـافُ لحـظَ فـواترِ الأجفـانِ
حاكمـتُ فـيهنّ السُّـلُوَّ إلـى الصبا فقضـى بسـلطانٍ علـى سـلطاني
فـأبحنَ مـن قلبـي الحِمـى وتركنني في عـزّ مُلْكـي كالأسـير العـاني

ومثله قول الملك الناصر يوسف[٣]: [من الطويل]

دمـي قـد أطلّتْـهُ نـواظرُ غـادةٍ هـي الشـمسُ تُجْلَـى في سـيوف
رمتنـي بسـهم مـن كنانـة سـحرها فصـار علـيّ الوجـدُ ضـربةَ لازبِ
وأصبحتُ عبدًا بعد ما كنت مالكًا كذلك ربُّ السجن يوسفُ صاحبي

ومثلُه للملك الناصر داود[٤] ابن[٥] الملك المعظّم عيسى[٦]: [٣٤ب] [من الكامل]

(١) المستعين هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر (ت. ٤٠٧هـ/١٠١٦م) من ملوك الدولة الأموية في الأندلس وكان شاعرًا أديبًا. انظر الأعلام: ٣/ ١٢٣.
(٢) انظر مسالك الأبصار: ٥/ ١٤٦. والذخيرة: ١/ ٤٧. ونهاية الأرب: ٢/ ١٤٤. والإحاطة في أخبار غرناطة: ٤/ ٢٢٨. والحماسة المغربيّة: ٢/ ٤٣.
(٣) هو يوسف بن أيوب بن شاذي، صلاح الدين الأيوبي، الملقّب بالملك الناصر (ت. ٥٨٩هـ/١١٩٣م) من أشهر ملوك الإسلام. انظر الأعلام: ٨/ ٢٢٠.
(٤) هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود (ت. ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ابن السلطان الملك المعظم عيسى ابن العادل. انظر الوافي بالوفيات: ١٣/ ٣٠١.
(٥) في الأصل "بن" والصواب "ابن".
(٦) انظر مسالك الأبصار: ٢٧/ ٣٧٠. والوافي بالوفيات: ١٣/ ٣١٠. وشذرات الذهب: ٧/ ٤٧٦.

طـــرفي وقلبـــي قاتـــلٌ وشـــهيدُ ودمـــي علـــى خـــدّيك منـــه شـــهودُ
وأَقـــلُّ مـــا لاقيـــتُ منـــك منيّتـــي وأقـــلُّ مـــا بـــالنفس فيـــكَ أجـــودُ
ومـــن العجائـــب أنّ قَلْبَـــكِ لـــم يَلِـــن لـــــي والحديـــــدُ ألانـــــه داوودُ

ثمّ يظهر التتيّمُ، فيظهر بصورة الهُيام وهو للمحبّ آخرُ مقام، والهيام داء يعتري الإبل فلا تدري أين تتوجّه معه، وإذا ابتُلي به العاشقُ ذَهَلَ حتّى عن نفسه وعن محبوبه الذي كسر قلبه وصَدَعه، كما حُكِي أنّ ليلى رأت مجنونها وقد اعتراه الهيام فسلّمت عليه فلم يردّ السلام، فقالت له: أنا ليلى التي لم يدع حبُّها فيك قوّةً ولا حولًا فقال لها: إليكِ عنّي فقد شَغَلني حبُّ ليلى عن ليلى، ولذا قال بعض المحبّين[1]: [من البسيط]

قـالوا: نظنّـك مجنونًـا فقلـت لهـم: العشـقُ أعظـمُ ممّـا بالمجـانينِ
فالعشـقُ لا يسـتفيقُ الـدهرَ صـاحبُهُ وإنّمـا يُصْـرَع المجنـونُ في الحـينِ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

العشـــــق يُسْـــــكِرُ كالمُـــــدا م إذا تمكّـــــنَ في العقـــــولِ
يُبقـــي اليســـيرَ مـــن الكثيـــر فكيـــف ظنّـــكَ بالقليـــلِ؟

وللحبّ علامات لا يحصيها عددٌ ولا تسعها الدفاتر، لكنَّ المشهورَ منها علاماتٌ أربع وهي المشار إليها بقول الشاعر[2]: [من الكامل]

(١) بلا نسبة في: اعتلال القلوب: ٢/ ٣٧٧. ونُسبت لقيس بن الملوّح في: مصارع العشّاق: ٢/ ١٨١. وروضة المحبّين: ١٣٩. والمستطرف: ٤٠٥. وانظر ديوان قيس بن الملوّح: ٢١٨. ورواية البيتين فيه:

قالتْ جُننتَ على رأسي فقلتُ لها الحبّ أعظم ممّا بالمجانين
الحبّ ليس يفيق الدهرَ صاحبُه وإنّما يُصرع المجنونُ في الحين

(٢) نُسبت لمحمّد بن جعفر الدولابي في: اعتلال القلوب: ٢/ ٢٨٥. وبلا نسبة في: لطائف الإشارات: ٣/ ٣٠٢.

لـــي في محبّـــتكم شـــهودٌ أربـــعٌ وشـــهودُ كـــلِّ قضـــيةٍ اثنـــانِ
خَفَقَـان قلبـي وارتعـاشُ مفاصـلي ونحولُ جسمي وانعقادُ لساني [٣٥أ]

وهو كما قَدَّمناه ليس له دواء كما قال بعض من كابد فيه البَلاء[١]: [من الكامل]

زعـمَ ابـنُ سـينا في عقـود كلامـه أنّ المحـــبَّ دواؤه الألحـــانُ
ووصـالُ غيـر حبيبـه مـن جنسـه والمـاء والصَّـهْبَاء[٢] والبسـتانُ
فصـحبتُ غيـرك للتـداوي سـاعةً وأعـاننـي المقـدورُ والإمكـانُ
فـازدادَ بـي شـوقي إليـك وشـفّني وَجْـدي وثـارت نحـوك الأشـجانُ
فعلمـتُ أنّ الحـبّ داءٌ مُعْضِـلٌ بُقـراط[٣] فيـه كلامُـهُ هَـذَيانُ

ومن ثمراته أنّه يرقّق الطباع الجافية ويُظهِر المزايا الخافية، ويُذكِي الأذهانَ ويشجّع الجَبان، ويَحْمِلُ البخيل على الكرم ويَحُضُّ على مكارم الأخلاق ومحاسن الشِيَم، ومن أحسن ثمراته الغَضَّة الطريّة أنّه ربّما أوصل صاحبه إلى حبّ الحضرة الإلهيّة، لأنّ حبّ الصور البشريّة عائدٌ إلى ذات الإله العليّة، وذلك لأنّ لله تعالى خمسُ حضرات: وهي حضرةُ الذات وحضرة الصفات وحضرة الأسماء وحضرة الأفعال وحضرة الآثار، فمَن أحبّ ذاتَ الله وحدها فمحبّته ذاتيّة، ومن أحبّ لطفَه ورحمته ونحوَها من صفات كماله فمحبّته صفاتيّة ومن أحبَّ أسماءه[٤] كالحليم والكريم ونحوها فمحبّته أسمائيّة، ومن أَحبّ إيجادَه وإمداده فمحبّته أفعاليّة، ومن أحبّ بعضَ الصور التي خلقها فمحبّته آثاريّة

(١) الأبيات بلا نسبة في شرح ديوان ابن الفارض: ٥٧.
(٢) الصَّهْبَاءُ: الخَمرُ.
(٣) بُقراط أو أبُقراط هو أبو الطبّ اليوناني القديم وأعظم أطباء عصره. انظر عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء: ٣٤-٥٠.
(٤) في الأصل "أسمائه".

ومحبّةُ آثاره محبّة له، علم ذلك أو جهله، وإلى ذلك يشير ابنُ الفارض في تائيّته بقوله[١]: [من الطويل]

تجمّعتِ الأهواءُ فيها فما ترى ... بها غيرَ صبٍّ لا يرى غيرَ صبوة

ولقد كُشِفَ حجابُ الوهم لمجنون ليلى بعد أنْ كان نهارُه [٣٥ب] ليلًا فتوصّل بالأثر إلى المؤثّر وبالصورة إلى المصوّر، حتّى صار من أكبر العارفين وأوصله الساحلُ إلى بحر الحقيقة فكان من الراشفين منه والغارفين.

قلتُ: وإلى هذا يشير ما قَدَّمناه من كلامه حيث قال «شَغَلَني حبُّ ليلى عن ليلى» إذ التقديرُ شَغَلَني حبُّ خالقِ ليلى عنها، وحذفُ المُضاف سنّةُ العرب التي تستمدّ اللغات منها، ومن ذلك قوله تعالى بلا شكّ ولا مرية ﴿فقَبضْتُ قَبْضَةً من أثرِ الرسولِ﴾ [طه ٩٦] وقوله: ﴿واسألِ القريةَ﴾ [يوسف ٨٢]. ونُكْتَةُ حذف هذا المضاف من كلام المجنون إمّا أنْ يكون للغيرة على اسم محبوبه، أو لأجل الكَتْم الذي أُمِر به المجنون، [أ]و أدبًا مع ذلك المحبوب الأعلى إشعارًا بأنّه لم تكن نفسه لمحبّته أهلًا، فقلت له: لقد قدّمتَ في كلامك أنّ المتيّم من صيّره الحبُّ مملوكًا وإنْ كان مَلِكًا، قال السلطانُ محمّد بن الأحمر الأندلسيّ[٢] في أحد جواريه[٣]: [من الطويل]

أيا ربّةَ الخالِ التي حسّنتْ هتكي ... على أيّ حالٍ كان لا بدّ لي منكِ

فإمّا بذُلٍّ وهو أليقُ بالهوى ... وإمّا بعزٍّ وهو أليقُ بالمُلْكِ

(١) انظر خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٤٤٧.

(٢) هو محمّد بن يوسف بن محمّد بن الأحمر (ت. ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) من ملوك الأندلس المغمورين ولا تزال سيرته مجهولة. انظر الأعلام: ٧/ ١٥٤.

(٣) انظر الإحاطة في أخبار غرناطة: ٤/ ٢٠٧. وروضة المحبّين: ١٨٧. والوافي بالوفيات: ١/ ١٦٧.

فقال: لقد خَطَّأه الصلاح الصفديّ[١] في قوله هذا وردّ عليه بقوله[٢]: [من الطويل]

تمسكْ بذلّ فهو أليقُ بالهوى لتُنْظَمَ مع أهل المحبّة في سلكِ
متى لاقَ بالعشاقِ عزٌّ وسطوةٌ كأنّك من ذلّ المحبّة في شكِّ

وقد انتصر ابنُ حجر[٣] في شرح بانت سعاد لابن الأحمر وردّ على الصلاح الصفديّ فيما اعترض به عليه وأنكر حيث قال: [من الطويل]

إذا لم يكن وصلٌ من الحِبّ مُسْعِفٌ وأَمْسَيْتَ تحت الضيق في الحبّ والضَنْكِ
ولم تستطع صبراً على الذلّ والهوى فبالعزّ وصلُ الخَود أَولى من التَرْكِ

[٣٦أ] فقلت: في كلام ابن حجر ما يقتضي عدولَ المحبّ عن الذلّ الذي هو مقامُه، وقد فاته كالصلاح الصفديّ قصدُ ابن الأحمر ومرامُهُ، لأنّ ابنَ الأحمر قد أشار إلى مرمى أخفى من السُّها[٤] وأبعد من سدرة المنتهى، وهو أنّ كلّ شخص إذا أحبّ آخر فلا بد أنْ يحبّه الآخر بمقدار ما أحبّه، فكلٌّ من المحبّ والمحبوب محبٌّ من وجه ومحبوب من آخر، فإذا طلب المحبُّ وصلَ حبيبه من حيث كونه محبًّا طلبه بالذلّ وهو أليق بالهوى، وإذا طلبه من حيث كونُه محبوبًا طلبَه بعزّ وهو أليق بالملوك، وهذا ممّا كشف الله لي عنه في هذا الوقت الغطا وصيّر فهمي إليه أهدى من القطا.

(١) الصلاح الصفدي هو خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين (ت. ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) أديبٌ ومؤرّخ وصاحب تصانيف ممتعة كثيرة. انظر الأعلام: ٢/ ٣١٥.

(٢) انظر الوافي بالوفيات: ١/ ١٦٧.

(٣) ابن حجر هو أحمد بن عليّ بن محمّد الكنانيّ العسقلانيّ (ت. ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) من أئمة العلم والتاريخ. انظر الأعلام: ١/ ١٧٨.

(٤) السُّها: كوكبٌ صَغيرٌ خَفيُّ الضوء في بناتِ نعش الكبرى أو الصغرى.

وممّا يشهدُ بميل المحبوب إلى المحبّ حديث: «إنّ أُحُدًا جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه»[١] وإذا كان الجمادُ يميلُ إلى من يحبُّه طبعًا فما بالك بالإنسان الذي هو أشرف أفراد العالم قطعًا. وأمّا قولهم المحبوب لا يُملَك فمرادهم لا يُمْلَكُ من وجه كونه محبوبًا فلا ينافي أنْ يُمْلَكَ من وجه كونه محبًّا كئيبًا وقد أشرتُ إلى ذلك بقولي: [من الطويل]

سأَطلُبُ وصلَ الحِبّ في كلّ حالةٍ ... لأبلغَه من غير ريبٍ ولا شكِّ
فإمّا بكوني عاشِقًا ذا صبابة ... فأطلبه بالذي في الوُسْع والضَّنْكِ
وإمّا بمحبوبيّتي أَطلُب اللقا ... بعزّ وذاك العزُّ أليقُ بالمُلْكِ

فقال: والله ما سمعت أذنايَ أحقَّ بالصواب من هذا التحقيق ولا أدقَّ إدراكًا من هذا التدقيق، فلا عَدِمَتْكَ رياضُ الأدب التي أنت غيثُ خُضرتها- وأبكارُ المعاني التي أنت أبو عُذرتها [٣٦ب] فقلت: أيّها الشيخ حيث حَلَبتَ أَشْطُرَ المحبّة ولم تدع في ضرعها من داعي اللبن لغيرك وزنَ حَبَّة، فأخبرني أيّها اليعسوب والبحر الخِضمّ اليعبوب بألطف جواب اتّفق لك سماعُه من محبوب.

فقال: ممّا اتّفق لي أنّني كنت شُغِفتُ بجارية كانت مياهُ الحسن في جميع أعضائها جارية، قد قرنتْ بجمالها عُذوبةَ الألفاظ وقرأت ما في ضمائر الناس من الألحاظ، وكانت مع شغفي بحبّها قد تمكّن حبّي من حبّة قلبها، وكانت كأنّها اللبوةُ إذا سطت والقطاة إذا قَطَت، والظبيةُ إذا التفتتْ أو عَطَت، لها ردف مُقْعِد وثدي مُقْعَد[٢] وبنان يكاد من اللطافة واللين أنْ يُعْقَد، فاشتهيتُ يومًا أنْ أرتضعَ لمى ثغرها المعسول، فقالت: لا سبيل لما أردتَ ولا وصول، فقلتُ: بأبي أنتِ

(١) انظر صحيح البخاري: ٨٣١. وصحيح مسلم: ١/ ٦١٨-٦١٩، ١/ ٦٢٥-٦٢٦. وسنن ابن ماجة: ١٠٤٠. وجامع الترمذي: ٦/ ٢٠٦. والموطّأ: ٢/ ٤٦٧، ٢/ ٤٧١.
(٢) ثديٌ مُقْعَدٌ: ناتئ على النحر إذا كان ناهدًا لم يَنْثَنِ بعد. (لسان العرب، قعد).

وأمّي كيف تبخلين على هذا المريض بدوائه وتحولين بينه وبين شفائه؟ فقالت: أيّها المُغرَم الكئيب والأريب الأديب أما علمت أنّ المراضعة تحرّمُ المباضعة؟ فقلتُ: يا قُرَّة العين ولكنّ التحريم مشروطٌ بعدم بلوغ الرضيع حولين، فقالت: يا شقيق النفس أما أنت ابن أمس على أنَّ الحبّ أضعفك حين ألقاك في كلّ هوّة فأنت ما بلغت حولًا ولا قوّة، فقلت لها: وعلى تسليم ما إليه السيّدة تذهب فأقول إنّي شافعيّ المذهب وعندي لا تحريمَ إلّا بخمس رضعات بشرط كونها متفرّقات، فقالت: والله إنّ مذهبك [٣٧أ] لواسع الحضرة وقد سمحتُ لك بشربة من رُضابي فإيّاك أنْ تُتْبِعَ الشربة بالجرّة.

وقد اتّفق لي مع جارية أخرى ما هو أعذبُ من هذا وأهنأ وأمرا، وقد كنت هِمتُ بها هُيامَ توبة في ليلى وجميل في بثينة وعروةَ في عفرا، وكان قد وخَطَني المشيبُ وبَلِيَ ثوبُ شبابتي القشيب، وكانت ذاتَ خِدْرٍ لا ذات بعل، وهي لكلّ جمال وكمال أهل، فطالت بيني وبينها الصحبةُ وعرَّضتُ لها يومًا بالخِطبة، فتألّمتُ منها وتغافلت عنها ثمّ دعتني يومًا بلطافتها إلى ضيافتها، فلمّا وصلتُ إلى دارها العامرة بمحاسنها الباهرة تلقّتني بالترحيب والتأهيل والتعظيم والتبجيل، وأقبلت عليّ بحديث لو سمعه الميتُ لعادت إليه الحياةُ أو الظمآن لاكتفى به عن زُلال المياه، فلمّا حضر وقتُ الطعام مدّت لنا مائدة الإكرام فتأمّلتُ ما فيها من الأزواد فلم أر فيها غير ضِباب مقليّة وجراد، فسئمتْ نفسي من ذلك وغثيتْ واشمأزّتْ وجاشت وخبثتْ، فلمّا رأت أنّ طبعي من ذلك قد نفر، قالت: باسم الله هلمّ إلى ما حضر، فقلت: إنّ عليّ صيامَ يوم من رمضان هذا العام وقد نويته الليلة البارحة قبل المنام وإنّما أجبتُ السيّدةَ المصونة لدعوتها امتثالًا لأمرها وحفظًا لحرمتها، فقالت: لا والله إنّما أظنّك استقذرتَ ما قدّمتُه إليك، ولو علمتُ ذلك لما كلّفتك لما يشقّ عليك، فكيف تتقذّر من أكله وأنت معتقدٌ لطيبه

وحِلّه؟ فقلت: يا سيّدتي ما كلّ حلال يُشتهى [٣٧ب] ولا كلّ ما يُشتهى حلال، والغزال مع ظرافته يأكلُ الحنظلَ ويشربُ الماءَ المِلْحَ ولا يشربُ العذبَ الزلال، فقالت: الآن برح الخفاءُ وذهب الجفاء، فدع الاعتساف واحكمْ بالعدل والإنصاف، والعدلُ أنْ تعدل عن الهوى عدلك عن غير جنسك وتحكم للغير كما تحكم لنفسك. فعند ذلك زال الشكُّ والريبُ وعلمتُ أنّها تعرضُ بكراهة نكاحي لكراهتها للشيب، فنهضتُ من عندها والقلب كالجفن منكسر والدمع كالغيث ينهمر، أعثرُ في ذيول الخجل وآسف على خيبة الأمل وها أنا إلى الآن كلّما ذكرتها ينكسرُ فؤادي ويذهب رقادي وتطول حسرتي وتزيد زفرتي.

ثمّ قال: فأخبرني بألطف جوابٍ سمعتُه من الأحباب، فقلت: ما اتّفق لي أنّني استنهضتُ يومًا هَمَّةَ رئيسٍ من السودان في حاجةٍ عَجَزَتْ عن قضائها أعيانُ الزمان، فقضاها في أسرع من مَضْغِ تمرة وحلب شاة، ومن وميض البَرْق وانحدار المياه، فتوجّهتُ إلى محلّه لأشكره على حسن فعله، فلمّا رأيتُه قلت له: ماذا أقولُ في مَدْحِكم من بليغ الأقوال ومنكم لقمان الحكيم وبلال، وحسبكم من الفخر أنتم ومن كان من أمثالكم أنّ الله تعالى لا يُكمِلُ حُسْنَ الحور العين إلّا بسواد بلادكم، فقال: الأسود مع شهرته بفرط الذكاء بين العباد كيف يُكمِل اللهُ تعالى حسن الحور العين بذلك السواد؟

وكان هناك غلامٌ قد راهق البلوغَ وأخجل الوردَ والبدور، حتّى ظهرت فيهما حمرةُ الخجل [٣٨أ] هذا حال الخروج من الكِمام وذلك حالة البزوغ، كأنّ رُضابه العسلُ وقَوامه العسَّال، يشهد فتكُ ألحاظه بأنّه أسدٌ ومَسْكُ خاله أنّه غزال قد جمع ثغرُه بين الشهْد والرحيق والدُرّ والعقيق، كما جمع غُصْن قَدِّه بين التفاح والرمّان والورد والريحان، والماء والنار والمُطوَّق والهزار، تُشرِق الشمسُ من وجهه والبدر من صدره، ويَوَدُّ الهلال أنْ يكون قُلامةَ ظُفْرِه، نبيهٌ يترك، قُسَّ البيان

سطيحًا ويرى الإشارة والكتابة والإيماء تصريحًا، لو رأته النسوةُ اللاتي[١] قطعن أيديهنّ لجمال يوسف بن يعقوب لعدلن عنها إلى تقطّع الأكباد والقلوب، يغارُ من حاله قلبُ الشقيق، ويعلو حاجبُه على العيون علوّ الأحرار وهو الأسودُ الرقيق، فلمّا رأى تعجّب ذلك الأسودِ من تكميل حسن الحور بسواد بلال، واستغرابَه لذلك الأمر والحال، قال له: يا سيّدي لا تعجبْ من ذلك فهو أيسرُ مرادٍ للباري ومقدور وذلك بأنْ يجعل سوادَ بلال شاماتٍ تفرّق في خدود الحور، فلمّا سمع الأسودُ منه ذلك نعق من طربه نعقة الغراب وقال له: أُعيذك من عيون الحاسدين بآيات الكتاب، فما سمعتْ أذناي ألطفَ من هذا الجواب.

ومثلُ ذلك ما اتّفق لي مع محبوبٍ أجمل من هذا في وصفه وأكثر منه في رقّته ولطفه، وذلك أنّني جالستُه يومًا وأطلتُ معه الجلوس وتمتّعت منه بما يُميتُ الهمومَ ويُحيي[٢] النفوسَ ثمّ أطلعتُ ساعةً لأنظر فيها إلى ما مضى من أجزاء النهار [٣٨ب] في مجالسته واغتنام رقائقها فأخرج الآخرُ من عُبِّه ساعةً وصار يتأمّل في دقّاتها، فقلت: أُقسم عليك بالذي جعل اللحاظ سيوفك والرمح السَّمْهَرِيّ[٣] قدّك إلّا أخبرتَني بما عندك؟ فقال: عندي مثل ما عندك فعند ذلك رغبتُ في اقترابه وذهلت من سحر جوابه.

فقال الشيخ: ما سمعتُ ألطفَ من هذين الجوابين المُرقصين المطربين، وتالله لا يَكمُل جمالُ الإنسان إلّا إذا كان فصيحَ اللسان، وما المرء إذا فاتته فصاحةُ اللسان إلّا صورة ممثّلة أو بهيمة مُهْمَلة، واللطيف لا يؤثِّر فيه إلّا سِحر البيان، لا ما في الصور من الإتقان وألوان الدِّهان، قال سيّدنا الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر

(١) «التي» في الأصل.
(٢) «يحي» في الأصل.
(٣) السَّمْهَرِيُّ: الرمحُ الصليبُ العودِ منسوبٌ إلى سَمْهَرٍ وهو رجل كان يقوّم الرماح.

الشيخ محيي الدين بن عربيّ[١] بلّغني الله به أربي: [من الطويل]

أُحِبُّ مليحَ الحِسِّ ليس ببارعِ جمالًا ولا أهوى المليحَ بلا حِسّ
عليك تصاويرَ الكنائسِ لُذْ بها إذا كنتَ مَيَّالًا إلى الصوَرِ الخُرْسِ

وحُكِيَ أنّ حكيمًا مرّ بمليح فاستنطقه فلم يَحمَد منطقَهُ على ما فيه من المحاسن بل قال: نِعْمَ البيت لو كان به ساكن، يشير بذلك إلى أنّ السرّ في السكّان لا في الأماكن.

فقلتُ: بالله أنشدني بعضَ غزلك أو نسيبك ليَكمُلَ عقدُ سروري بفرائد تغزّلك وتشبيبك فقال: والله لا أحفظ من كلامي غير النَّزْر اليسير، ولم يحضرني الآن منه غير مقطوعة جاش بها الضمير، وهي قولي: [من الكامل] [٣٩أ]

بأبي التي أَمْسَتْ تشير إلى قومي بأنْ يُصغوا إلى مُلَحي
بيدٌ من الجُمَّار[٢] مِعْصَمُها وأنامِلٌ تروي عن البَلَحِ

فقلت: أُعيذك بالله من شرّ البغاة والغواة، فأفدني هل كان البَلَحي من الرواة؟ فقال: نعم هو أبو العبّاس أحمد بن طاهر بن محمود[٣] من رواة الحديث الذين امتلؤوا معقولًا ومنقولًا، ذَكَرَه ابن نقطة[٤] في كتاب الاستدراك الذي استدرك فيه ما فات ابنَ ماكولا[٥]، فقلتُ: وأنا أُنشدك بيتين من غزلي الحديث وجّهتُ فيهما

(١) محيي الدين بن عربي هو محمّد بن علي بن محمّد عربي (ت. ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) فيلسوف من أئمة المتكلمين في كلّ علم. انظر الأعلام: ٦/ ٢٨١.
(٢) الجُمّار: شحم النخل. (لسان العرب، جمر)
(٣) هو أبو العبّاس أحمد بن طاهر بن محمود المعروف بابن البَلَحي (ت. ٥٥٥ه). انظر اللباب في تهذيب الأنساب: ١٤٠.
(٤) هو محمّد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع (ت. ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) عالم بالأنساب وحافظ للحديث. انظر الأعلام: ٦/ ٢١١. واسمه مكتوب «بن نقطة» في الأصل.
(٥) هو عليّ بن هبة الله بن عليّ بن جعفر (ت. ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) أمير مؤرخ من العلماء الحفاظ الأدباء. انظر الأعلام: ٥/ ٣٠. واسمه مكتوب «بن ماكولا» في الأصل.

بذكر راوٍ من رواة الحديث، ثمّ أنشأتُ أقول: [من البسيط]

عصفورُ قلبي رماه الحبُّ في قفصٍ من الضلوع فلم يبرحْ من الدوري
وقد أخذتُ حديثَ الحُسْنِ عن رشأٍ ورود وجنته تروي عن الجوري

فقال: نعم الجُوْري شيخ النيسابوري.[١]

ثمّ قال: لقد مللنا من هذا الرَقْم والإيجاز فمِلْ بنا إلى نشأتك من الأحاجي والألغاز، وإنْ شئتَ كنتُ أنا المبتدي وأنت المقتدي، قلت: هات، قال: فأخبرني أيُّ شيء فيك لا يُحصى عددُه ولا ينقطع مددُه، يَزينك ويُشينك ويُكرِمُكَ ويُهينك، يوصف بالكثافة واللطافة والغلظة والنحافة، تعامِلُ بعضَه بالنفع وتعامل بعضَه بالقطع [٣٩ب]، تراه يتلوّن ألوانًا فتارةً تراه عَقْرَبًا وتارةً ثعبانًا وطورًا يكون من هالات الأقمار والشموس وتارةً من دوائر النحوس، وقد يكون وقتًا غُرابًا ووقتًا حمامةً وتارةً يكون لِثامًا وتارةً تراه عِمامةً، وأكثر تطوّره في صورة الأحرف الهجائية التي تخطّها الأقلام، فوقتًا يكون ألفًا ووقتًا في صورة سين ووقتًا في صورة واو ووقتًا في صورة لام، ويعلو تارةً حتّى يكون فوق الرؤوس ويَسفُلُ أخرى حتّى يكون تحت الأقدام، يُسوّدُ وجهَ الملوك ويتسامى على كلّ غنيّ وصعلوك، لكنّه إذا عومل بالمُداراة والمداهنة إجلالًا وإكراما، نزل بالتواضع عن مقامه العالي وصار على الأقدام يترامى[٢] ولذا أمر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بإكرامه كما أمر بالسؤال عنه لأجل احترامه، وهو عمادُ الجمال والحسن ومنبع السرور والحزن، قد أصبح لكلّ مالك حاجبًا وخِدنًا كما أمسى لسيف ألحاظ الملاحة جفنًا، إنْ صببتَ عليه الماءَ وجدتَه للدرّ ناثرًا وإنْ منحته منك أَلِفَ الوصل وجدته شاعرًا

(١) الجُوْري هو أبو الحسن علي بن الحسين الجوري. انظر تكملة الإكمال لابن نقطة: ٢/ ٣٩١ رقم ١٨٤٣.

(٢) «يتراما» في الأصل.

وماهرًا، وإنْ اجتمع كان كذُباب الصيف وإنْ افترق كان كذُباب السيف[١]، يُهجَى ويُمدَح، إذا لبس السواد كان في أبّهة خلفاء بني العبّاس، وإنْ لبس البياض كان أهونَ على الناس من صاحب الفقر والإفلاس، كم سقط من عين الكبير والصغير وكم فاخر الدرّ والبرَّ وهو أقلّ من الشعير، [٤٠أ] فسبحان من خلقه وصوّره، ومحا آيةَ ليله وجعل آيةَ نهاره مبصرةً فبُحْ لنا بسرّه واكشفْ لنا خفيَّ أمره.

فقلت: وقد أَجَلْتُ فيه النظر، واستشعرتُه فوجدته شَعَر، فقال: لا عدمتُ منك هذه الفطنةَ الوقّادة والقريحةَ المُنقادة.

فقلتُ: وأنا أسألُك عن شيء فيك لا يُعْرَف منه غيرُ الاسم وليس له روحٌ ولا نفس ولا قلب ولا جسم، وإذا أبنتَ نصفَه فهو الخطّ مع أنّه لا يقبلُ القسمة، وليس هو بالجوهر الفرد عند أهل الحكمة، بل هو من الأعراض التي لا تبقى زمانين، لأنّ بقاءه فيك أسرعُ من وميض البرق ولمح العين[٢] بل لا يَصِحُّ أنْ يكون عَرَضًا لكُمونه كُمونَ النار في الزِّناد، والموت في متون السيوف الحِداد، وقد برهن على[٣] إبطال كُمون الأعراض في المُحال لما يَلزَم من اجتماعها الجمعُ بين النقيضين والضدّين وذلك معدود من المحال، وإذا انتفت عنه الجسميّةُ والعرضيّة والجوهريّة التي انحصرت فيها أفراد الحوادث العلويّة والسفليّة.

فأخبرني ماذا يكون واكشفْ لثامَ هذا السرَّ المصون، على أنّه قائمٌ بك فهو من الحوادث لثبوت أنّ كلّ ما قام بالحادث حادثٌ، وإذا نظرتَ إلى قيامه بك أثبتَّ له العرضيّة ونفيت عنه الجسميّة، أو إلى شروقه وغروبه وحضوره عندك

(١) ذُباب السيف: طَرَفُه المُتَطَرِّفُ الذي يُضْرَبُ به، وقيل حَدُّه. (لسان العرب، ذبب)

(٢) قريب من بعض الأمثال. يقول الميداني «أسرع من البرق» و«أسرع من لمح البصر». انظر مجمع الأمثال: ٢/ ١٤٥ رقم ١٩٠٤.

(٣) «علي» في الأصل.

ومغيبه وعلمت أنّه يقطع في كلّ لحظة فلكَه ويُشرقُ فيك نظيره في الصورة والحركة علمت بأنّه نجم [٤٠ب] من النجوم وجسمٌ من الجسوم فنبّئني[١] بفصله وجنسه وجرّده من لباس لَبْسه، وأفضْ عليّ من بحر فضلك الوافر وأخبرني عمّا يخطرُ لك في الخاطر.

فقال: لقد فُقتَ كلَّ بليغ وبرّزت وصرّحتَ بمبهم لغزك في آخر ما ألغزت فلا نَضَبَتْ بداهتُك ولا ذهبت وجاهتُك، فقلت: أخبرني يا من هو زينة المُجالس والمَجالس عن موضع اللجام من فَرَس الفارس فقال: موضعها قربوس سَرْجها وإن شئتَ فمحروس فَرْجها، قال: وأنت فأخبرني عن مطيّة كالبرق أو كالبُراق، لا تَلحَق الجيادُ غُبارَها في حلبة السِّباق، تسير في الطول والعرض وترتفع في سيرها عن الأرض، قلبها ذهبٌ وراسها خشب، وزمامها في الذنب وهي حمّالة الحطب، تُردِف ألفَ راكبٍ ولا تعرف المطاعم ولا المشارب، ومن العجب أنّها تمشي على سَنامها في النور والظلماء، وترفعُ حالةَ سيرها قوائمَها نحو السماء، وتطيرُ مع الرياح بلا جناح، وتجمعُ بين الضبّ والنون وتحيضُ في كلّ حركة وسكون، كم ابتلعتْ آدميًّا في جوفها ولذا تراها دائمًا ترعدُ من خوفها، ومن كرامتها أنّها تمشي على الماء من غير قدم وتُنجي راكبها من العدم بالعدم، فاكشفْ لي عن حال تلك المطيّة الوطيّئة التي تُعَدُّ تارةً حسنةً وتارة خطيّئةً.

فقال: بسم الله مجراها ومرساها والله ما ألينها وأقساها، فهي من خوارق العادات [٤١أ] ومن آيات الله البيّنات، آيةٌ نوحيّة ومطيّة بحريّة، مع أنّها بنصّ القرآن جاريةٌ من الجواري الحسان وبنصّ الحديث سريرةٌ من أسرّة ملوك الزمان، وهي الآلة الحدباء ولكن ليس محمولُها إلّا الأحياء، فيا لها جاريةٌ افتضّ

(١) في الأصل "فنبّأني".

عذرتَها الخضرُ فحماها ممّن يأخذ الجواري غصبًا، ومطيّةٌ ركبها نوحٌ فقطع بها مسافة الأرض شرقًا وغربًا، ومن العجائب أنّ حملها يتكلّمُ في جوفها فتُسمعُه جميعَ أهلها، وأعجبُ من ذلك أنّها جاريةٌ عاقر وجميع من في الدنيا من بقايا حملها، وقد أبدعتُ لك في وصفها الإبداع واخترعتُ ما لم يسبقني إليه أحد من الاختراع، وكشفتُ عنها ما سترتُ به وجهها وراسها من اللثام والقناع.

فقلتُ: أدامك اللهُ للأدب تَرُمُّ منه ما وَهَنَ ووَهَى وتُعيد شبابَهُ إليه إذا انتهى، فأخبرني يا فحل الرجال ما خيرُ المال؟ فقال: أمّا عند أهل الدنيا فعينٌ ساهرة لعين نائمة[١] وإنْ شئت عين خرّارة في أرض خوّارة[٢]. وأمّا عند أهل الآخرة فخير المال ما أنفقه العبدُ في الطاعة سرًّا وجهرًا، فجلب به له أجرًا وشكرًا، وقدّمه للآخرة ليكون له ذخرًا، وأفناه فأبقاه وأماته فأحياه. فقلت: حسبي حسبي فقد ملأتَ بفوائدك إهابي ووطبي، وصرتُ كما قيل[٣] [من الرجز]:

امْـتَلأَ الحَـوْضُ وَقـالَ قَطْنـي مَهْـلًا رُوَيْـدًا قَـدْ مَـلأْتَ بَطْنـي

ولكن قد بَقِيَ لي سؤالٌ يتردّد في الضمير ويجولُ، وقد حاولتُ [٤١ب] صَرْفَهُ فوَجَدته لا يحول، فأنا أقدّم له رجلًا وأؤخّر أخرى، وأصبّره فأراه لا يستطيع صبرًا، لأنّني أستحيي منه وأُجِلّ جناب الشيخ عنه، ورَفعُ ما بيننا من الحجاب يغريني على ترك الآداب، فإنْ أذن الشيخُ أُبديه وإنْ أسأتُ الأدب وأتيتُ بما لا يليق، ومثلُ الشيخ حفظه الله تعالى بحرُ حلمه متّسعٌ عميق.

(١) هذا جزء من المثل «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» ويجوز أن يكون معناه عَيْنُ مَنْ يعمل لك كالعَبيد والإماءِ وأصحاب الضرائب وانتَ نائم. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٤٣٢ رقم ١٣٠٢.

(٢) «خير المال عين خرّارة في أرض خوّارة» مثلٌ أيضًا، انظر المصدر السابق.

(٣) بلا نسبة في: إصلاح المنطق: ٥٧. وتلخيص الشواهد: ١/ ١١١. وأمالي المرتضى: ٢/ ٣٠٩.

فقال: سَلْ عمّا بدا لك من غير توقّف فقد أسقط استحكامُ المودّة بيننا ثقلةَ التكلّف، فقلت له: إنّني سمعتُ الشيخَ قد حكم باختلال الدهر وفساده كما حكم بفساد نسله وأولاده، فقال: وما يمنعنُي من الحكم بتغيير الزمان وبنيه ومثلُ أبي ذرّ يقول في خير قرنٍ «أدركتُ الناس ثمرًا لا شوك فيه فأصبحوا شوكًا لا ثمر فيه»[١] ومثل أبي الدرداء[٢] يقولُ حين انهمك في طلب الدنيا شيخُها وكهلُها: «إنّ الدنيا قد استودقت[٣] واغتلم أهلُها». ومثل أبي هريرة يقولُ حين رأى تغيير تلك الرسوم: «إنّ ههنا علومًا» وأشار إلى صدره لو بثثتُها لَحُزَّ منّي هذا الحُلقوم[٤]. ومثل لبيد شاعرِ النبيّ العربيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم يقول[٥]: [من الكامل]

ذهــبَ الــذين يُعــاشُ في أكنــافهم وبقيــتُ في خَلْــفٍ كجِلْــدِ الأجــربِ

ومثل غيره من السلف يقول: «ذهب الناسُ وبقي النسناس»[٦] فأيّ شيء أنكرتَ منّي في ذمّ الزمان وبني الزمان وقد رأيتَ ما يُسَوِّغ الذمّ لمثلي، وليس الخبر كالعَيان[٧] وها أنا أقولُ كما قال الأوّل[٨]: [من الخفيف] [٤٢أ]

قيــلَ لــي قــد ذممْــتَ كُــلَّ البرايــا وهجــوتَ الأنــامَ هَجْــوًا قبيحــا
قلــتُ هَــبْ أنّنــي كــذبْتُ علــيهم فــأروني مَــن يســتحقُّ المــديحا

(١) انظر مداراة الناس: ٣١ بلفظ «أدركت الناس ورقًا لا شوك فيه فأصبحوا شوكًا لا ورق فيه».
(٢) أبو الدَّرْداء: هو عُوَيْمِر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي (ت. ٣٢هـ/ ٦٥٢م) صحابي من الحكماء الفرسان القضاة. انظر الأعلام: ٥/ ٩٨.
(٣) استودقت الفرسُ: أرادت الفحلَ. (الصحاح).
(٤) الحُلْقُوم: الحَلْق.
(٥) البيت للبيد بن ربيعة العامري. انظر ديوانه: ٥٧.
(٦) انظر المقاصد الحسنة: ٣٥٦.
(٧) هو قريب من المثل «لَيْسَ الخَبرُ كالمُعَايَنَة». انظر مجمع الأمثال: ٣/ ٩٥ رقم ٣٢٧٠.
(٨) البيتان لابن الرومي وهما في ديوانه: ٢/ ٥٦٩.

ووالله إنّي مع أهل عصري كما قالت حَذام: «فلَو تُرِكَ القَطا ليلًا لنام»[١] أو كما قال الآخر[٢]: [من الطويل]

ضَـفادعُ في ظَلْمـاءِ ليـلٍ تجاوَبَـتْ فـدَلَّ عليهـا صـوتُها حيّـة البَحْـرِ

فقلتُ له: أمّا ذمُّك لأهل عصرك فلا ألومُك على كثيره بل ألومك على قليله، ولا أصدُّكَ عن طريقه وسبيله بل أقول كما قال الأوّل[٣]: [من المديد]

لا أذودُ[٤] الطيـرَ عـن شَـجَرٍ قـد بلـوتُ المـرّ مـن ثمـرِهْ

وكما قال الآخر[٥]: [من المتقارب]

ولا تجـزَعَنَّ علـى أيكـة أَبَـتْ أنْ تُظلّـك أَغصـانُها

وكيف ألومُك على أمر أتيتُ بمثله وشاركتُك في فعله، أما ارتدعتُ بقول القائل[٦]: [من الكامل]

لا تَنْـهَ عـن خُلُـقٍ وتـأتيَ مِثْلَـه عـارٌ عليـك إذا فعلـتَ عظـيمُ

وقول الآخر[٧]: [من الطويل]

---

(١) انظر مجمع الأمثال: ٢/ ٧٦٤ رقم ٣٢٣٠ بلفظ «لو تُرك...» وليس «فلو تُرك». والمستقصى: ٢/ ٢٩٦ رقم ١٠٤٨.

(٢) تقدّم تخريج البيت.

(٣) لأبي نواس. انظر: المنتحل: ١/ ١٧٣. وزهر الآداب: ٢/ ٨٨٩. والعقد الفريد: ٣/ ٧٨. والدر الفريد: ١١/ ١٠٧.

(٤) «أزود» في الأصل.

(٥) نُسب لإسماعيل الشاشي في: التمثيل والمحاضرة: ١٢٦. والدر الفريد: ١٠/ ٤٤٩. ولإسماعيل الناشئ في: نهاية الأرب: ٣/ ١١٤.

(٦) يُنسب لأبي الأسود الدؤلي. انظر ديوانه: ٤٠٤.

(٧) البيت بلا نسبة في: المقاصد النحويّة: ٤/ ٩١٤. وشرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك: ٤٩٥. واللمحة في شرح الملحة: ٢/ ٨٧٩. وشرح ابن عقيل: ٤/ ٢٩.

وإنّـك مهمـا تـأتِ مـا أنـت آمـرٌ بـه تَلْـفَ مـن إيّـاه تـأمر آتيـا

ولكنّني ركبتُ الوعرَ لأتوصّل إلى أقوم المناهج، ورتّبتُ لك هذه المقدّمات لأصل بها إلى النتائج، وذلك أنّي أقول: إذا كنتَ عارفًا بفساد العباد وخراب البلاد، فما الذي [٤٢ب] ألجأك لركوب هذا الشِقّ؟[١] وكيف ترجّحَ عندك أنْ تخصّ برحلتك دمشق؟ وهل دمشق إلّا بلدةٌ من البلاد وهل أهلها إلّا من العباد؟ فكيف رجّحتها بلا مُرَجِّح واضح وأتيتَ بما لا يقبلُه النظرُ والعقل الراجح؟

فقال: بل لهذا عندي أكبرُ مرجِّح يقبلُه العقلُ ويؤيّده النقل، وتحسُّ به الحواسّ وتشهدُ به أفاضلُ الناس والأكياس، فقد ورد في الحديث ما يشير إلى أنّه إذا عمّ الأرضَ الفسادُ تكون دمشقُ خيرَ البلاد، وأنّها في آخر الزمن تكون للمؤمنين فُسطاطًا ومعقلًا وملاذًا وملجأ وموئلًا، وحسبك بهذا مرجّحًا لقصدها دون سائر المدن، وحاثًّا للملهوف أنْ يمتطي لها ظهورَ الخيل والبُدْن، وذلك لأنّها إحدى العروستين وخامسة مدائن الجنان وأحسن جِنان الدنيا وهي: نهر الأُبُلَّة[٢] وصُغد سمرقند[٣] وشِعب بوَّان[٤]، وقد قال أهلُ الاستقراء والتجربة من حكماء الأمم: إنّ الخَطْبَ إذا كان في الدنيا فوق العنق يكون في دمشق تحت

(١) «هذ الشِق» في الأصل.

(٢) الأُبُلَّة بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة وهي أقدم من البصرة. قال الأصمعي في جنان الدُّنيا أنّها ثلاث: غُوطة دمشق ونهر بَلْخ ونهر الأُبُلَّة. انظر معجم البلدان: ١/ ٧٦.

(٣) صُغد سمرقند هي قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى لا تبين القرية حتى تأتيها لالتحاف الأشجار بها وهي من أطيب أرض الله، كثيرة الأشجار غزيرة الأنهار متجاوبة الأطيار. انظر معجم البلدان: ٢/ ٤٠٩.

(٤) شِعبُ بَوَّان بأرض فارس بين أَرَّجان والنُّوبَنْدَجان، وهو أَحد متنزهّات الدنيا. انظر معجم البلدان: ١/ ٥٠٣.

القدم، وهذا أمرٌ من أنكره كذّب الحسَّ والواقع، وكان كمن أنكر نورَ الشمس وانتشار الفجر الطالع.

ومن خصائصها أنّ ساكنها ترقُّ طباعُه وإنْ كان جافيًا، ويتكرّمُ بما عنده ولو كان جائعًا حافيًا، ويظهر فضلهُ وإنْ كان خافيًا، ويجدُ فيها ذيولَ الإنعام والإمداد، ولا يستحسن بلدًا غيرها ولو كان ذاتَ العِماد.

فقلت[١] [٤٣أ]: لقد وَضُحَتْ حُجَّتُك واتّضحت مَحَجَّتُك، ولكن هل نويتَ أنْ تجعل كبيرًا من أهلها بحرًا لوردك ووجهًا لقصدك؟ فقال: نعم تخيّرتُ خيرَ أهلها وفاءً وأكثرَها حياءً وأغزرها حِباءً، وأكبرَها جاهًا وأعظمها قاهًا[٢]، وأطولها نجادًا وأرفعها عمادًا، وأجملها صورةً وأحسنها سريرةً، وأنورها بصيرةً، وأدمثها أخلاقًا وأسناها إشراقًا، وأرفعها هممًا وأكثرها كرمًا، وأشجعها قلبًا وأذكاها لبًّا، وأرقّها طبعًا وأنضرها فرعًا، وأجملها صبرًا وأطيبها ذكرًا وأصفاها فكرًا، شعر[٣]: [من الوافر]

إذا حضــرَ الشــتاءُ فــذاك شــمسٌ وإنْ حضــرَ المصــيفُ فــذاك ظــلُّ

من شاع معروفُه وذاع حتّى تعلّقتُ به على السماع، فأنضيتُ في قصْده الرِكابَ وكابدت العِقاب في قطع العقاب[٤]، والرجا في الله تعالى أنْ لا أكون كوافد البراجم[٥] ولا كأحد القارِظَين[٦] وأنْ أرجع منه بقرطي مارية لا بِخُفَّي

(١) كلمة مكررة في الأصل.
(٢) القاه: الجاه والسلطان. (لسان العرب، قيه)
(٣) نُسب لأبي العتاهية في: البصائر والذخائر: ٣/ ١٧٠. وبلا نسبة في التمثيل والمحاضرة: ٢٢٨. والعقد الفريد: ٦/ ١٩٤.
(٤) عِقاب: جمع عقبة. وهي الطريق الوعر في الجبل. (لسان العرب، عقب)
(٥) تقدّم تخريجه.
(٦) تقدّم تخريجه.

حنين[١]، فقلتُ له: أرجوك يا من حَلِيَ الوجودُ بدرر نثره وعقود نظمه أنّك كما شنّفت آذاني بصفات ذلك الكريم أن تشنّفها باسمه، فأنشأ يقول[٢]: [من الوافر]

ولـيس يصـحُّ في الأذهـان شـيءٌ إذا احتـاجَ النهـارُ إلـى دليـلِ

وهل يُخفى القمرُ المنير وكيف لا يُكتفى من المسك بما فاح منه من العبير؟ هو والله الجوادُ المُضَمَّر والأسد الضاري الغَضَنْفَر، جناب درويش آغا الشهير بابن جعفر[٣] أبقاه الله تعالى لحرٍّ يريش جناحَه وكريم يأسو جراحَه، وأدب يُتلا في رَمْقِهِ[٤]، ودهر يهذّب طبعَه ويحسّن خلقَه، وحمدٍ يشريه ومجد يبنيه، [٤٣ب] في زمان تجمّلَ بجماله وخلا من أمثاله وأشكاله.

فقلت: بخٍ بخٍ تالله لقد أحسنتَ الاختيار وهُديت إلى كنز المعروف والدرّ المختار، وأشرت إلى كريمٍ جمع محاسنَ الورى وفريدٍ يقول من اختبره: «كلّ الصيد في جوف الفرا»[٥] ولقد أصبتُ ثمرةَ الغُراب[٦] ودُرّة العُباب، فأرخِ يديك واسترخِ إنّ الزناد من مرخ[٧]، وأبشر بنُجْحِ المطلب وبلوغ المأرب[٨] فإنّه الفرعُ

(١) من المثل «عاد بخُفَّي حنين» يُضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة. انظر مجمع الأمثال: ٢/ ٤٠ رقم ١٥٦٨. والمستقصى: ١/ ١٠٥ رقم ٤١٩.

(٢) البيت للمتنبّي. انظر ديوانه: ٣/ ٩٢.

(٣) لعله درويش بن عبد الله الحنفي الدمشقي أغت اليرلية. انظر سلك الدرر: ٢/ ١٠٧.

(٤) الرَمْق: النظر، والمقصود تحت نظره وعنايته. وقد يُقرأ «وأدب يتلافى رَمَقَهُ».

(٥) هو مثل يُضرب في الشخص الذي يقوم مقام الكثير لعظمه. انظر مجمع الأمثال: ٣/ ١١ رقم ٣٠١٠. والمستقصى: ٢/ ٢٢٤ رقم ٧٥٦.

(٦) يقولون: وَجدَ ثمرَة الغراب، وذلك أنّه يتّبعُ أجودَ الثمر فينتقيه. (تاج العروس).

(٧) «أرخِ يديك واسترخِ إنّ الزناد من مرخ» مثلٌ يُضرب للرجل يطلب الحاجة إلى كريم فيُقالَ له: لا تتشدّدْ في طلب حاجتك فإنّ صاحبك كريم. انظر مجمع الأمثال: ٢/ ٣٨ رقم ١٥٦١. وجمهرة الأمثال: ١/ ١٧٣ رقم ١٨٧.

(٨) «الأرب» في الأصل.

المهذَّب والعُذَيْق المُرجَّب والمُرَهَّق[١] المضياف والمِخلاف المتلاف، جوادٌ له رُفود[٢] تملأُ الرَّفود[٣] وتكفي الوفود وتعمّ الأيقاظ والرقود، كيف لا وهو أجرأ من أسامة[٤] وأبصر من زرقاء اليمامة[٥] وأجمل من ذي العمامة[٦] وأكرم من كعب بن مامة[٧] وأحمى من مُجير الجراد[٨] وأكبر همّةً ممّن لبس من الخلفاء السواد فجليسه جليس قعقاع بن شور[٩] وجاره جار أبي دواد[١٠].

قد جمع الصفات الستّ التي تَقَرُّ بها العيونُ، وقال العارف المحاسبي[١١]:

(١) المُرَهَّق: الكريم الجَواد.
(٢) الرُّفود: العطايا والصلات.
(٣) الرَّفود: الأقداح.
(٤) أسامة بن زيد بن حارثة (ت. ٥٤هـ/ ٦٧٤م) صحابي جليل. انظر الأعلام: ١/ ٢٩١.
(٥) زرقاء اليمامة (تاريخ وفاتها غير معروف) امرأة جاهليّة من بني جديس. انظر الأعلام: ٣/ ٤٤. و«أبصر من زرقاء اليمامة» مثل يُضرب في حدّة البصر، انظر مجمع الأمثال: ١/ ٢٠٠ رقم ٥٧٤. والمستقصى: ١/ ١٨ رقم ٥٣.
(٦) ذي العمامة هو سعيد بن العاص بن أمية (ت. نحو ٣هـ/ ٦٢٤م) من سادات أمية في الجاهليّة الذي تقدّم تعريفه. وهو مضرب المثل في الجمال بحيث إذا خرج لم تبق امرأة إلّا برزت للنظر اليه. انظر الأعلام: ٣/ ٩٦. ومجمع الأمثال: ١/ ٣٣٥ رقم ١٠٠٣. والمستقصى: ١/ ٥٢ رقم ١٩٢.
(٧) كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإياديّ (تاريخ وفاته غير معروف) كريم جاهليّ يُضرب به المثل في حسن الجوار والكرم. انظر الأعلام: ٥/ ٢٢٩. ومجمع الأمثال: ١/ ٣٢٧ رقم ٩٧٨ بلفظ «أجود من كعب بن مامة».
(٨) مجير الجراد هو مدلج بن سويد الطائي الذي حما جرادًا هبط في فنائه من قومٍ من بني طي. ويُضرب به المثل في الإجارة. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٣٩٣ رقم ١١٨٤.
(٩) قعقاع بن شور الذهلي (تاريخ وفاته غير معروف) تابعي من الأجواد في عصر معاوية بن أبي سفيان ويُضرب به المثل في حسن المجاورة. انظر الأعلام: ٥/ ٢٠١. ومجمع الأمثال: ٣/ ٢٠٢ رقم ٣٦٦١.
(١٠) أبو داود كنية كعب بن مامة. انظر الأعلام: ٥/ ٢٢٩.
(١١) الحارث بن أسد المحاسبي (ت. ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م) عالم بالأصول والمعاملات من أكابر الصوفية. انظر الأعلام: ٢/ ١٥٣.

«إنّ جمْعَها في شخص يعزّ بل قد لا يكون» وهي: حسنُ وجهٍ[١] مع صيانة وحسن خلق مع ديانة وحسن إخاء مع أمانة، يخبرُك نصلُه عن جوهره ومنظرُه عن مَخبره، فهو الهمامُ العبقريّ الفائق في المرتبة والحسن المشتري، كأنّه في دمشق بيضةٌ في روضة أو زهرةٌ في غيضة، نضيرُ الثياب غضير الشباب، فهو شرطُ النبيّ إذ قال حقًّا: «اطلبو الخيرَ من حسان الوجوه»[٢] كما قلت فيه سابقًا: [من الطويل]

لقد دَلَّنا ما حازَ من حُسْنِ صورةٍ على أنّه المسعودُ والعَلَمُ الفردُ
كما دلّ ما في المشتري من ملاحةٍ وحسنٍ وإشراقٍ على أنّه سَعْدُ [٤٤أ]

خطابه أحسنُ خطاب وأحلى من عِذقِ ابن طاب[٣]، قد ملك السياسة واستكمل شروط الرياسة، التي منها علوُّ الهمم وغرسُ الرجال في رياض الكرم، كما قيل[٤]: [من المتقارب]

فشَرْطُ الفِلاحةِ غَرْسُ النباتِ وغَرْسُ الرياسة غَرْسُ الرجالِ

ولقد ظفرتَ أيّها الشيخُ فاغتبطْ وأكرمتَ فارتبطْ، فإنّما يُحْمَلُ الكَلُّ على أهل الفضل، كما قيل[٥]: [من الكامل]

إنّ الكبارَ أطبُّ للأوجاع

(١) في الأصل "وجهه" ولعلّ ما أثبتناه أقرب إلى مقتضى السياق والتركيب.
(٢) تقدّم تخريجه.
(٣) عِذْقُ ابن طاب ضربٌ من التمر.
(٤) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: ديوانه: ١٥٠. والمنتحل للثعالبي:١١٣. والتمثيل والمحاضرة: ١٢٧.
(٥) البيت لأبي الفتح البستي ومطلعه: «لا تعتمدْ إلّا رئيسًا فاضلًا». انظر ديوان البستي: ٢٦٧. والتمثيل والمحاضرة: ١٨٣. ويتيمة الدهر: ٤/ ٢١٤.

وقال آخر[١]: [من الرجز]

إنّ العظـــيمَ يحمـــلُ العظيمـــا كمـــا الجســـيمُ يحمـــلُ الجســـيما

وقد حُكي أنّ بعض الناس زار كبيرًا راجيًا فضلَه ومؤمّلًا، فلمّا كلّمه قال له: إنّي قد جئتُك في حويجةٍ فقال له الكبيرُ: اطلب لها رُوَيْجِلًا. وحُكي عن معاوية لا زالت سحب الرضوان على قبره تَهْمِي أنّه كان يقول: «والله إنّي لآنفُ أنْ تكون في الأرض حاجةٌ لا يسعها مالي أو ذنبٌ لا يسعُه حلمي». وحُكي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنه وزاد في كرامته أنّه كان يقول: «من قصدني كان له الفضلُ عليّ حيث رآني أهلًا لحاجته». فإيّاك أيّها الشيخ أنْ تكون جُنديًّا بل كنْ جُنَيْديّ، واعلم بأنّ من قصدتَهُ زيدُ الخير[٢] وغيرُه المعيديّ[٣]، فمَن أمَّ سواه فقد غرّه اليلمع وسيعود إلى عضّ الأصبع وقت اليرمع[٤]، لأنّه الذي تُفاخر دمشقُه بغدادَ[٥] أو مصرا، وفي المثل: «جاور ملكًا أو بحرًا»[٦] فالحازم من أدبر عن الكسل [٤٤ب] وأعرض وتعرّض للطبيب قبل أن يَمْرَض قال الراجز[٧]: [من الرجز]

(١) البيت لابن الهبّارية. انظر الصادح والباغم: ٤٩. وخزانة الأدب: ١/ ٢٠٩. ونفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن: ١٥٩.

(٢) زيد الخير هو زيد بن مهلهل (ت. ٩هـ/ ٦٣٠م) أحد أبطال الجاهلية لُقّب «زيد الخيل» لكثرة خيله وكان من أجمل الناس. انظر الأعلام: ٣/ ٦١.

(٣) من المثل «تسمع بالُمَعْيِديِّ خير من أن تراه» وهو يُضرب لمن خَبَره خيرٌ من مرآه. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٢٢٧ رقم ٦٥٥.

(٤) وقت اليرمع: وقت الندم. واليرمع الحصا البيض، وهي حجارة فيها رخاوة. ويُضرب به المثل للمغموم والنادم على شيء: «تركته يَفُتُّ اليَرْمَع». انظر مجمع الأمثال: ١/ ٢٣٣ رقم ٦٦١.

(٥) «بغدد» في الأصل.

(٦) هذا المثل معناه أن الغنى يُوجَد عندهما ويُضرب في التماس الخِصْب والسَّعَة من عند أهلهما. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٢٠٠ رقم ٨٩٤. والمستقصى: ٢/ ٤٩ رقم ١٨٣.

(٧) البيت بلا نسبة في الدر الفريد: ٢/ ٢٧٣. وانظر مجمع الأمثال: ١/ ٨٧ رقم ٢١٢. والمستقصى: ١/ ١٢٢ رقم ٤٧٩. والمثل يُروى «إذا أردت عملًا فخُذْ فيه» أي إذا بدأتَ بأمرٍ فمارِسْهُ ولا تَنْكُلْ عنه فإن الخيبة في الهيبة. يُضرب في الأمر باستفراغ الجهد فيما يخاض فيه.

إذا أردتَ عمـــلًا فقـــعْ فيـــه فإنّمـــا خيبتُـــه تَوَقّيـــهْ

ولا عارَ على الأرض أنْ تطلبَ غيثَ السماء، ولا على البدر أنْ يستمدّ النور من ذُكاء[1]، وأُقسم بالله الذي قسمَ الرزقَ أنّني لولا هذا الجواد ما سكنت دمشق، لأنّي لم أجد فيها من أسعفني غيرُه، مع فساد الوقت ومشقّة الغربة، ولا من وفّى سواه حقَّ الأُخُوَّة والصحبة. وسأحدّثك ببعض أخباره الصحيحة وآثاره الجميلة المليحة، فأقول: إنّ الله تعالى لمّا ابتلاه بما يبتلي به صالحي الرجال من ذهاب الأملاك والأهوال، كتبتُ إليه أسلّيه بقولي: [من المتقارب]

إذا الأمـــرُ ضـــاقَ عليـــك اتّســـعْ فمـــمَّ الأســـى وعـــلامَ الجـــزعْ؟
ومـــن سَـــلِمَتْ نفسُـــهُ فليطِـــبْ وإنْ فـــرّق الـــدهرُ مـــا قـــد جَمَـــعْ
ومـــا المـــالُ إلّا كشَـــعرِ الجُسُـــو مِ إذا جُـــزَّ عـــاد لنـــا واجتمـــعْ
وكالمـــاء يومًـــا تـــراه يغـــو رُ جميعًـــا ويومًـــا تـــراه نبَـــعْ
ومـــا جـــوهرُ الســـيفِ في حَلْيِـــهِ ولكـــنَّ جـــوهرَه مـــا قطـــع
وكـــم عَـــرِيَ الجســـمُ ثـــمّ اكتســـى وكـــم كوكـــبٍ خَـــرَّ ثـــمّ ارتفـــع [٤٥أ]
وكـــم جـــذبَ الـــدهرُ حبـــلَ الكـــرا مِ فـــرقَّ ولكنَّـــه مـــا انقطـــع
ومـــا للإهانـــة حَـــبْسُ الهَـــزا رِ ولكـــنْ لصـــوتٍ بـــه يُنتفـــع
وكـــم أُدخِـــلَ التِّبْـــرُ نـــارَ الســـعير فطـــابَ ومقـــدارُه مـــا اتّضـــع
فيـــابن المهـــذّبِ مـــن جعفـــرٍ ويـــا فخـــرَ أيّامـــه لا تُـــرَعْ
فثـــوبُ التجلّـــدِ لـــبْسُ الرجـــا لِ كمـــا أنّ لـــبسَ النســـاء الهَلَـــع
وأنـــت خبيـــرٌ بلـــؤمِ الزمـــا نِ وأنّ مواهبَـــه تُرتجـــع
ولا يُـــنقِصُ العـــينَ فـــرطُ القـــذا ولا يَخفـــض الـــرأسَ فَـــرطُ الوجـــع

(١) اسم للشمس.

وكـــلّ فتًـــى عاقـــلٌ كامـــلٌ نبيـــه يـــرى الخيـــرَ فيمـــا وقـــع
فأفعـــــالُ خالِقِنـــــا حكمـــــةٌ ســـواءٌ أعطـــى الـــورى أم منـــع
وأصـــلُ فِعـــال الـــورى فعلُـــه تعـــالى فتلـــك لهـــذا تَبَـــع
فيَمِّمْـــه وارجـــعْ إلـــى قصـــده فما خـابَ عبـدٌ إليـه رجـع [٤٥ب]
وقِـــفْ بانكســـارٍ علـــى بابـــه وكُـــنْ قـــارعَ البـــابِ فـيمن قـرع
فعمّـــا قريـــبٍ تـــرى فجـــرَ مـــا تُؤَمِّـــلُ مـــن فضـــله قـــد طلـــع
وعشْ في السرور مدى[1] الدهر ما هَـــزارٌ علـــى عُـــودِ روضٍ ســـجع

وكتبتُ إليه أيضًا: [مجزوء البسيط]

قـــلْ للحبيـــب الـــذي هـــواه في كـــلِّ جســـمٍ كـــالروح ســـاري
لـــك تَخـــذي ركابنـــا ثـــمّ تُزجـــى في العســـرِ واليســـرِ لليَســـار
صـــبرًا جمـــيلًا فســـوف تبـــدو بعـــد الـــدجى طلعـــةُ النهـــار
فكـــلّ غـــمٍّ إلـــى انحســـار وكـــلّ عـــال إلـــى انحـــدارِ

فلمّا قرأ أبياتي الحسان لم يمنعه ما هو فيه عمّا عوّدنيه[2] من الإحسان، بل زاد في الجائزة على عادته ووفّى شروطَ سيادته، وهكذا فلتكن الرجالُ فالحرّ يجود مع الضرورة والإقلال كما أنَّ الجواد يجري مع شدّة ما فيه من الكَلال والهُزال، والسيف يقطعُ مع ما فيه من الانفلال، ولمّا رأيتُ وُفور جائزته السَّنِيَّة مع حالته التي تعجزُ عن حملها شوامخُ الجبال العليَّة، ووجدتُ فيه تجلّدَ الأسود وهمّة الفهود وعزم اليعسوب وصبر أيوب، مقتديًا بقول الشاعر[3]: [من الكامل]

(١) «مد الدهر» في الأصل.
(٢) «عودينه» في الأصل.
(٣) البيت بلا نسبة في فتح الباقي بشرح ألفيّة العراقي: ١/ ١٩٩. وهو في مغني اللبيب مع اختلاف في الشطر الأوّل، «استغنِ ما أغناك ربُّك بالغنى» وقد عزاه محقّق الكتاب لعبد قيس بن

وإذا تُصِبْكَ مصيبةٌ فاصبر لها وإذا تُصِبْكَ خصاصةٌ فتجمّلِ

[٤٦أ] كتبتُ إليه أقول: [من الكامل]

قالوا ابنُ جعفرَ لم يُرَعْ من حادثٍ جَلَلِ فقلتُ: وحجّتي لم تُنْقَضِ
أيضيقُ مَن وسِعَ الزمانَ وأهلَه صدرًا بحادثةٍ تمرُّ وتنقضي

ولعمري ما المصيبة ذهابُ المال، وإنّما المصيبة ذهابُ التجمّل عند المصيبة من الرجال، كما قال الشاعر(١): [من الطويل]

ولا عارَ إنْ زالتْ عن الحرّ نعمةٌ ولكنَّ عارًا أنْ يزولَ التجمّلُ

ثمّ بعد برهة اعتراني مرضٌ امتدّ زمانُه وطال، حتّى انقطعتْ من حياتي الآمال، فلم أرَ فيه من صديق بَصَلَة ولم يَعُدْني عائدٌ بصِلَةٍ، فلمّا بلغه مرضي كان أسرعَ قاصدٍ وأكرمَ وارد، ثمّ سلّم عليّ ووضع منحتي بين يديّ وقال لي: هذه الصِّلة وأنا العائد، فتأمّلْ لطافةَ قوله وفعله وحسنَ أخلاقه الدالّةِ على كرم أصله، وما ذكرتُه حسنةٌ من حسناته وقطرةٌ من بحر صفاته، كما قيل(٢): [من المنسرح]

ذا بعضُ ما قد حوى وقد بَقِيَتْ له صفاتٌ لم يُحصها العددُ

فالله تعالى يُبقيه غيثًا للأنام وغوثًا من حوادث الأيّام، وحجّةً تكذّبُ من قال مات الكرام فإنّي ألتذُّ بذكره كما يلتذُّ النديمُ بالراح والظمآن بالماء القَراح، كما

خفاف أو حارثة بن بدر: ٢/ ٧٥. وكذلك في خزانة الأدب: ٤/ ٢٤٤. وهمع الهوامع: ٣/ ١٨٠. ونُسب لقيس بن خفاف في الأصمعيّات: ٢٣٠. والمفضّليّات: ٢٨٥.

(١) البيت لعليّ بن الجهم. انظر ديوانه: ١٦٣. وانظر أدب الدنيا والدين: ٣٤٠. وخاص الخاص: ٩٣.

(٢) نُسب لغلام أبي عثمان الخالدي في: ثمار القلوب: ٢٢٩. وربيع الأبرار: ٣/ ٣٥٧. والشكوى والعتاب: ٥٥. ونُسب إلى سعيد بن هشام الخالديّ في: معاهد التنصيص: ١/ ٦٠. والمحاضرات والمحاورات: ٢٣٢. والوافي بالوفيات: ١٥/ ١٦٤.

قلتُ فيه سابقًا: [٤٦ب] [من البسيط]

يلـذّ ذكـرُكَ لـي حتّـى أعـافَ بـه ... طِيْبَ الغِذاءِ وشُرْبَ الباردِ الشَبِمِ
ولـيس بِـدْعًا إذا مـا لـذّ ذكـرُك لـي ... فطعـمُ ذكـرُك معسـولٌ بكـلّ فـمِ

وقلتُ أيضًا فيه: [من الكامل]

ولقـد ذكرتُـكَ والعيـالُ تسـومُني ... مـا لا أُطيـقُ لشـدّة الإفـلاسِ
والبُـرُّ عنـدي أَجْـدَبَتْ حقلاتُـهُ ... منـهُ وأَخْصَـبَ عنـد كـلّ النـاسِ
فوجـدتُ مـن ذكـراك حـالًا سكّنتْ ... قلبـي إلـى أنْ عـدتُ أغنـى النـاسِ

فلمّا سمعها أرسل لي بِرَّهَ وبُرَّه وتابع عليّ من سحاب قطره، فكتبتُ إليه: [من الكامل]

للخيـر أهـلٌ بـالقرائن تُعلـمُ ... تبـدوا فيعـرفُهم بهـا المتوسِّـمُ
فهـمُ الجيـادُ لـدى السباقِ لها على ... كـلّ الهِجـان مـع الهُـزال تقـدُّمُ
وسِـوَاهمُ البِـرْذَون يزهـي مُسْـرَجا ... لكنّـه عمّـا يسُـرُّك مُلْجَـمُ
لا يقطعـون رجـاءَ عـافٍ أَمَّهُـمْ ... بل يؤثرون على النفوسِ ويكظموا [٤٧أ]
سيما الجـوادِ البرمكـيّ أخـو النـدى ... أعنـي ابـنَ جعفـرَ مَـن نـداه مُعَمَّـمُ
بطـلٌ نـداه صـحيحةٌ أخبـارُه ... مُتَـواتِراتٌ كـم رواهـا مسـلمُ
ولكَـم بـدا في محفـل مـن قومـه ... كالزِّبْرقـان بـه تَحَـفُّ الأنجـمُ
فـإذا الكـريمُ مُبَخَّـلٌ وإذا العليـ ... ـمُ مجهَّـلٌ وإذا الفصـيحُ الأبكـمُ
والمجـدُ ثـوبٌ زانَ كـلَّ مهـذَّبٍ ... في عصـرنا وهـو الطـرازُ المُعلَـم
وربيـعُ جعفـرَ فضـلُه يحيـى بـه ... ميْـتُ الرجـا ونـدى سـواه مُحـرَّمُ
والجـوُّ يَسـمَحُ عابسًـا وبنانُـه ... تَهَـبُ الألـوفَ وثغرُهـا يتبسّـمُ
مـولىً، هِبـاتُ نوالِـه شـاعتْ وإن ... سُـتِرَتْ وكانـت في المـلا تتكـتّمُ

لا قــدْرَ للــدينار عنــد يمينــه بــل تزدريــه كأنّمــا هــو درهــمُ
فلــذاك أصــبح في العيــون معظَّمًــا فخمًــا كمــا هــو في النفــوس مُعظَّــمُ
فــاتركْ مجادلــةَ العِــدا إنْ أنكــروا أفضــالَه فالفضــلُ عنه يــترجِمُ [٤٧ب]
والشمسُ شمسٌ ليس يذهبُ نورُها مــن سُــحبها ذاك الحجــابُ الأعظــمُ
أفديــه ممــدوحًا جميــلُ صــفاتِه وســماتِه يُعيــي البليــغَ ويُفحِــمُ
يــا أيّهــا المــولى الــذي أهــدى لنــا بُــرًّا وبِــرًّا لــيس يَنعَتُــه فــمُ
أحييــتَ قلبًــا مــات غمًّــا مثلمــا أَخمَــدتَ نــارًا في الحشــا تتضــرّمُ
فلأَحْمَــدَنَّكَ مــا حييــتُ وإنْ أَمُــت فلتحمَــدَنَّكَ بعــد مــوتي الأعظــمُ
ولأَبْــذلَنَّ لــك الــدعاءَ مواظبًــا لا ســيّما والليــلُ داج مُظلــمُ
فاسْــلَمْ ودُمْ في العــزّ مــا بربيــرُكم أمســى بمــدحك للقصــائد يختــمُ

فلمّا سمع الشيخُ وصفَ ذلك الجواد وما خصّه الله به من المزايا دون العباد، طفقَ يتململُ ويتأوّل ويتأوّه ويتنهّد ثمّ قال: يا لهف قلبي على هديّة تليقُ بقدره وإنْ كان يجلّ مقامُه عن إهداء الكونِ له بأَسْره، فقلتُ: لا تُرَعْ ولا يداخلُك الجزع، فأنفَسُ الهدايا عند صاحبك جواهرُ الآداب اليتيمة لا سيّما إذا كانت منظومةً، فإنْ أردتَ فامتدحه بقصيدة [٤٨أ] من جواهر كلمك المستخرجةِ من بحار حِكَمِك، فقال سبحان الله وأنشد[١]: [من الوافر]

ومــاذا تبتغــي الشــعراءُ منّــي وقــد جــاوزتُ حــدَّ الأربعــين

فقلتُ: شيخٌ له همّةُ الشباب وفي المثل «نابٌ وقد تقطعُ الدَّوِّيَّةُ النابَ»[٢]

(١) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي. انظر: الأصمعيّات: ١٩. وحماسة البحتري: ٥١. وإصلاح المنطق: ١٥٦. وخزانة الأدب: ١/ ٢٦٠. وتذكرة النحاة: ٤٨٠. وبلا نسبة في المقتضب: ٣/ ٣٣٢. والأشباه والنظائر: ٧/ ٢٤٨.

(٢) هذا المثل يُضرب للمُسِنِّ وقد بقيت منه بقية يصلح أن يعوّل عليها. انظر مجمع الأمثال: ٣/ ٣٧٥ رقم ٤٢٠٣. والمستقصى: ٢/ ٣٦٥ رقم ١٣٤٦.

ومن كلام الألمعيّ «زاحمْ بِعَودٍ أو دَعِ»[١] فقال: أوما علمتَ أنّ نجمَ الشعر قد أفل وجاءاني الغزالةُ[٢] والغزل[٣]، وقد جال الزمانُ على الأفكار بسيف خَطْبه الطويل العريض حتّى حالَ الجريضُ دون القريض[٤]، وعصفت رياحُ البخل فقصفت بيوت الأشعار فلم تدع لها عينًا ولا أثرًا من الآثار، فأسقطَتْ عمادَها وقطعت أسبابها وقلعت أوتادها وغوّرت بحورها وكسفت شموسها وبدورها، وقرّضت قريضها وسدّت عروضها، وكسرتْ ميزانَها ونزعت فواصلها وأركانها، ولم يبقَ بها أنيسٌ إلّا اليعافيرُ والعِيْسُ.

فقلت له: ها أنت قد وجدتَ أسبابها وصادفتَ أربابها، فهلمّ ينظمُ كلٌّ منّا له قصيدةً يجعلُها من هداياه[٥] ويقدّمها يبن يديّ نجواه، فنهض وجلس عنّي غير بعيد ثمّ أقبل وقال: اسمع منّي هذا القصيد، ثمّ أنشأ يقول: [من المتقارب]

سُلِبنا خَوَرْنَقَنا والسديرا وبتْنا من المحلِّ نرعى البريرا

(١) هذا المثل معناه أن لا تستعن إلّا بأهل السِّنّ والتجربة في الأمور. انظر مجمع الأمثال: ٢/ ٨٣ رقم ١٧٢٧. وهو في الأصل «زاحم بعَوُدٍ أو دَعِ».

(٢) لعلّ المقصود غزالة الحروريّة زوجة شبيب الخارجيّ التي حاربت الحجّاج حولًا كاملًا حتّى غلبته.

(٣) لعلّ المقصود بالغزل هنا الفتور وهو مأخوذ من فتور الكلب عن اللحاق بالغزالة. (لسان العرب، غزل).

(٤) «حالَ الجريضُ دون القريض» مثلٌ يُضرب للأمر يقدر عليه أخيرًا حين لا ينفع. والجَرِيض: الغُصَّة من الجَرَضِ وهو الريق يُغَصّ به، يقال: جَرِض بريقه يجْرَضُ وهو أن يبتلع ريقَه على همّ وحزن، يقال: مات فلان جَرِيضًا أي مغمومًا. والقَرِيض: الشِّعْرُ وأصله جِرَّةُ البعيرِ. وحال: مَنَع. وأصل المثل أن رجلًا كان له ابن نَبَغ في الشعر، فنهاه أبوه عن ذلك، فجاش به صَدْرُه، ومَرِض حتى أشرف على الهلاك فأذِن له أبوه في قول الشعر، فقال هذا القول. انظر مجمع الأمثال: ١/ ٣٤١ رقم ١٠١٧.

(٥) «هدياه» في الأصل.

فيا ليتني لم أكنْ شاعرًا ... وكنتُ بهيمًا لأرعى الشعيرا
ويا سوءَ دهري تمنّى الجوادُ ... به أنْ يكون يساوي الحميرا
زمانٌ تعسّفَ حتّى غدا ... يَحُطُّ الكبيرَ ويُعلي الصغيرا
فكم أسدٍ فيه من جوعه ... تراه يُداهنُ كلبًا عَقُورا
تبيدقَ فرزانُه[1] عندما ... تفرزن بيدقُه مُستطيرا
وقد هاضَ ظلمًا جناحَ العُقا ... بِ وهمَّ الدجاجُ به أنْ يطيرا
وأضحى الهزارُ به ساكتًا ... وأكثرتِ البومُ فيه الصفيرا
وأمسَتْ عناكبُهُ في المَلا ... تباهي بما غزَلتْهُ الحريرا
زمانٌ علا فيه شخصُ القتامِ ... فأخفى كواكبَه والبدورا
أبادَ الصدورَ وأبقى لنا ... أناسًا تُضيّقُ منّا الصدورا
فكان المصابُ بهم فوق مَن ... أُصِبنا بهم حين حلّوا القبورا
فيا لهفَ قلبي على فِتْيَةٍ ... لدى الفضلِ والبذلِ كانوا بحورا
وكانوا ظلالًا لحَرِّ الخطو ... بِ وعند المخاوفِ حِصْنًا وسُورا
وكانوا يواسوننا في الغنى ... دوامًا فلم تَرَ فينا فقيرا
فما تركَ الدهرُ فيهم سوى ... محامدَ في الكتب أمستْ سطورا
ولم نرَ أُمَّ الندى بعدهم ... أتتْ بنجيبٍ يُعيد السرورا
سوى ابن الفتى جعفرِ الخير من ... غدا في دمشقَ الأميرَ الكبيرا

(١) مكتوب «فرسانه» في المخطوطة ولكن صحّحه الناسخ في الهامش. وفِرْزانُ الشِّطْرَنْجِ: معَرَّبُ فَرْزِينَ وهو بمنزِلة الوزيرِ للسُّلطان. (تاج العروس). بيدق أو بيذق: جندي الشطرنج. ولقد اشتقّ ابنُ الهبارية الفعل تبيذق من بيذق بمعنى صار بيذقًا كما اشتقّوا تفرزن من فرزان أي صار فرزانًا. انظر تكملة المعاجم العربيّة: ١/ ٤٩٧. ومن أمثالهم في الصغير يتكبّر: تفرزن البيدق. انظر خاص الخاص: ٦٢.

أميـــرٌ مهابتُـــه لـــم تَـــدَعْ ... لأُسْـد الشَّـرَى في الفيـافي زئيـرا
فكـم خـاضَ بحـرًا علـى سـابح ... كُميـتٍ يبـاري الصَّـبا والـدَّبورا
وكـم سـلّ سـيفًا علـى جحفـلٍ ... فكـان كمـا الطـوقُ زانَ النحـورا
فللّـــه منـــه فتًـــى، عصـــرُه ... بـــه لا يـــزالُ يُبـــاهي العصـــورا
فتًى قـد حـوى مـع صـفاتِ الكمـا ... لِ جمـالًا عـلا الشـمسَ قـدْرًا ونـورا
تـــرى ذاتَـــه روضـــةً أخصـــبتْ ... وتُبصِـــرُ مـــن راحتيـــه غـــديرا
وإنْ زرتَـــــه في حِمَـــــى داره ... رأيـتَ نعيمًـا ومُلكًـا كبيـرا [٤٩أ]
فَلَـــمْ تَـــرَ في عصـــرنا مُقلـــةٌ ... لـــه في كمـــالِ المعـــاني نظيـــرا
فـــلا تنظـــرنَّ لشـــخصٍ حكـــى ... عُـــلاه فقـــد جـــاءَ ظُلمًـــا وزورا
فيـا بـن الحُمـاةِ ويـا بـن الكُمـاةِ ... ويـا بـن بُنـاة[1] المعـالي قصـورا
ويـــا خيـــرةَ اللهِ مـــن جعفـــرٍ ... ويـا مـن مزاياه[2] تحكـي الزهـورا
ويـــا مَـــنْ إذا مـــا جـــرى ذكـــرُه ... نَطيـــبُ لأنّـــا نَشُـــمُّ العبيـــرا
ويـا مـن نسـيمُ الصـبا لـم يـزلْ ... مـدى الـدهر مـن لطفِـه مُسـتعيرا
لـــك اللهُ عطفًـــا علـــى وافـــدٍ ... أتـــاك وأهمـــلَ خَلْقًـــا كثيـــرا
ولـــم يـــرَ أهـــلًا لآمالـــه ... ســواك فكُـــنْ بالأمـــاني جـــديرا
وحقّـقْ رجـاءَ امـرئٍ قـد غـدا ... بجاهِـك مـن دهـره مُسـتجيرا
فمَـن في الـورى يـا أميـرُ سـوا ... كَ يُجيـبُ النـدا ويفـكّ الأسـيرا
وخـذ بِكْـرَ فِكْـرٍ تغنّـي لنـا ... بمـدحك لحنًـا فتـدعو الحبـورا
وعـشْ أبـدَ الـدهرِ في دولـةٍ ... تُغـيظُ الحسـودَ وتعلـو الأثيـرا

(١) «بنات» في الأصل.
(٢) «مزياه» في الأصل.

فلمّا أتمّ ذلك الإنشادَ قلتُ له: اسمعْ يا قُسَّ إياد ثمّ أنشأت أقول: [من المتقارب]

قطعتُ السنينَ وجِبتُ الشهورا ... وباشرتُ فيه الجسيمَ الخطيرا
وعاشرتُ فيها الكبيرَ الذي ... يَروقُك منظرُهُ والصغيرا
فلم أرَ بعدَ اختباري لهم ... سوى من حكى وُدَّه الخَيْتَعورا[1]
أناسٌ إذا جئتَهم زائرًا ... تخالُ بأنّك زرتَ القبورا
وإنْ فُهْتَ بالهجو أو بالمديـ ... ـح لم ترَ للشعر فيهم شُعورا
فلولا تكالبُهم دائمًا ... على جيفةِ الدنيا كانوا حميرا
ومن رامَ منهم غِنًى أو ندًى ... كمن رامَ من عنكبوتٍ حريرا
ومُذْ بانَ لي أنّ توفيقَهم ... مُحالٌ وإنْ عشتُ فيهم نذيرا
جَنَحْتُ إلى وحدتي جاعلًا ... كتابيَ في كلّ وقتٍ سميرا
وتبتُ عن الشعرِ إلّا إذا ... مدحتُ بشعري الأميرَ الكبيرا
أميريَ جعفرَ درويشنا ... أخو المجد من باتَ فينا شهيرا
فتًى سعدُه من لدن مهدِه ... يلوحُ فلا زالَ سعدًا مُنيرا
ترى منه إنْ غابَ في غابةٍ ... من السمر في الحرب ليثًا هَصورا
فكم بطلٍ ماتَ في سرجه ... إذا كان يَسمعُ منه الزئيرا
وأمّا نداه وإنْ شاعَ في ... زماني فسلْ عنه منّي خبيرا
فذلكَ ندًى باتَ قلبي لهُ ... أسيرًا ومِقْوَلُ شكري قصيرا
ندًى طبّق الأرضَ مثلَ الحيا ... نوالًا فلم يُبْقِ فيها فقيرا

(١) خَيْتَعُورٌ: المرأة الذي لا يدوم وُدُّها. وقيل: كلُّ شيء يتلوّن ولا يدوم على حال خَيْتَعُورٌ. وقيل: كلُّ أُنْثَى، وإن بَدا لَكَ منها آيةُ الحُبِّ، حُبُّها خَيْتَعُورُ. (لسان العرب، ختعر)

تــرى عنــده حاتمًــا حائمًــا[١] بخــيلًا شــحيحًا[٢] ذميمًــا حقيــرا
وتكفــي أناملُــه إنْ هَمَــتْ ســحابًا تَسُــحُّ لنــا أو بحــورا
فجــودُ كثيــرٍ لــدى جودِهــا قليــلٌ إذ مــا ذكَرْنــا كثيــرا
جــوادٌ حــوى قصــباتِ الســبا قِ مذ كان في المهد[٣] طفلًا صغيرا
فــإنْ زرتَ منــه جنــانَ الحِمَــى رأيــتَ نعيمًــا ومُلكًــا كبيــرا
وأبصــرتَ فيــه سَــنَا بــدره وقــد فــاقَ يوحًــا[٤] بهــاءً ونــورا
فمــن رامَ إطفــاءَ أنــواره ســيدعو ثبــورًا ويصــلى ســعيرا
أميــرٌ مــن المجــد حــلَّ الصــدو رَ فســرَّ القلــوبَ وزانَ الصــدورا
فمــا أحْــوَلُ الفكــرِ غيــرُ امــرئٍ تــراءى لــه في البرايــا[٥] نظيــرا
فيــا مــن دمشــقُ بــه فــاخرتْ جميــعَ الــبلادِ وفاضــتْ ســرورا
ويــا مــن غــدا جــودُه شــاملًا أراضــينا ســهلَها والوعــورا
غيثًــا لمَــنْ لــم يــزلْ حبُّــه وإنْ لازمَ البيــتَ حبًّــا غزيــرا [٥٠أ]
يغــارُ إذا ســمعتْ أذْنُــه ســواكَ مــن النــاس يُــدعى[٦] أميــرا
ففــي اســمِ الإمــارةِ إنْ شــاركو كَ فقــد هربــوا مــن ســواها قصــورا
كــذلك جَــمُّ النــدا للعُفــاة وتأمينُــك الخــائفَ المُســتجيرا
فعــشْ في الســعود لهــذا الوجــو[٧] دِ بــرغم الحســودِ ســميعًا بصــيرا

(١) وقد يُقرأ جاثمًا.
(٢) «سحيحا» في الأصل.
(٣) «المهدي» في الأصل.
(٤) اسم للشمس.
(٥) «البريا» في الأصل.
(٦) «يدعي» في الأصل.
(٧) «لهذا لوجود» في الأصل.

مـدى الـدهرِ مـا مـالَ ريـحُ الصـبا يقبّـلُ مـن زهـرِ روضٍ ثغـورا
ومـا قـالَ بربيـرُكم مُنشِـدًا قطعـتُ السـنين وجِبـتُ الشـهورا

فلمّا سمع الشيخُ هذه الأبياتَ هزّه الطربُ وأخذه العجب، وقال: سبحان الله كيف اتّفق لك موافقتي في العروض والقافية والرويّ في هذه الأبيات؟ ما هذا إلّا من الآيات البيّنات. فقلت: لا تعجبْ من هذه الآية البيّنة فإنّها إذا اتّحدتِ الأرواحُ اتّحدتْ معها الألسنةُ فانهض بنا لزيارة بحر الكرم، ونسعى إلى الطواف بدار من أصبح للنزيل أعظمَ حَرَم.

فلمّـا وصـلنا إليـه ووقفنـا بـين يديـه قابلَنـا بالبشاشـة وعاملَنـا بالهشاشـة، ونهض لنا قائمًا حتّى صار كلانا في بحر العرقِ من الحياء عائمًا، ثمّ سهّل ورحّب وأدنى وقرّب، وأقبل على صاحبي يسألُه متى كان إقباله وكيف كـان أمره وحالُـه، فأجابه أحسنَ جـواب وأنشـده قصيدتَه التي جمع فيها بين الإيجاز والإطناب، فلمّا فرغ منها أثنى عليه الثناءَ الجميل وأقبل عليه بالتعظيم والتبجيل، فأنشدتُه أنا قصيدتي الأخرى فلمّا فرغت من إنشادها بالغَ في مدحي وأطرى. فقلت: والله أنت أحقُّ بالمدح منّي وأحرى، ولا فضلَ لي في هذه الأبيات [٥٠ب] التي قدّمتُها إلّا أنّي جمعتُ دُرَرَ صفاتِك فنظمتُها فقال الشيخُ متمثّلًا وأنشد[١]: [من البسيط]

فالـدُّرُّ يـزدادُ قَـدْرًا وهـو منـتظمٌ وليس ينقصُ قدرًا غيرَ منتظمِ

ثمّ تلطّف مع الشيخ في الكلام وزاد له في الإعظام والإكرام، وأمر له بعطاء الملوك فصدر عنه غنيًّا بعد أن وردَ وهو صعلوك، وأمّا أنا فقد أهداني من التحف، ما أعجزُ [عن] شكر بعضه فضلًا عن شكر ما تقدّم من فضله وسلف، فالله

(١) من قصيدة البردة للإمام البوصيري. انظر: العمدة في شرح البردة: ٢٠٣.

المسؤول أنْ لا يُخلِيَ من جماله وكماله ربوعَ الشام، وأنْ يسدّد أقوالَه[1] وأفعاله وأحواله في المبدأ منها والختام، بجاه سيّدنا محمّد

عليه من الله تعالى أزكى الصلاة والسلام

ثمّ إنّني رجعتُ إلى حسّي

فوجدتُني أخاطبُ

نفسي ولا بدويّ

ولا بعير

والله على [كلّ] شيء قدير

(١) «أقوله» في الأصل.

١. فهرس الآيات القرآنية

الآية	الصفحة
﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَشَّقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة ٧٤] (١٢أ)	٤١
﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ [فِي الأَرْضِ] مُرَاْغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء ١٠٠] (١٦أ)	٥٤
﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس ٢٤] (٤أ)	١٨
﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيْظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف ٥٥] (٩أ)	٣٣
﴿واسْأَلْ القرية﴾ [يوسف ٨٢] (٣٥ب)	١٠١
﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاْسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد ١٧] (٨ب)	٣١
﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ﴾ [النحل ٦٨] (١٧أ)	٥٧
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَو أُنْثَى [وَهُوَ مُؤْمِنٌ] فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل ٩٧] (٨أ)	٣١
﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُوْلِ﴾ [طه ٩٦] (٣٥ب)	١٠١
﴿مَثَلُ نُوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيْهَا مِصْبَاْحٌ﴾ [النور ٣٥] (٧أ)	٣٨
﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص ٨٥] (١٥أ)	٥٢-٥٢
﴿وَمَن نُّعَمِّرهُ نُنَكِّسهُ فِي الخَلْقِ﴾ [يس ٦٨] (٨أ)	٣٠
﴿قَاْلَ مَنْ يُحْيِي العِظَاْمَ وَهِيَ رَمِيْمٌ﴾ [يس ٧٨] (٧ب)	٢٩
﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ [ص ١٠] (١٦أ)	٥٥
﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف ٣٢] (٢٣أ)	٧٢

الآية	الصفحة
﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُم﴾ [الأحقاف ٢٥] (٤أ)	١٨
﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح ١٠] (١٨أ)	٥٩
﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد﴾ [ق ١٩] (١٧أ)	٥٧
﴿فَكَشَفنا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد﴾ [ق ٢٢] (٢٠أ)	٦٤
﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم ٤٢] (٦أ)	٢٤
﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر ٩] (٩ب)	٣٤
﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوْهُمْ﴾ [التغابن ١٤] (٣٠أ)	٨٨
﴿فَامْشوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ﴾ [الملك ١٥] (١٦أ)	٥٤
﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ [المدّثّر ٥٠] (١٢أ)	٤١
﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق ١٩] (٤ب)	٢٠
﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي﴾ [الفجر ٢٧-٢٨] (١٧أ)	٥٧
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِيْ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين ٤-٥] (٨أ)	٣٠
﴿إِلَّا الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجَرٌ غَيْرُ مَمْنُوْنٍ﴾ [التين ٦] (٨أ)	٣١
﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغَى أنْ رآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق ٦-٧] (١٨ب)	٦١

٢. فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«اتّقوا فِراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله» (٧أ)	٢٨
«أدركت الناس ثمرًا لا شوك فيه فأصبحوا شوكًا لا ثمر فيه» (٤١ب)	١١٢
«إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا وهوى متَّبعًا وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك» (٤ب)	٢٠
«اصرم الأحمق» (٥أ)	٢٢
«اطلبوا الخير من حِسان الوجوه» (٢أ)	٣١
«اطلبوا الخير من رُحماءِ أُمّتي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنّ اللعنة تنزل عليهم» (٢أ)	٣١
«اعتبروا الأرض بأسمائها واعتبروا الصاحب بالصاحب» (٢٦ب)	٨١
«أنا سيّد ولد آدم ولا فخر» (٩أ)	٣٣
«أنّه نهى أن تُسترَضَع الحَمقاء» (٥أ)	٢٢
«إنّ أُحُدًا جبل يحبّنا ونحبّه» (٣٦أ)	١٠٣
«إنّ الناس لم يؤتَوا شيئًا بعد كلمة الإخلاص مثل العافية فاسألوا الله العافية» (٢٤أ)	٧٤
«إنّ الناسَ يحتاجون إلى العلماء في الآخرة كما يحتاجون إليهم في الدنيا» (٢٣ب)	٧٢
«إنّهم أرقّ الناس أفئدةً وألين قلوبًا» (١١ب)	٤٠
«إليك انتهت الآمال يا صاحب العافية» (٢٤أ)	٧٤-٧٥

الحديث	الصفحة
«بئس البيتُ الحَمَّام» (١٦ب)	٥٦
«جنّة الرجل داره» (٤ب)	٢٠
«حبّ الوطن من الإيمان» (١٥أ)	٥١
«حياتي خير لكم ومماتي خير لكم» (٨ب)	٣٢
«الرضاع يغيّر الطباع» (٥أ)	٢٢
«زُرْ غِبًا تَزْدَدْ حُبًّا» (٣٣ب)	٩٦
«ذهب الناس وبقي النسناس» (٤١ب)	١١٢
«سافروا تصحّوا وتغنموا» (١٦أ)	٥٤
«السفر قطعة من العذاب» (١٦ب)	٥٥
«السلامة في العزلة» (٤ب)	٢٠
«الشيب نوري وأنا أستحي أنْ أُحرِق نوري بناري» (١٦ب)	٥٦
«العافية مُلكٌ خفيّ» (٢٤أ)	٧٤
«فِرّ من المجذوم فِرارك من الأسد» (٥أ)	٢٢
«كَفَى بالسلامة داءً» (٧ب)	٣٠
«الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم» (٤أ)	١٩
«نعم البيت الحَمَّام» (١٦ب)	٥٦
«نِعْمَ صومعة الرجل بيته» (٤ب)	٢٠
«وإنّما يسرع بخياركم» (٨ب)	٣١
«يَكْفُرْنَ العشير» (٢٩ب)	٨٨

٣. فهرس الأمثال والأقوال

الأمثال والأقوال	الصفحة
«أبصر من زرقاء اليمامة» (٤٣ب)	١١٧
«[أثقل] من أربعاء في صَفَر لا تدور» (٢٧أ)	٨٣
«[أثقل] من الرقيب على المحبّ» (٢٧أ)	٨٣
«أثقل من الزواقي» (٢٧أ)	٨٢
«أثقل من الزاووق» (٢٧أ)	٨٢
«أجمل من ذي العمامة» (٤٣ب)	١١٧
«أحقر من تبنة على لبنة» (١٢ب)	٤٤
«[أحقر] من ذنب الحمار على البيطار» (١٢ب)	٤٤
«أحمق من هَبَنَّقة القيسيّ» (١٢ب)	٤٢
«أحمى من مُجير الجراد» (٤٣ب)	١١٧
«أخنث من طويس» (١٢ب)	٤٤
«أخنث من دلال» (١٢ب)	٤٤
«أخنث من هيت» (١٢ب)	٤٤
«أخلف من عُرقوب» (١٢ب)	٤٣
«إذا أردتَ عملًا فقعْ فيه فإنّما خيبتُه تَوَقّيهْ» (٤٤ب)	١١٩
«أرِخ يديك واسترخ إنّ الزناد من مرخ» (٤٣ب)	١١٦

الأمثال والأقوال	الصفحة
«استسمنتَ ذا ورم» (٢٦أ)	٨١
«أطمع من أشعب» (١٢ب)	٤٣
«أطوع من ثواب» (١١ب)	٤٠
«أغرب من الغراب» (٢٩ب)	٨٧
«أكرم من كعب بن مامة» (٤٣ب)	١١٧
«أنمّ من جَرَس» (١٨ب)	٦٠
«أنمّ من الزجاج على الشراب» (١٨ب)	٦٠
«إنّ الجواد عينه فُراره» (٧أ)	٢٧
«الإيناس قبل الإبساس» (٦ب)	٢٦
«ببطنه يعدو الذكر» (١٢أ)	٤١
«ثأْطَةٌ مُدَّتْ بِمَاءٍ» (٢١ب)	٦٨
«جاور ملكًا أو بحرًا» (٤٤أ)	١١٩
«الخَلَّة تدعو إلى السَّلَّة» (٢٢أ)	٧٠
«[خير المال] عين ساهرة لعين نائمة» (٤١أ)	١١١
«[خير المال] عين خرّارة في أرض خوّارة» (٤١أ)	١١١
«حالَ الجريضُ دون القريض» (٤٨أ)	١٢٥
«زاحم بعود أو دع» (٤٨أ)	١٢٤
«دمعة من عوراءَ غنيمةٌ باردة» (١٢أ)	٤١
«الشرّ خير إذا كان مشتركًا» (١٤أ)	٤٩

الأمثال والأقوال	الصفحة
«الصيفَ ضيّعتِ اللبن» (١٥ب)	٥٣
«[عاد] بخُفَّي حنين» (٤٣أ)	١١٥-١١٦
«عشْ رجبًا ترَ عجبًا» (٤ب)	٢٠
«كلّ حذاء يحتذي الحافي الوَقِع» (٢٢أ)	٧٠
«كلّ الصيد في جوف الفرا» (٤٣ب)	١١٦
«لا تَهرف قبل أنْ تعرف» (٧أ)	٢٧
«لو تُرِكَ القطا ليلًا لنام» (١٤أ)	٤٩
«ليس الخبر كالعَيان» (٤١ب)	١١٢
«ناب وقد تقطع الدويّة الناب» (٤٨أ)	١٣٤
«يركب الصعب من لا ذَلول له» (٢٢أ)	٧٠

٤. فهرس الأشعار

قافية الهمزة

إنّ الأكابرَ يحكمون على الورى ... وعلى الأكابر تحكم العلماءُ
ذهبٌ أينما ذهبنا ودُرٌّ ... حيث درنا وفِضَّةٌ في الفضاءِ
وما طلب المعيشة بالتمنّي ... ولكنْ ألقِ دلوكَ في الدلاءِ
فإنّ مقادر الرحمن تجري ... بأرزاق العباد من السماءِ
وإذا جفاك الدهر وهو أبو الورى ... جهلًا فلا تعتب على أبنائِه

قافية الباء

كلُّ امرئٍ في طبعه أجربْ ... لا يأمنُ العدوى به الأقربْ
طَبْعُ الفتى يَسرِقُ مِنْ طَبع مَنْ ... يَصحَبُهُ فانظر لِمَن تَصحَبْ
وخَود دعتني إلى وصلها ... وعصر الشبيبة مني ذهب
نَرَى الدنيا وصبوتَها فَنَصُبو ... وما يخلو من الشهوات قلبُ
وما ينفع الجرباء قُربُ صحيحةٍ ... إليها ولكنّ الصحيحةَ تُجْرَبُ
وإنّي على ما في عُنجهيّتي ... ولوثة أعرابيّتي لأديب
لا تمْدحنَّ فتىً حتّى تجرّبه ... ولا تذمنَّه من غير تجريب
ذَهَبَ الذينَ يعاشُ في أَكْنافِهِم ... وبَقيتُ في خَلْفٍ كجِلْدِ الأَجْرَبِ
إذا الحمل الثقيل توازعته ... رقاب الجمع خفّ على الرقاب
دمي قد أطلته نواظر غادةٍ ... هي الشمس تُجْلَى في سيوف الغياهبِ
كلّما قلتُ بقُربي ... تنطفي نِيْرانُ قلبي

كـن ابـن مـن شئت واكتسب أدبًا يُغنيـكَ مضـمونُه عـن النسـبِ
رمتني بسـهم مـن كنانـة سـحرها فصـار علـيّ الوجـد ضـربةَ لازبِ

قافية التاء

إنّمـا الـنفس كالزُّجاجـة والعلـم سـراج وحكمـة الله زيـت
وطالمـا أُصـليَ اليـاقوتُ نـارَ غضـا ثمّ انطفى الجمر واليـاقوت يـاقوتُ
ألا إنّمـا الـدنيا علـى المـرء فتنـةٌ علـى كـلّ حـال أقبلـتْ أم تولّـتِ
تجمّعـت الأهـواءُ فيهـا فمـا تـرى بهـا غيـرَ صـبٍّ لا يـرى غيـر صـبوةٍ

قافية الجيم

يا لهفَ نفسي على كرامٍ منهمُ درجوا ودخلوا بيوت أجداثهم فما خرجوا

قافية الحاء

بـأبي التـي أَمْسَـتْ تشـير إلـى قـومي بـأنْ يُصـغوا إلـى مُلَحـي
قِيْـلَ لـي قـد ذَمَمْـتَ كـلَّ البرايـا وهَجَـوتَ الأنـامَ هَجْـوًا قَبِيْحـا
ومـن يـك مثلـي ذا عيـال ومُقتِـرًا مـن المـال يطرح نفسَـه كـلَّ مطرح
توقّـوا نفوسًـا أُشْـبِعَت بعـد جوعهـا ولـو شَـبِعَت فـالجوع فيهـا مُقـرِّح

قافية الخاء

وإذا أُضْـطَرَرْتَ لبـذل مـا ء الوجـه مـن خَطـب أنـاخ

قافية الدال

أَحلَـى الرجـالِ مـن النسـاء مواقعًـا مَـن كـان أَشْـبَهَهم بهـنّ خُـدودا
ووَضْعُ الندى في موضع السيف بالعُلا مُضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى
سـأطلب بُعْـدَ الـدارِ عـنكم لِتَقْرُبـوا وتَسـكُب عينـاي الـدموعَ لِتَجمُـدا

ومن نَكَدِ الدنيا على الحرّ أنْ يرى ... عـدوًّا لـه مـا مـن صـداقته بُـدُّ
لقد دَلَّنا ما حاز من حُسْنِ صورةٍ ... على أنّه المسعودُ والعَلَمُ الفردُ
ذا بعضُ ما قد حوى وقد بَقِيَتْ ... لـه صـفاتٌ لـم يُحصـها العـددُ
طـرفي وقلبـي قاتـل وشـهيد ... ودمـي علـى خـديك منـه شـهودُ
فلو أنّ روحي مازجت ثَمَّ روحَه ... لقلـتُ ادنُ منـي أيّهـا المُتباعـدُ
كريمٌ متى أمدحْهُ أمدحْه والورى ... معـي وإذا مـا لُمتـه لُمتـه وحـدي
لـيس علـى الله بمسـتنكرٍ ... أنْ يجمـع العـالمَ في واحـدِ
أصبحتَ كالخنزير عندَ الطاردِ ... ليس لمـن يقتلـه مـن حامـد

قافية الراء

سألتُ دهري لِمَ أضمرتَ مَن ... مِـن حقِّـه الإظهـارُ يـا أعـورْ؟
قطعتُ السنين وجِبتُ الشهورا ... وباشـرت فيـه الجسـيم الخطيـرا
سـلبنا خَوَرْنَقَنـا والسـديرا ... وبتنـا مـن المحـلِّ نرعـى البريـرا
تكاد يدي تَندَى إذا ما لمستُها ... ويَنبُت في أطرافها الورق الخضرُ
حِكَـم حـارتِ البريّـةُ فيهـا ... وحقيـقٌ بأنّهـا تحتـارُ
أَبَعْدَ خمسين يرجو وصل غانيةٍ ... أخـو حِجـىً حظّـه مـنهنّ منـذورُ
بُغاث الطير أكثرها فراخًا ... وأمّ الصـقر مقـلاة نـزورُ
عصفور قلبي رماه الحبّ في قفصٍ ... من الضلوع فلم يبرح من الدوري
مَنْ تلقَ منهم تَقُلْ لاقيت سيّدهم ... مثل النجوم التي يُهدَى بها الساري
ضَفادعُ في ظَلْماءِ لَيْلٍ تجاوَبَتْ ... فدَلَّ عليها صوتُها حيّةَ البحرِ
قل للحبيب الذي هواه ... في كلّ جسم كالروح ساري
جَمَع اللهُ فيه كلّ خَلق قبيح ... فيه قدمًا وكلّ خلق نكير

قافية السين

لـولا الضـروراتُ مـا فـارقتُكم أبـدًا ولا تنقّلـتُ مـن نـاسٍ إلـى نـاسِ
وما المسخ في الإنسان تغيير صورة ولكنّهـا سـلب اللطافـة والأنـس
أُحِـبُّ مليحَ الحِـسِّ لـيس ببـارعِ جمالًا ولا أهوى المليحَ بلا حِسّ
ولقـد ذكرتـكَ والعيـال تسـومني مـا لا أُطيـق لشـدّة الإفـلاس
إنْ خانـك الـدهرُ فكـنْ لائـذًا بالبيـدِ والظلمـاء والعـيس
ولـولا كَثـرَةُ البـاكينَ حَـوْلي علـى أحبـابهم لقتلـتُ نفسـي

قافية الشين

لله دَرُّكَ يـا مـن إذا شـدا فهـو وَرْشُ
كـم وجـه شـخص يَـبَشُّ وقلبُـه لـك حَـشُّ

قافية الضاد

قالوا ابن جعفر لـم يُـرَعْ مـن حادث جَلَـل فقلـت: وحجّتـي لـم تُـنْقَضِ

قافية الطاء

كـم أنـت في حـقّ الصـديق تُفـرّط ترضـى بـلا سـبب عليـه وتسـخطُ

قافية العين

إذا الأمـر ضـاق عليـك اتّسـع فمـمَّ الأسـى وعـلامَ الجـزعْ؟
كـدودة القـزّ مـا تبنيـه يهلكهـا وغيرهـا بالـذي تبنيـه ينتفـعُ
ظِـلُّ الفتـى ينفـعُ مـن دونَـهُ ومـا لـه في ظِلِّـهِ نَفْـعُ
ملـيء ببهـرٍ والتفـاتٍ وسـعلةٍ ومسـحةِ عُثنـونٍ وفتـل أصـابع

قافية القاف

كـم عـالمٍ عـالمٍ ضـاقت مذاهبـه ... وجاهـلٍ جاهـلٍ تلقـاه مرزوقـا
لَمـوتٌ بحـدّ السـيف أسـهلُ موقعًـا ... علـى الـنفس مـن قتـل بحـدّ فـراقِ
وَمِـنَ الـدليلِ علـى القَضـاءِ وكَوْنِـهِ ... بؤسُ اللبيبِ وطِيْبُ عيشِ الأحمقِ

قافية الكاف

إنّ أخـــاك الـــذي يتبعـــك ... ومـــن يضـــرّ نفســـه لينفعَـــك
تمسـكْ بـذلّ فهـو أليـقُ بـالهوى ... لتُـنْظَم مـع أهـل المحبّـة في سـلكِ
أيا ربّة الخال التي حسّنت هتكي ... على أيّ حال كـان لا بـدّ لـي منكِ
سأَطلُب وصل الحِبّ في كلّ حالة ... لأبلغـه مـن غيـر ريـب ولا شـكِّ
إذا لم يكن وصلٌ من الحِبّ مُسْعِفٌ ... وأَمْسَـيْتَ تحـت الضـيق في الحـبّ

قافية اللام

إذا أُنْسَـــيْتَ مـــن خِـــلٍّ ودادًا ... فـــزره ولا تخـــف منـــه مـــلالا
أشـــدُّ الهـــمّ عنـــدي في ســـرورٍ ... تَـــيَقَّنَ عنـــه صـــاحبُهُ انتقـــالا
سَلِ الفَضْلَ أَهْلَ الفَضْلِ قُدْمًا ولا تَسِلْ ... عـديمًا رَبـا في الفقـر ثـمّ تَمَـوّلا
لـولا الطـرادُ الصـيدُ لـم تـكُ لـذّة ... فتَطَـارَدِي لـي بالوصـال قلـيلا
لـولا مفارقـة الأحبـاب مـا وجـدَتْ ... لهـا المنايـا إلـى أرواحنـا سُـبُلا
إذا حضـر الشـتاء فـذاك شـمسٌ ... وإنْ حضـر المصـيفُ فـذاك ظـلُّ
رَضِـيْنا قِسْـمَةَ الجَبَّـارِ فينـا ... لَنـا عِلْـمٌ وَلِلْجُهَّـالِ مـالُ
ولـمْ أرَ كـالمعروف أمّـا مَذاقُـه ... فَحُلْـوٌ وأمّـا وجهُـه فجميـلُ
وعِـشْ خاليًـا فالحُـبُّ راحتُـهُ عَنَـا ... وأوّلُـهُ سُـقْمٌ وآخِـرُهُ قَتْـلُ
ولا عـارَ إنْ زالـتْ عـن الحـرّ نعمـةٌ ... ولكـنَّ عـارًا أنْ يـزول التجمّـلُ

ويركب حدّ السيف من أنْ تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مِزْحَلُ
هذا جزاءُ امرئٍ أقرانُه درجتْ ... مِن قبله فتمنّى فُسْحةَ الأجلِ
وليس يصحُّ في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليلِ
فشَرْطُ الفِلاحةِ غَرْسُ النباتِ ... وغَرْسُ الرياسة غَرْسُ الرجالِ
وإذا تُصِبْكَ مصيبةٌ فاصبر لها ... وإذا تُصِبْكَ خصاصةٌ فتجمّلِ
أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهمُ ... قَبْرِ بن ماريةَ الكريمِ الأفضلِ
العشق يُسْكِرُ كالمُدا ... م إذا تمكّن في العقولِ
وليلٍ زارنا فيه ... ثقيل الروح والظلّ
أُريدُ بَسْطةَ كفٍّ أستعينُ بها ... على أداءِ حقوقٍ للعُلا قِبَلي
فِيمَ اقتحامُكَ لُجَّ البحر تَرْكَبُهُ ... وأنتَ تكفيكَ منه مَصَّةُ الوَشَلِ
لله دَرُّ عِصابةٍ نادَمْتُهم ... في أرضِ جِلَّق في الزّمانِ الأوَّلِ

قافية الميم

نَفْسُ عِصامٍ سوّدت عِصامًا ... وعلّمته الكرّ والإقداما
أهْوى التكرّمَ والتظاهرَ بالذي ... عُلِّمْتُهُ والعقلُ يَنْهى عنهما
وأريد لا ألقى غبيًّا مُوْسِرًا ... في العالمين ولا لبيبًا مُعْدِما
إنّ العظيم يحمل العظيما ... كما الجسيم يحمل الجسيما
والناسُ إمّا عالمٌ أو جاهل ... فمتى أطيق تكرّمًا وتكلّما
الجسم بيت وقنديل الفؤاد به ... والرأس قبّته والمُقْلة الجام
والمؤمنون إذا نارت بصائرهم ... صحّت فِراستهم والجام نمّام
أمّا العلومُ فقد ظفرتُ ببغيتي ... علمًا أنارَ ليَ البهيمَ المظلِما
وملكت مفتاح الكنوز بفطنة ... كشفتْ لي السرّ الخفيّ المظلِما

لا تَنْـهَ عـن خُلُـقٍ وتـأتيَ مِثْلَـه ... عـارٌ عليـك إذا فعلـت عظـيمُ
ومـا أنـا مـنهمُ بالمكـث فـيهم ... ولكـنّ مَعـدِن الـذهب الرَّغـام
إيّـاك تُظهِـر للأنـام تلوّنًـا ... فيضـيعُ قـدرُك عنـدَهم وتُـلامُ
أوما تـرى الأوراق تسـقط مـذ بـدا ... تلوينُهـا فتدوسـها الأقـدام
النـاسُ في الـدنيا علـى سـفر فكُـلْ ... إنّ المسـافر مـا عليـه صـيام
للخيـر أهـل بـالقرائن تُعلـمُ ... تبـدوا فيعـرفهم بهـا المتوسِّـمُ
إنّ المراتـب في الـدنيا ورفعتَهـا ... عند الـذي حاز علمًا ليس عندهمُ
أهـلُ المراتـب في الـدنيا ورفعتهـا ... أهـل الفضـائل مرذولـون عنـدهمُ
فالـدرّ يـزداد قـدرًا وهـو منـتظم ... ولـيس يـنقص قـدرًا غيـر منـتظمِ
يلـذّ ذكـرُك لـي حتّـى أعـاف بـه ... طِيْـبَ الغِـذاء وشـربَ البـارد الشَـبِم

قافية النون

وكنّـا أَلِفناهـا ولـم تَـكُ مَألفًـا ... وقـد يُؤلـف الشـيء الـذي لـم يكـن
وراشـوا جنـاحي ثـمّ بلّـوه بالنـدى ... فلـم أسـتطع مـن حـيّهم طيرانـا
نَعيـبُ زمانَنـا والعيـبُ فينـا ... ولـو نطـق الزمـانُ بنـا هجانـا
كـم مـن أب قـد عـلا بـابنٍ لـه شـرفًا ... كمـا عَلَـتْ برسـول الله عَـدنانُ
هـمُ الرجـالُ مجـازٌ حـين تنظـرهم ... وفي الحقيقـة إنْ حقّقـتَ نسـوانُ
ومـا حسـنٌ أنْ يمـدحَ المـرءُ نفسَـه ... ولكنّ مـن تُثني عليه الـورى حسـنُ
فربّمـا لـبن الـدَّايات غيّـره ... عـن طبـع أجـداده الغُـرّ الميـامينِ
قـوم إذا نـزل الغريـب بأرضـهم ... تركـوه رَبّ صـواهل وقِيـان
امْـتَلأَ الحَـوْضُ وَقـالَ قَطْنـي ... مَهْـلًا رُوَيْـدًا قَـدْ مَـلأْتَ بَطْنـي
زعـم ابـن سـينا في عقـود كلامـه ... أنّ المحـبّ دواؤه الألحـان

وماذا تبتغي الشعراء منّي ... وقد جاوزت حدّ الأربعين
مَلَك الثلاثُ الغانياتُ عِناني ... وحَلَلْنَ من قلبي أعزَّ مكانِ
ظلمات خمس إذ ابتُليَ المر ... ءُ بها صار خلَّةً للزمان
لي في محبّتكم شهود أربع ... وشهود كلّ قضية اثنانِ
قالوا: نظنّك مجنونًا فقلت لهم: ... العشق أعظم ممّا بالمجانينِ
عَجَبًا يَخاف لليثُ حدَّ سناني ... وأخاف لحظ فواتر الأجفان
هل تَعلمين وراء الحبّ منزلةً ... تُدني إليك فإنّ الحبّ أضناني

قافية الهاء

لا أذودُ الطّيْرَ عن شَجَرٍ ... قد بلوتُ المرّ من ثمرِهْ
تشتاق أيّار نفوسُ الورى ... وإنّما الشوق إلى دَرِّه
إذا رمت أنْ تختار في الدهر صاحبًا ... لنفسك من بين الأنام فأغضبه
قد تركتُ الورى ورُبَّ نديمٍ ... خَيْفَةَ السُّكْر بأَنْ يترك راحَه
لازمتُ داري مِثْلَمَا ... لازم ضبٌّ نَفَقَه
فيا لها سكرة حلوة ... قد نغصتها لوزةٌ مرّة
توشّح بالخمول فخير حرّ ... مدى الأيّام صيّره وشاحة
نجومُ سماءٍ كلّما غاب كوكبٌ ... بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبُه
ما أنعم الله على عبده ... بنعمةٍ أوفى من العافية
لا تأسَ في الدنيا على فائت ... وعندك الإسلام والعافية
فلم أفهم معانيها ولكن ... شَجَتْ قلبي فلم أحمل شجاها
ولا تجزَعَنَّ على أيكة ... أَبَتْ أنْ تُظلّك أَغصانُها
إذا لم يكن إلّا الأسنّةُ مركبًا ... فلا أرى للمُضطرِّ إلّا ركوبها

تعفـــو الملـــوك عـــن الكبـــ ... يـــر مـــن الـــذنوب بفضـــلها
ومـا ينـتقص مـن عقـول الرجـال ... يزيـــد في نُهَاهـــا وألبابهـــا
لكـــلِّ داءٍ دواءٌ يُســـتَطَبّ بِـــهِ ... إلّا الحَماقـةُ أعيـت مَـن يُـدَاويها
خَـلِّ الـزواجَ فمـا الـزواجُ بِهَـيِّنٍ ... وإذا دعتـك إليـه نفسُـك فاعْصِـها
وإذا دعـوتَ بطـولِ عُمْـرٍ لِامْـرئٍ ... فـاعلم بأنّـك قـد دعـوتَ عليـه
لا تـزر مـن تحـبّ في كـلّ شـهر ... غيـــر يـــوم ولا تـــزدهُ عليـــه
إذا أردت عمـــلًا فقـــع فيـــه ... فإنّمـــا خيبتـــه تَوَقّيـــه
وقـد يُـذبح الإنسـانُ مـن أجـل مالـه ... كما يُذبح الطاووسُ من أجل ريشه
إذا مـــا أردت إخـــاء امـــرئ ... فســـل كيـــف كـــان لإخوانـــه
إنّ الفتـــى مـــن لـــم يـــزل ... يحنـــو علـــى أبنـــاء جنســـه
ومـــن يعمّـــر يلـــقَ في نفســـه ... مـــا يتمنّـــاه لأعدائـــه
وإذا جفـاك الـدهر وهـو أبـو الـورى ... جهـلًا فـلا تعتـب علـى أبنائـه

قافية الياء

وإنّـك مهمـا تـأت مـا أنـت آمـر ... بـه تَلْـفَ مـن إيّـاه تـأمر آتيـا
على المـرء أنْ يسعى بمـا فيـه نفعُـه ... ويقضـي إلـه الخلـق مـا كـان قاضيا

٥. فهرس الأعلام

الإسم	الصفحة
هند بنت النُّعمان [٢أ]	١٣
سعيد بن العاص [٢أ]، [٤٣ب]	١٣، ١١٧
أبو بكر الصّدّيق عبد الله بن أبي قحافة عثمان [٣ب]، [٢٤أ]، [٢٥أ]	١٦، ٧٤، ٧٧
هارون الرشيد [٣ب]، [٣٤أ]	١٧، ٩٧
الأمين [٣ب]	١٧
المأمون [٣ب]	١٧
أبو نواس [٣ب]، [٢٥أ]	١٧، ٧٨
الخنساء [٤أ]، [١٤ب]	١٨، ٤٩
مَكْحُول [٤ب]	٢٠
السخاوي [٥أ]	٢٠
سليمان [٨أ]	٣٠
عيسى [٥أ]، [١٢ب]، [٢٥ب]، [٣٠ب]	٢٢، ٤٥، ٧٨، ٩٠
موسى [٥ب]	٢٤
يوسف بن يعقوب [٥ب] و[٣٨أ]	٢٤، ٣٣، ١٠٦
عمر بن الخطّاب، الفاروق [٧أ]، [٢٥أ]	٢٧، ٧٧
قُسّ بن ساعدة الإيادي [٧أ]، [١٢أ]، [٢٥ب]، [٣٨أ]،	٢٨، ٤٢، ٧٩،

الإسم	الصفحة
[٤٩أ]	١٠٥، ١٢٨
أبو حنيفة [٧ب]، [٢٣ب]، [٢٥ب]	٢٨، ٧٣، ٧٩
الشافعيّ [٧ب]، [١٧أ]، [٢١أ]، [٢٢ب]، [٢٥ب]، [٢٩أ]	٢٨، ٥٧، ٦٦، ٧١، ٧٥، ٧٨، ٨٦
نوح [٧ب]، [٤١أ]	٢٩، ١١٠
لقمان [٨أ]، [٢٢ب]، [٣٧ب]	٣٠، ٧٠، ١٠٥
نصر بن دَهمان [٨أ]	٣٠
دُريد [٨أ]	٣٠
النعمان بن المنذر [١٠ب]	٣٧
كِسرى [١٠ب]، [١٢أ]، [١٤ب]	٣٧، ٤٢، ٥٠
سِنِمّار [١٠ب]	٣٧
مارية بنت أرقم [١١أ]، [٢٦ب]، [٤٣أ]	٣٧، ٨١، ١١٥
جَفْنَة [١١أ]	٣٨
حسّان بن ثابت [١١أ]، [٢٥ب]	٣٨، ٧٧
جبلة بن الأيهم [١١أ]	٣٩
قيصر [١١أ]، [١٢أ]	٣٩، ٤٢
ابن ذي يزن [١١ب]	٣٩
حاتم الطائيّ [١٢أ]، [٤٩ب]	٤١، ١٢٩
عنترة العبسيّ [١٢أ]	٤١
حاجب بن زراره [١٢أ]	٤٢

الإسم	الصفحة
السموأل بن عادياء [١٢أ]	٤٢
النابغة الذبيانيّ [١٢أ]، [٢٥ب]	٤٢، ٧٧
جذيمة الأبرش [١٢أ]	٤٢
عامر بن الطفيل [١٢أ]	٤٢
كُلَيب وائل [١٢أ]	٤٢
الأسود العنسيّ [١٢ب]	٤٢
هَبَنَّقة القيسيّ [١٢ب]	٤٢
الربيع بن زياد [١٢ب]	٤٣
عمارة بن زياد [١٢ب]	٤٣
الحارث بن ظالم [١٢ب]	٤٣
عُرقوب [١٢ب]	٤٣
أشعب [١٢ب]	٤٣
وافد البراجم [١٢ب]، [٤٣أ]	٤٣-٤٤، ١١٥
الحجّاج الثقفيّ [١٢ب]	٤٤
مسيلمة الحنفيّ [١٢ب]	٤٤
هيت [١٢ب]	٤٤
طويس [١٢ب]	٤٤
دلال [١٢ب]	٤٤
أبو جهل [١٣أ]	٤٦
حَذام [١٣ب]، [٤٢أ]	٤٩، ١١٣

الإسم	الصفحة
أبو الأسود الدؤلي [١٦أ]	٥٤
ابن المعتز [١٧أ]	٥٦
عليّ بن أبي طالب [١٧أ]، [٢٤أ]، [٢٥أ]، [٣٠ب]،	٥٧، ٧٥، ٧٧، ٩٠
العارف النابلسيّ [٢٢ب]	٧١
ابن الراوندي [٢٣أ]	٧١
برهان الدين بن جماعة [٢٣أ]	٧٢
ابن دقيق العيد [٢٣ب]	٧٣
محمّد بن البققيّ [٢٣ب]	٧٣
الإمام أحمد [٢٤أ]	٧٤
ابن حِبّان [٢٤أ]	٧٤
أبو هريرة [٢٤أ]، [٢٥أ]، [٤١ب]	٧٤، ٧٧، ١١٢
الزمخشريّ [٢٤أ]، [٣١أ]	٧٥، ٩١
عثمان بن عفّان [٢٥أ]	٧٧
معاوية بن أبي سفيان [٢٥أ]، [٤٤أ]	٧٧، ١١٩
معاذ [٢٥أ]	٧٧
ابن شعبة المغيرة [٢٥أ]، [٣٠ب]	٧٧، ٩٠
أبو ذرّ [٢٥ب]، [٤١ب]	٧٧، ١١٢
ابن عبّاس [٢٥ب]، [٣٠ب]، [٣١أ]، [٤٤أ]	٧٧، ٩٠، ٩١، ١١٩
لبيد [٢٥ب]، [٢٦أ]، [٤١ب]	٧٧، ٨٠، ١١٢
العبّاس بن مرداس [٢٥ب]	٧٧

الإسم	الصفحة
زيد [٢٥ب]	٧٧
الأصمعيّ [٢٥ب]	٧٧
أبو عبيد [٢٥ب]	٧٨
أُوَيس القَرْنِيّ [٢٥ب]	٧٨
الأحنف بن قيس [٢٥ب]	٧٨
أبو العلاء [٢٥ب]، [٣١أ]	٧٨، ٩١
ابن سينا [٢٥ب]، [٣٥أ]	٧٨، ١٠٠
عبد الله بن عمرو بن العاص [٢٥أ]	٧٧
أبو العينا [٢٥ب]	٧٨
إسحاق [٢٥ب]	٧٨
المعتصم [٢٥ب]	٧٨
ابن سَنَاء المُلْك [٢٥ب]	٧٨
أبو فراس [٢٥ب]	٧٨
الرّكاض [٢٥ب]	٧٨
إياس [٢٥ب]	٧٩
ابن سيرين [٢٥ب]	٧٩
ابن شاهين [٢٥ب]	٧٩
سحبان [٢٥ب]	٧٩
الخليل بن أحمد [٢٥ب]	٧٩
الحريريّ [٢٥ب]	٧٩

الإسم	الصفحة
بديع هَمَذان [٢٥ب]	٧٩
خطيب بغداد [٢٥ب]	٧٩
الصابيّ [٢٥ب]	٧٩
الصاحب بن عبّاد [٢٥ب]	٧٩
واصل [٢٥ب]	٧٩
القاضي الفاضل [٢٥ب]	٨٠
أبو دُلامَة [٢٨أ]	٨٥
الفاضل الباعوني [٢٩أ]	٨٧
أبو الطيّب [٣٠أ]	٨٨
الجُنيد [٣٠أ]، [٤٤أ]	٨٩، ١١٩
ابن عمر [٣٠أ]	٨٩
الإمام اليافعيّ [٣٠أ]	٨٩
أبو الفدا إسماعيل الحضرمي [٣٠أ]	٨٩
الحسن [٣٠ب]	٩٠
العزيزي [٣٠ب]	٩٠
سفيان بن عُيَينة [٣١أ]	٩٠
ولّادة [٣١ب]	٩٢
رابعة [٣١ب]	٩٢
ابن الفارض [٣٣أ]، [٣٥أ]	٩٥، ١٠١
أبو تمّام [٣٣ب]	٩٧

الإسم	الصفحة
المستعين [٣٤أ]	٩٨
الملك الناصر يوسف [٣٤أ]	٩٨
الناصر داود بن الملك المعظّم عيسى [٣٤أ]	٩٨
بقراط [٣٥أ]	١٠٠
ابن الأحمر [٣٥ب] (مرتان)	١٠١
الصلاح الصفديّ [٣٥ب]	١٠٢
ابن حجر [٣٥ب]، [٣٦أ]	١٠٢
بلال [٣٧ب]، [٣٨أ] (مرتان)	١٠٥، ١٠٦
محي الدين بن عربيّ [٣٨ب]	١٠٧
البَلَحي: أبو العبّاس أحمد بن طاهر بن محمود [٣٩أ]	١٠٧
ابن نقطة [٣٩أ]	١٠٧
ابن ماكولا [٣٩أ]	١٠٧
الجوري شيخ النيسابوري [٣٩أ]	١٠٨
أبو الدرداء [٤١ب]	١١٢
درويش آغا (الشهير بابن جعفر) [٤٣أ]، [٤٦أ]، [٤٧أ]، [٤٨ب]، [٤٩ب]	١١٦، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨
أسامة [٤٣ب]	١١٧
زرقاء اليمامة [٤٣ب]	
ذي العمامة [٤٣ب]	١١٧
كعب بن مامة [٤٣ب]	١١٧

الإسم	الصفحة
مُجير الجراد [٤٣ب]	١١٧
قعقاع بن شور [٤٣ب]	١١٧
العارف المحاسبي [٤٣ب]	١١٧
زيدُ الخير [٤٤أ]	١١٩
المعيديّ [٤٤أ]	١١٩
مسلم [٤٧أ]	١٢٣

٦. المصادر والمراجع

١. الآبريّ، محمّد بن الحسين: مناقب الشافعيّ. تحقيق: جمال عزون. الدار الأثريّة، ط١، ٢٠٠٩.

٢. ابن الأثير، عزّ الدين أبي الحسن علي بن محمّد: اللباب في تهذيب الأنساب. تحقيق: حسام الدين القدسي. مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

٣. الألباني، محمد ناصر الدين:

a. أ. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة. مكتب المعارف، الرياض، ط١، ١٩٩٢.

b. ضعيف الجامع الصغير وزيادته. المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٨.

٤. الآمدي، الحسن بن بشر:

a. المؤتلف والمختلف. تحقيق: ف. كرنكو. دار الجيل، ط١، ١٩٩١.

b. الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري. تحقيق: السيّد أحمد صقر. دار المعارف، ط٤.

٥. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم:

a. عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء. تحقيق: نزار رضا. مكتبة الحياة، بيروت، ط١.

b. عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء. تحقيق: محمّد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨.

٦. الأبشيهي، محمّد بن أحمد: المستطرف. عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٧. ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمّد:

a. كتاب الشكر لله عزّ وجلّ (ضمن موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا، المجلد الثالث). تحقيق: محمد السعيد زغلول. مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٩٤.
b. العمر والشيب. تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف. مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٩٢.
c. قضاء الحوائج (ضمن مجموع رسائل ابن أبي الدنيا، المجلد الثاني). تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٩٣.
d. مداراة الناس. تحقيق: محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٨.

٨. الأحنف بن قيس: الديوان. تحقيق: عاتكة الخزرجي. دار الكتب المصريّة، ط ١، ١٩٥٤.
٩. الأخطل، غياث بن غوث: الديوان. تحقيق: فخر الدين قباوة. دار الفكر، دمشق، ط٤، ١٩٩٦.
١٠. الأصفهاني، أبي نعيم أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
١١. الأصفهاني، الحسين بن محمّد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. شركة دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
١٢. الأصمعي، عبد الملك بن قريب: الأصمعيات. تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون. دار المعارف، ط٥.
١٣. الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. تحقيق: محمّد بهجة الأثري. دار الكتاب المصري، ط٢.
١٤. الأنباري، عبد الرحمن بن محمّد: نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء. تحقيق: إبراهيم السامرّائي. مكتبة المنار، ط٣، ١٩٨٥.

١٥. بامحزمة، الطيّب بن عبد الله: قلادة النحر في وفيّات أعيان الدهر. تحقيق: بو جمعة مكري وخالد زواري. دار المنهاج، ط١، ٢٠٠٨.
١٦. البحتري، الوليد بن عبيد: الحماسة. تحقيق: محمّد إبراهيم حور وأحمد محمّد عبيد. المجمّع الثقافيّ، أبو ظبي، ٢٠٠٧.
١٧. البخاري، محمّد بن إسماعيل: صحيح البخاري. دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ط١، ٢٠٠٢.
١٨. ابن بسّام، علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق: إحسان عبّاس. الدار العربيّة للكتاب، ط١، ١٩٨١.
١٩. البستيّ، أبي الفتح عليّ بن محمّد: الديوان. تحقيق: دريّة الخطيب ولطفي الصقّال. مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، ١٩٨٩.
٢٠. البصري، علي بن أبي الفرج:
a. الحماسة البصريّة. تحقيق: عادل سليمان جمال. مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٩.
b. الحماسة البصريّة. تحقيق: مختار الدين أحمد. عالم الكتب، ط٣، ١٩٨٣.
٢١. البغدادي، عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب. تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٨٦.
٢٢. البيطار، عبد الرزاق: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٦١.
٢٣. البيهقي، أحمد بن الحسين:
a. كتاب الزهد الكبير. تحقيق: عامر أحمد حيدر. دار الجنان، ط١، ١٩٨٧.
b. السنن الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣.

c. مناقب الشافعي. تحقيق: السيّد أحمد صقر. مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٧٠.

٢٤. الترمذي، أبو عيسى: سنن الترمذي (الجامع الكبير). تحقيق: بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٦.

٢٥. ابن تغري بردي، يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ١٩٦٣.

٢٦. أبو تمّام، حبيب بن أوس: الديوان. تحقيق: محمّد عبده عزّام. دار المعارف، ط٤.

٢٧. التهامي، علي بن محمّد: الديوان. تحقيق: محمّد بن عبد الرحمن الربيع. مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٨٢.

٢٨. ابن ثابت، حسّان: الديوان. تحقيق: وليد عرفات. دار صادر، ٢٠٠٦.

٢٩. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمّد:

a. التمثيل والمحاضرة. تحقيق: عبد الفتّاح محمّد الحلو. الدار العربيّة للكتاب، ط٢، ١٩٨١.

b. ثمار القلوب. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

c. خاصّ الخاص. تحقيق: محمّد زينهم. الدار الثقافيّة للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.

d. الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب. تحقيق: إلهام عبد الوهاب المفتي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط١، ٢٠٠١.

e. قصص الأنبياء المسمّى بعرائس المجالس. بدون مطبعة، ١٨٧٥.

f. لباب الآداب. تحقيق: أحمد حسن بسج. دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٩٧.

g. اللطائف والظرائف في الأضداد. المطبعة العامرة الشرقية، ١٨٨٣.

h. المنتحل. تحقيق: أحمد أبو علي. المطبعة التجاريّة بالإسكندريّة، ١٩٠١.
i. من غاب عنه المطرب. المطبعة الأدبيّة، بيروت، ١٣٠٩هـ.
j. يتيمة الدهر. تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة الصاوي، ط١، ١٩٣٤.
k. يتيمة الدهر. تحقيق: مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٣.
٣٠. الجاحظ، عمرو بن بحر:
a. البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. ط٧، ١٩٩٨.
b. الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون. مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٦٦.
٣١. الجرّاوي، أحمد بن عبد السلام: الحماسة المغربيّة. تحقيق: محمّد رضوان الداية. دار الفكر المعاصر، ط١، ١٩٩١.
٣٢. الجرجاني، علي بن عبد العزيز: الوساطة بين المتنبّي وخصومه. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٦.
٣٣. ابن الجهم، عليّ: الديوان. تحقيق: خليل مردم بك. دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٨٠.
٣٤. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. تحقيق: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢.
٣٥. ابن حبّان، محمّد: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. تحقيق: محمد حامد الفقي. مكتبة السنة المحمدية، ط٣، ١٩٥٤.

٣٦. ابن حجّة الحموي، أبو بكر بن علي: خزانة الأدب وغاية الأرب. تحقيق: عصام شقيو. دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤.
٣٧. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي:
a. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق: محمّد عبد المعين ضان. مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، ط٢، ١٩٧٢.
b. نزهة الألباب في الألقاب. تحقيق: عبد العزيز السديري. مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٨٩.
٣٨. الحريري، القاسم بن علي: المقامات. دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٧٨.
٣٩. الحصري، إبراهيم بن علي: زهر الآداب. تحقيق: محمّد علي البجّاوي. عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٥٣.
٤٠. الحلبي، علي حسن علي: موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة. مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٩٩.
٤١. ابن حمدون، محمّد بن الحسن: التذكرة الحمدونيّة. دار صادر، ط١، ١٩٩٦.
٤٢. الحموي، ياقوت:
a. معجم الأدباء. تحقيق: إحسان عبّاس. دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣.
b. معجم البلدان. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.
٤٣. ابن حنبل، أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، ١٩٩٥.
٤٤. أبو حيّان الأندلسي، يوسف بن محمّد: البحر المحيط. تحقيق: صدقي محمّد جميل. دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٤٥. أبو حيّان التوحيديّ، محمّد بن يوسف:

a. البصائر والذخائر. تحقيق: وداد القاضي. دار صادر، ط١، ١٩٨٨.
b. تذكرة النحاة. تحقيق: عفيف عبد الرحمن. مؤسّسة الرسالة، ط١، ١٩٨٦.
٤٦. الخرائطي، محمّد بن جعفر: اعتلال القلوب. تحقيق: حمدي الدمرداش. مكتبة نزار مصطفى الباز ط٢، ٢٠٠٠.
٤٧. الخفاجي، محمّد بن سنان: سرّ الفصاحة. دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٨٢.
٤٨. ابن خلّكان، أحمد بن محمّد: وفيّات الأعيان. تحقيق: إحسان عبّاس. دار صادر، ط١، ١٩٩٤.
٤٩. الخنساء، تماضر بنت عمرو: الديوان. تحقيق: أنور أبو سويلم. دار عمّار، ط١، ١٩٨٨.
٥٠. أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث:
a. سنن أبي داود. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون. دار الرسالة العالمية، ط١، ٢٠٠٩.
b. كتاب المراسيل. تحقيق: عبد الله الزهراني. دار الصميعي، الرياض، ط١، ٢٠٠١.
٥١. الدؤلي، أبو الأسود: الديوان. تحقيق: محمّد حسن آل ياسين. دار ومكتبة الهلال، ط٢، ١٩٩٨.
٥٢. دوزي، رينهارت: تكملة المعاجم العربيّة. ترجمة: محمّد سليم النعيمي وجمال الخيّاط. وزارة الثقافة والإعلام العراقيّة، ط١.
٥٣. الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرويه: الفردوس بمأثور الخطاب. تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٦.
٥٤. ابن ربيعة، لبيد: الديوان. تحقيق: حنّا نصر حتّي. دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٣.

٥٥. ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه. تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل، ط٥، ١٩٨١.
٥٦. ابن الرومي، علي بن العبّاس: الديوان. تحقيق: حسين نصّار. دار الكتب والوثائق القوميّة بالقاهرة، ط٣، ٢٠٠٣.
٥٧. الزركلي، خير الدين: الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢.
٥٨. الزمخشري، محمود بن عمر:
a. أطواق الذهب في المواعظ والخطب. دار نخبة الأخبار، ١٣٠٤هـ.
b. ربيع الأبرار. تحقيق: عبد الأمير مهنا. مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
c. الكشّاف. دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.
d. المستقصى في أمثال العرب. تحقيق: محمّد عبد المعيد خان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٢.
٥٩. سبط بن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان. تحقيق: محمّد بركات وآخرون. دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١، ٢٠١٣.
٦٠. السخاوي، محمّد بن عبد الرحمن: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. تحقيق: محمد عثمان الخشت. دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٥.
٦١. السرّاج، جعفر بن أحمد: مصارع العشّاق. دار صادر، ط١، ١٩٩٩.
٦٢. السفاريني، محمّد بن أحمد: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب. مؤسسة قرطبة – مصر، ط٢، ١٩٩٣.
٦٣. السِلَفي، أبو طاهر أحمد بن محمّد: معجم السفر. دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

٦٤. ابن سلّام، القاسم: الأمثال. تحقيق: عبد المجيد قطامش. دار المأمون، ط١، ١٩٨٠.
٦٥. ابن السكّيت، يعقوب بن إسحاق: إصلاح المنطق. تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون. طبعة دار المعارف، ط٤، ١٩٨٧.
٦٦. السنيكي، زكريا بن محمّد: فتح الباقي بشرح ألفيّة العراقي. تحقيق: عبد اللطيف الهميم ومحمّد ياسين فحل. دار الكتب العلميّة، ط٢، ٢٠١٥.
٦٧. السيوطي، عبد الرحمن بن محمّد:
a. الأشباه والنظائر. تحقيق: عبد العال سالم مكرم. مؤسّسة الرسالة، ط١، ١٩٨٥.
b. بغية الوعاة. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٦٥.
c. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٧.
d. شرح شواهد المغني. تحقيق: أحمد ظافر كوجان. لجنة التراث العربي، ١٩٦٦.
e. المحاضرات والمحاورات. دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٤هـ.
f. المقامات. مطبعة الجوائب. ١٢٩٨هـ.
g. معترك الأقران في إعجاز القرآن. دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٨.
h. همع الهوامع. تحقيق: عبد العال سالم مكرم. مؤسّسة الرسالة، ١٩٩٢.
٦٨. الشافعيّ، محمّد بن إدريس:
a. الديوان. تحقيق: إميل بديع يعقوب. دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٩٦.
b. الديوان. تحقيق: عمر فاروق الطبّاع. دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥.

٦٩. الشرواني، أحمد بن محمد: نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن. مطبعة التقدّم العلميّة بمصر، ١٢٥٣هـ.
٧٠. الشطّي، جميل: روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر. مطبعة دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٤٦.
٧١. ابن الشعّار، المبارك: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان. تحقيق: كامل سلمان الجبوري. دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٥.
٧٢. الشيرازي، عبد الرحمن بن نصر: المنهج المسلوك في سياسة الملوك. تحقيق: علي عبد الله الموسى. مكتبة المنار، ط١، ١٩٨٧.
٧٣. ابن الصائغ، محمّد بن حسن: اللمحة في شرح الملحة. تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي. عمادة البحث في الجامعة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة، ط١، ٢٠٠٤.
٧٤. الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير: التنوير شرح الجامع الصغير. تحقيق: محمد إسحاق محمد إبراهيم. دار السلام، الرياض، ط١، ٢٠١١.
٧٥. الصفدي، خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠.
٧٦. صفيّ الدين الحلبيّ، عيسى بن البحتري: أنس المسجون وراحة المحزون. تحقيق: محمّد أديب الجادر. دار صادر، ط١، ١٩٩٧.
٧٧. الصوّاف، محمّد شريف: معجم الأسر والأعلام الدمشقية. بيت الحكمة، دمشق، ط١، ٢٠٠٣.
٧٨. الضبّي، المفضّل بن محمّد: أمثال العرب. دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
٧٩. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الأوسط. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ومحسن الحسيني. دار الحرمين، ط١، ١٩٩٥.

٨٠. الطغرائي، الحسين بن علي: الديوان. تحقيق: علي جواد طاهر ويحيى الجبوري. مطابع الدوحة الحديثة، قطر، ط٢، ١٩٨٦.
٨١. الطيبي، الحسين بن عبد الله: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب. مجموعة من المحقّقين. جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ٢٠١٣.
٨٢. العبّاسي، عبد الرحيم بن عبد الرحمن: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد. عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧.
٨٣. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: بهجة المجالس وأُنس المُجالس. تحقيق: محمّد مرسي خولي. دار الكتب العلميّة، ط٢.
٨٤. ابن عبد ربّه: العقد الفريد. تحقيق: مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٣.
٨٥. أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم: الديوان. تحقيق: شكري فيصل. مطبوعات جامعة دمشق، ١٩٦٥.
٨٦. ابن العجمي، أحمد بن إبراهيم: كنوز الذهب في تاريخ حلب. دار القلم، ط١، ١٤١٧هـ.
٨٧. ابن عجيبة، أحمد بن محمّد: العمدة في شرح البردة. تحقيق عبد السلام العمراني. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
٨٨. ابن عربشاه، أحمد بن محمّد: عجائب المقدور في أخبار تيمور. طبعة كلكتا، ١٨١٧.
٨٩. ابن عساكر، علي بن الحسن: تاريخ دمشق. تحقيق: عمرو بن غرامة. دار الفكر، ١٩٩٥.
٩٠. العسقلاني، أحمد بن علي: لسان الميزان. مؤسّسة الأعلمي، ط٢، ١٩٧١.
٩١. ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن: شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك. تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد. دار التراث، ط٢٠، ١٩٨٠.

٩٢. العلموي، عبد الباسط بن موسى: العقد التليد في اختصار الدر النضيد. تحقيق: مروان العطية. مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٤.
٩٣. العلوي، محمّد بن محمّد: المجموع اللفيف. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.
٩٤. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد: شذرات الذهب. تحقيق: محمود الأرناؤوط. دار ابن كثير، ط١، ١٩٨٦.
٩٥. عمر، أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة. عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.
٩٦. العمري، أحمد بن يحيى:
a. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق: كامل سلمان الجبوري. دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠١٠.
b. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٣هـ.
٩٧. العيني، محمود بن أحمد: المقاصد النحويّة في شرح شواهد شروح الألفيّة. تحقيق: علي محمّد فاخر وآخرون. دار السلام، ط١، ٢٠١٠.
٩٨. الفارسي، أبو علي: المسائل البصريات. تحقيق: محمّد الشاطر وأحمد محّمد أحمد. مطبعة المدني، ط١، ١٩٨٥.
٩٩. الفاسي، محمّد بن أحمد: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٠.
١٠٠. الفوطي، عبد الرزّاق بن أحمد: مجمع الآداب في معجم الألقاب. تحقيق: محمّد الكاظم. وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، ط١.
١٠١. القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم: الأمالي. تحقيق: محمد عبد الجواد الأصمعي. دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٢٦.

١٠٢. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم:
a. الشعر والشعراء. دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
b. عيون الأخبار. تحقيق: منذر محمّد سعيد أبو شقر. المكتب الإسلامي، عمّان، ط١، ٢٠٠٨.
١٠٣. القرشي، محمّد بن أبي الخطاب: جمهرة أشعار العرب. تحقيق: علي محمّد البجادي. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١.
١٠٤. القشيري، عبد الكريم بن هوازن: لطائف الإشارات. تحقيق: إبراهيم البسيوني. الهيئة المصريّة للكتاب، ط٣، ٢٠٠٠.
١٠٥. القضاعي، محمد بن سلامة: مسند الشهاب. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٥.
١٠٦. القفطي، علي بن يوسف: المحمّدون من الشعراء. تحقيق: حسن معمري. دار اليمامة، ١٩٧٠.
١٠٧. القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. تحقيق: يوسف علي طويل. دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧.
١٠٨. القيسي، محمّد بن عبد الله: توضيح المشتبه. تحقيق: محمّد حسن إسماعيل. دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.
١٠٩. ابن قيّم الجوزيّة: روضة المحبّين ونزهة المشتاقين. تحقيق: محمّد عزيز شمس. طبعة مؤسّسة الراجحي، ط١، ١٤٣١هـ.
١١٠. ابن كثير، إسماعيل بن عمر:
a. البداية والنهاية. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧.
b. البداية والنهاية. تحقيق: علي شيري. دار إحياء التراث، ط١، ١٩٨٨.
c. طبقات الشافعيين. تحقيق: أحمد عمر هاشم. مكتبة الثقافة الدينيّة، ١٩٩٣.

١١١. كحّالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب. دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٦٨.

١١٢. كشاجم، محمود بن الحسين: الديوان. تحقيق: عبد النبوي شعلان. مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٧.

١١٣. الكميت بن زيد: الديوان. تحقيق: محمّد نبيل طريفي. دار صادر، ط١، ٢٠٠٠.

١١٤. لسان الدين ابن الخطيب، محمّد بن عبد الله:

a. الإحاطة في أخبار غرناطة. دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠٠٣.

b. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق: إحسان عبّاس. دار صادر، ط١، ١٩٩٧.

١١٥. ابن ماجه، محمّد بن يزيد: سنن ابن ماجه. تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى البابي الحلبي)، القاهرة، ١٩٥٢–١٩٥٣.

١١٦. مالك بن أنس: الموطأ لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رواية يحي بن يحي الليثي. تحقيق: بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٧.

١١٧. الماوردي، عليّ بن محمّد: أدب الدنيا والدين. دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦.

١١٨. المبرَّد، محمّد بن يزيد:

a. الكامل في اللغة والأدب. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. وزارة الأوقاف السعودية، ١٩٩٨.

b. المقتضب. تحقيق: محمّد عبد الخالق عضيمة. طبعة لجنة إحياء التراث الإسلاميّ، ١٩٩٤.

١١٩. المتنبّي، أحمد بن الحسين الجعفيّ: الديوان. تحقيق: مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ، ١٩٣٦.

١٢٠. مجنون ليلى، قيس بن الملوح بن مزاحم: ديوان مجنون ليلى. تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج. مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٩.
١٢١. المحبّي، محمّد بن فضل الله: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. دار صادر، ط١.
١٢٢. المرتضى، علي بن الحسين: أمالي المرتضى. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٤.
١٢٣. ابن مرداس، العبّاس: الديوان. تحقيق: يحيى الجبوري. مؤسّسة الرسالة، ط١، ١٩٩١.
١٢٤. المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن: شرح ديوان الحماسة. تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون. دار الجيل، ط١، ١٩٩١.
١٢٥. المستعصمي، محمّد بن أيدمر: الدر الفريد وبيت القصيد. تحقيق: كامل سليمان الجبوري. دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠١٥.
١٢٦. مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم. تحقيق نظر بن محمّد الفاريابي. دار طيبة، ط٢، ٢٠٠٦.
١٢٧. ابن المعتزّ، عبد الله:
a. طبقات الشعراء. تحقيق: عبد الستّار أحمد فرّاج. دار المعارف، ط٣، ١٩٧٦.
b. البديع في البديع. دار الجيل، ط١، ١٩٩٠.
١٢٨. المعريّ، أبو العلاء: رسالة الغفران. تحقيق: عائشة بنت عبد الرحمن. دار المعارف، ط٩.
١٢٩. معن بن أوس المزنيّ: الديوان. تحقيق: نوري القيسي وحاتم الضامن. دار الجاحظ، بغداد، ١٩٧٧.
١٣٠. المغربي، الحسين بن علي: أدب الخواص في المختار من بلاغات قبائل العرب وأخبارها وأنسابها. تحقيق: حمد الجاسر. دار اليمامة للبحث

والترجمة والنشر، الرياض، ١٩٨٠.
١٣١. ابن منقذ، أسامة: لباب الآداب. تحقيق: أحمد محمّد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٨٧.
١٣٢. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد: مجمع الأمثال. تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم: عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٨.
١٣٣. النابلسي، عبد الغني: شرح ديوان ابن الفارض. تحقيق: محمّد عبد الكريم النمري. دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٧.
١٣٤. ابن الناظم، محمّد بن محمّد بن مالك: شرح ابن الناظم على ألفيّة ابن مالك. تحقيق: محمّد باسل عيون السود. دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠٠٠.
١٣٥. النسائي، أحمد بن شعيب بن علي: السنن الصغرى كتاب المجتبى. تحقيق: مركز البحوث وتقنية المعلومات. دار التأصيل، القاهرة، ط١، ٢٠١٢.
١٣٦. ابن نقطة، محمد بن عبد الغني: تكملة الإكمال. تحقيق: عبد القيوم عبد رب النبي. جامعة أمّ القرى، مكة، ط١، ١٩٨٧.
١٣٧. أبو نواس، الحسن بن هانئ: الديوان. تحقيق: إيفالد فاغنر. دار النشر: فرانر شتاينر، ١٩٧٣.
١٣٨. النووي، أبو زكريا محيي الدين: تهذيب الأسماء واللغات. إدارة الطباعة المنيرية، بيروت، ١٩٢٧.
١٣٩. النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب. دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.
١٤٠. ابن هشام، عبد الله بن يوسف:
a. تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد. تحقيق: عبّاس مصطفى الصالحي. دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٦.

b. مغني اللبيب. تحقيق: عبد اللطيف محمّد الخطيب. التراث العربي، الكويت، ط١، ٢٠٠٠.

١٤١. ابن الهبّاريّة، محمّد بن محمّد: الصادح والباغم. المطبعة الأدبيّة في بيروت، ١٨٨٦.

١٤٢. أبو هلال، العسكري: جمهرة الأمثال. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش. دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٨.

١٤٣. الهيثمي، علي بن أبي بكر:

a. كشف الأستار عن زوائد البزار. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩.

b. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. تحقيق: حسام الدين القدسي. مكتبة القدسي، القاهرة.

١٤٤. أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى التميمي: مسند أبي يعلى الموصلي. تحقيق: حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث، دمشق، ط٢، ١٩٨٩.

١٤٥. اليوسي، الحسن بن مسعود: زهر الأكم في الأمثال والحكم. تحقيق: محمّد حجّي ومحمّد الأخضر. دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨١.

extended circle of literary and likely spiritual elites.

At one hundred manuscript pages, *Maqāmāt al-Barbīr* is the longest *maqāma* we have ever encountered. It draws from multiple genres, plays with the line between literary imagination and life experience, engages in a number of contemporaneous debates, and offers a window into late eighteenth-century understandings of the *maqāma* as a literary form. For Arabic literary scholars and cultural historians alike, al-Barbīr's *Maqāmāt* are a rich and promising new source for understanding the complexity of an old literary form in the generations before the ostensibly new age of the Nahḍa.

Max Shmookler and Diaa al-Aswad

host and patron, and mentions the al-Murādī family by name in his *Maqāmāt*.(1)

Once al-Barbīr left al-Murādī's home, he moved to the suburban neighborhood of al-Ṣāliḥiyya outside of Damascus, married a woman from the al-Ṣalāḥī family, and may have had two daughters.(2) Aside from a trip to Tripoli in the Levant and a pilgrimage to Mecca in 1788, it seems al-Barbīr spent the last decades of his life in Damascus, dying in that city on the 12th of Dhū l-Hijja, 1226 or December 27th, 1811.(3)

Given the *maqāma*'s reflexivity and al-Barbīr's penchant for autobiography, it is not surprising that *Maqāmāt al-Barbīr* provides a rich portrait of the practices of and participants in *adab* exchanges in late eighteenth-century Damascus. Indeed, the narrator of *Maqāmāt al-Barbīr* makes mention of the literary salons and other gatherings much like those hosted by al-ʿAẓm. Moreover, he describes the social classes of elite Damascus, articulates his own position (and perhaps aspects of the position of his author) vis-à-vis the contentious issues of moral decline and decadence in the last decades of the eighteenth century, and offers explicit praise at multiple points for the values of hospitality and generosity embodied by al-Murādī and other elite patrons. Taken together, it is reasonable to conclude that *Maqāmāt al-Barbīr* was written to be read by the author's patrons and their

(1) The first of these two works, *Al-Muḥākama bayna al-māʾ wa-l-hawāʾ*, is often described as a *maqāma* (likely in the style of al-Suyuṭī). The second text was *Iqtibās āy al-Qurʾān fī madḥ ʿayn al-aʿyān*. Al-Qāyātī, *Nafḥat al-bashām*, 116; Bīṭār, *Ḥilyat al-bashar*, 102.

(2) For a social and economic history of al-Ṣāliḥiyya, see Toru Miura, *Dynamism in the Urban Society of Damascus: The Ṣāliḥiyya Quarter from the Twelfth to the Twentieth Centuries* (Leiden: Brill, 2015): esp. 205-279. As with his first wife, it has been difficult to ascertain details of al-Barbīr's second marriage. Al-Walī, "Al-Shaykh Aḥmad al-Barbīr," *Al-Fikr Al-Islāmī* 3, no. 5 (May 1972): 18; Al-Maʿlūf, "Al-Sayyid Aḥmad Al-Barbīr," 346.

(3) Al-Barbīr is buried in Safḥ Qāsiyyūn, in the burial place of the Banī l-Zakī near al-Shaykh al-Akbar. See Khayr al-Dīn Ziriklī, *Al-Aʿlām: Qāmūs Tarājim* (Beirut: Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn, 1980), 1:148; Bik, *Aʿyān al-qarn al-thālith ʿashr*, 146; Bīṭār, *Ḥilyat al-bashar*, 111. Bīṭār says he died on 18 Dhū l-Hijja.

their leisure time in public."[1] The sites of such public display are not only varied and classed, but seem to have served different audiences and different types of literary performance. While the coffee shops were a place for the retelling of popular epics, oral storytelling, and musical performance[2] and the cemeteries a place for social outings and romantic rendezvous,[3] gardens and other outdoor spaces served as both picnic sites and "arenas for competition" between poets and intellectuals (*ʿulamāʾ*).[4]

This was the world that attracted al-Barbīr. When he arrived in Damascus, he stayed with Muḥammad Khalīl bin ʿAlī al-Murādī (d. 1791), the Ḥanafī *muftī* of Damascus.[5] Al-Murādī was a major intellectual and spiritual figure of the time, from "one of the most venerable Damascene families" and hence "a legitimate arbiter of the cultural elite".[6] Al-Murādī's hospitality not only endeared al-Barbīr to the city, but indicates the extent to which al-Barbīr's literary ambitions were tied to the system of patronage and what Sajdi calls its "base", the elite household.[7] Al-Murādī would host gatherings at which al-Barbīr was introduced to scholars, littérateurs, and social elites of the city. To express his gratitude, al-Barbīr composed a number of panegyrics to al-Murādī, dedicated two further works to his

(1) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 20.

(2) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 74-76.

(3) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 29-30.

(4) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 53.

(5) Al-Ṭayyān, "Introduction," 14; Dimashqiyya, "*Tarjamat Al-Muʾallif*," 16; Al-Walī, "Al-Shaykh Aḥmad Al-Barbīr," *Al-Fikr Al-Islāmī* 3, no. 5 (May 1972): 17; and al-Maʿlūf, "Al-Sayyid Aḥmad Al-Barbīr," 345.

(6) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 61. Al-Murādī composed a number of biographical dictionaries, the two most important of which are: *Silk al-durar fī aʿyān al-qarn al-thānī ʿashar* and *ʿArf al-bashām fīman waliya fatwā Dimashq al-Shām*. For a reading of *Silk al-durar*, see Sajdi, *The Barber of Damascus*, 57-60. For al-Murādī's biography, see Bīṭār, *Ḥilyat al-bashar*, 3:1393ff; and Bik, *Aʿyān al-qarn al-thālith ʿashr*, 229-230.

(7) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 18-9.

conversation in the subsequent pages. Tellingly, the sole encounter that the narrator and the *adīb* have with another character in *Maqāmāt al-Barbīr* is a run-in with a man described as a "party-crasher" or *ṭufaylī*. Their disgust upon seeing this character, and the unceremonious manner in which they shoo him away from their table and out of the narrative, serves as a further indication of the contemporary anxiety about the dissolution of social distinctions.

New spaces and new attitudes towards space were also emerging, Sajdi argues, in this period. The rise of new elite families was accompanied by the construction of "ostentatious" buildings and palaces,[1] many of which were located by the Umayyad Mosque in central Damascus. There and elsewhere, al-Barbīr studied with a number of notable scholars,[2] including the Shāfiʿī scholar Aḥmad al-ʿAṭṭār (d. 1803)[3] and the Ḥanafī scholars Ḥusayn al-Mudarris (d. 1805)[4] and Muṣṭafā bin ʿAbd al-Wahhāb al-Salāḥī (d. 1849).[5] Sajdi sees the new buildings as part of a wider phenomenon of public display, in which "eighteenth-century Damscenes, Muslim or not, men or not, rich or not, seemed to spend — or desire to spend — much of

(1) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 16, 21.

(2) It appears that al-Barbīr's network of scholars was much wider. He seems to have received a certificate (*ijāza*) from the Shāfiʿī *ḥadīth* scholar Muḥammad al-Kazbarī "al-Ṣaghīr" (d. 1846). Although their accounts differ, see Bīṭār, *Ḥilyat al-bashar*, 3:1227–9; and ʿAbd al-Ḥayy Katānī, *Fihris al-fahāris wa-muʿjam al-maʿājim wa-l-mashyakhāt wa-l-musalsalāt* (Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1982), 1:487. Furthermore, al-Barbīr studied with the itinerant South Arabian Sufi and poet ʿAbd al-Raḥmān al-ʿAydarūs (d. 1778), the Azhar-educated Moroccan scholar Muḥammad al-Tāfalātī (d. 1777), and the *ḥadīth* scholar Muḥammad al-Bukhārī from Nablus. Al-Shaṭṭī, among others, claims that al-Barbīr studied with Murtaḍā al-Zabīdī. For details, see al-Walī, "Al-Shaykh Aḥmad Al-Barbīr," *Al-Fikr Al-Islāmī* 3, no. 7 (July 1972): 54; Al-Maʿlūf, "Al-Sayyid Aḥmad al-Barbīr," 346; and al-Shaṭṭī, *Rawḍ al-bashar*, 23. In addition, Peter Gran claims that al-Barbīr studied with Ḥasan al-ʿAṭṭār (d. 1835). Gran, *Islamic Roots of Capitalism*, 76–91.

(3) Bīṭār, *Ḥilyat al-bashar*, 1:239–41.

(4) Bīṭār, *Ḥilyat al-bashar*, 1:249.

(5) Bīṭār, *Ḥilyat al-bashar*, 3:1539. Al-Salāḥī wrote a commentary upon al-Barbīr's collection of *badīʿiyya.* Bik, *Aʿyān al-qarn al-thālith ʿashr*, 145.

> [Damascus] is home to all kinds of people: notables, scholars, merchants, soldiers, mystics, shopkeepers, prostitutes, possessed individuals. It is a city where natural and divine grace abound, but it is also a place of mysterious murders and curious suicides, of immoral revelry and marital infidelities.(1)

For Sajdi, Ibn Budayr's perception of the spreading vice — a perception shared by and discussed at multiple points by the characters of al-Barbir's *Maqāmāt* — is one aspect of his reaction to a broader "reshuffling of the social topography."(2) This reshuffling, which Sajdi also calls the "disorder of the new order," includes the loosening of religious bonds, the spread of leisure activities such as smoking and drinking coffee, and dramatic increases in the mixing of genders, religious groups, and social classes in the new public spaces such as gardens and coffeeshops where such activities took place. Alongside this social upheaval, periodic economic and political grievances over the perceived manipulation of grain prices brought both peaceful protests and paroxysms of violence between ruling elites, competing military factions, and desperate commoners throughout eighteenth-century Damascus.(3)

These social, economic, and political upheavals were understood by many contemporary chroniclers to signal a period of crisis and decline, which al-Barbīr articulates through the *maqāma*'s trope of *dahr*, or fickle fortune. Al-Barbīr's narrator bemoans the cultural and moral decline of his adopted city, and the loss of learning and etiquette (*adab*). Indeed, when he first encounters the *adīb*, it is their quick and mutual recognition of certain shared moral and intellectual virtues that cements their bond and becomes a frequent topic of

(1) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 14.

(2) Sajdi, *The Barber of Damascus*, 20.

(3) Grehan, *Everyday Life*, 78-92.

Egypt; worked as a *muftī* in Beirut; and eventually migrated to Damascus, "the most important urban metropolis in the Ottoman Levant" in the words of Dana Sajdi.(1) Significant aspects of al-Barbīr's biography inform his *Maqāmāt*, from his early education to his successful bids for the patronage of some of the most elite families in Damascus. Insofar as the narrator's own travels mirror the author's, the text can be read as a gushing panegyric to al-Barbīr's adopted home of Damascus and a vigorous rejection of the intellectual and cultural milieu in Beirut. In this sense, *Maqāmāt al-Barbīr* may be of interest not only to scholars of Arabic literature, but to social and cultural historians focused on the period predating the upheavals of the *Nahḍa* and the encounter with colonial modernity.

Eighteenth-century Damascus, the setting of al-Barbir's *Maqāmāt*, has been the object of a number of recent studies, allowing us to situate both author and text within the intellectual and social environment of that time. Drawing on chronicles and diaries composed by six different figures over the course of the eighteenth century, Samer Akkach describes Damascus as the site of a "culture of leisure and entertainment" (*thaqāfat al-tanazzuh wa-l-tarfīh*).(2) Dana Sajdi calls the city a "veritable habitat" through which she traces the emergence of chroniclers from marginal social classes into elite literary culture. Through the story of Ibn Budayr, one of the six chroniclers studied by Akkach, Sajdi traces the social world of Damascus in its diversity:

(1) Dana Sajdi, *The Barber of Damascus: Nouveau Literacy in the Eighteenth-Century Ottoman Levant* (Stanford, California: Stanford University Press, 2013), 2.

(2) Samer Akkach, *Yawmiyyāt Shāmiyya: Qirāʾa fī l-tārīkh al-thaqāfī li-Dimashq al-ʿuthmāniyya fī l-qarn al-thāmin ʿashr* (Beirut: Bīsān li-l-Nashr wa-l-Tawzīʿ, 2015), 51-2. Bruce Masters, in a study of four of these same chronicles, argues that the chroniclers all see the city of Damascus "as the central stage" for their narratives. Masters describes this centrality of Damascus as a form of "urban parochialism" which underlay religious, linguistic, and ethnic divisions in eighteenth-century Ottoman Syria. Bruce Masters, "The View from the Province: Syrian Chronicles of the Eighteenth Century," *Journal of the American Oriental Society* 114, no. 3 (1994): 358.

Barbīr's most influential hosts and benefactors, the Damscene *muftī* Muḥammad Khalīl bin ʿAlī al-Murādī. The little we know of the history of the manuscript indicates that long passages were included without any clear attribution (and therefore perhaps plagiarized?) by Rifāʿa Rāfiʿ al-Ṭahṭawī (d. 1873).(1) This itself raises the largely speculative question of whether the manuscript may have been acquired and brought to Egypt by al-Ṭahṭawī's teacher, Ḥasan al-ʿAṭṭār (d. 1835).(2)

Aḥmad al-Barbīr himself was born in the town of Damietta in the Egyptian Delta on the 21st of January 21, 1747 (the 10th of Muḥarram 10, 1160). His full name was Aḥmad bin ʿAbd al-Laṭīf bin Muḥammad al-Barbīr and he came from a distinguished line of Levantine scholars.(3) His father, ʿAbd al-Laṭīf al-Barbīr, was a trader from Mount Lebanon who migrated to Damietta in the early decades of the eighteenth century.(4) Al-Barbīr was raised and educated in

(1) Al-Ṭahṭawī quotes without attribution a four-page excerpt from *Maqāmāt al-Barbīr* in his writings on education and upbringing (*al-tarbiya*). See Muḥammad al-ʿImāra, ed., *Al-Aʿmāl al-kāmila li-Rifāʿa Rāfiʿ al-Ṭahṭawī* (Beirut, Lebanon: Al-Muʾassasa al-ʿArabiyya li-l-Dirāsāt wa-l-Nashr, 1973), vol 2., pp. 586-590.

(2) Given that al-Barbīr died in 1811, when al-Ṭahṭawī was only ten years old, one plausible explanation for al-Ṭahṭawī's knowledge of *Maqāmāt al-Barbīr* is that his teacher al-ʿAṭṭār acquired al-Barbīr's text during his time in Damascus and brought it back to Egypt. This line of inquiry deserves further pursuit.

(3) Aḥmad al-Barbīr's grandfather was named Aḥmad al-Sharīf al-Barbīr. The family was known by the surname al-Qaḥf until one family member began to work as a barber and doctor (a single profession at the time), and assumed the name al-Barbīr, an Arabized form of the Italian word for barber (*barbiere*). For more on his family, see: ʿĪsā Iskandar al-Maʿlūf, "Al-Sayyid Aḥmad al-Barbīr," *Al-Āthār* 3, no. 8 (May 1914): 342; Ṭaha al-Walī, "Al-Shaykh Aḥmad al-Barbīr: Muftī Bayrūt," *Al-Fikr al-Islāmī* 3, no. 3 (March 1972): 23-4.

(4) Damietta and other large towns in the Egyptian Delta witnessed an influx of Syrian and Greek merchants in this period as France competed with Venice for control of trade with Europe. In 1769, with the support of the French, Mikhāʾīl Fakhr and Yūsuf Bīṭār, two Syrian emigres, took control of the customs in Alexandria and Damietta, respectively. More broadly, the mid-eighteenth century witnessed an increase in competition in the commercial sector, a growth of private property (some of which was *waqf* land), and a rise in the value of Egyptian agricultural land as the global demand for rice grew. See Peter Gran, *Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760-1840* (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1998), 9, 11, 26-27.

Introduction to Maqāmāt al-Barbīr

Maqāmāt al-Barbīr was composed by the gifted *adīb* and unhappy *muftī* of Beirut, Aḥmad al-Barbīr (1747-1811). Although it is titled "*maqāmāt*" in the plural, the text comprises a single *maqāma* episode which, in manuscript form, is precisely fifty folio pages long. The sheer length of the narrative is a clear divergence from the short episodic structure of the canonical *maqāma* collections, as is the conspicuous absence of key elements of the genre, most notably the trick (*ḥīla*). This suggests that al-Barbīr understood the genre of the *maqāma* quite differently from the genre's originators, al-Hamadhanī and al-Ḥarīrī, as well as his Nahḍa-era successors, such as ʿAbdallah al-Nadīm, Muḥammad al-Muwayliḥī, Nāṣīf al-Yāzijī, and Aḥmad Fāris al-Shidyāq. In making *Maqāmāt al-Barbīr* available in print for the first time, we hope to encourage scholars and students of the *maqāma* to consider new texts and historical periods in future literary critical work on this genre.

The only extant witness of *Maqāmāt al-Barbīr* is in a bound volume held in Dār al-Kutub in Cairo, Egypt.(1) Al-Barbīr almost certainly composed his *Maqāmāt* after he had left his position as *muftī* of Beirut and moved to Damascus in 1775, where he settled in among the Syrian intellectual elite. While the colophon does not provide a date of composition, *Maqāmāt al-Barbīr* was almost certainly written after 1781, when al-Barbīr left Beirut to take up residence in Damascus and began to settle in among the Syrian intellectual and cultural elite, and perhaps before 1791, the year which witnessed the passing of one of al-

(1) We must thank Dr. Maurice Pomerantz, who initially shared a digital copy of the text. The shelfmark for Maqāmāt al-Barbīr is 480 Adab, which can be found in the catalogue of the Khidīwiyya Library, Vol. 4., p. 328.

Bibliografische Information der Deutschen Nationalbibliothek
Die Deutsche Nationalbibliothek verzeichnet diese Publikation in der Deutschen Nationalbibliografie; detaillierte bibliografische Daten sind im Internet über http://dnb.dnb.de abrufbar

Für den arabischen Raum: In Kommission bei Dar al-Farabi, Beirut
ISBN: : 978-614-485-188-3

© 2022 Orient-Institut Beirut (Max Weber Stiftung)

Das Werk einschließlich aller seiner Teile ist urheberrechtlich geschützt. Jede Verwertung des Werkes außerhalb des Urheberrechtsgesetzes bedarf der Zustimmung des Orient-Institut Beirut. Dies gilt insbesondere für Vervielfältigungen jeder Art, Übersetzungen, Mikroverfilmungen sowie für die Einspeicherung in elektronische Systeme. Gedruckt mit Unterstützung des Orient-Institut Beirut in der Max Weber Stiftung – Deutsche Geisteswissenschaftliche Institute im Ausland – aus Mitteln des Bundesministeriums für Bildung und Forschung.

Druck: Arab Scientific Publishers

Gedruckt im Libanon

MAQĀMAT AL-BARBĪR

AḤMAD AL-BARBĪR

EDITION

MAX ROBERT SHMOOKLER

MOHAMMAD DIAA EDDIN ALASWAD

BEIRUT 2022

IN KOMMISSION BEI

BIBLIOTHECA ISLAMICA

GEGRÜNDET VON HELLMUT RITTER

HERAUSGEGEBEN VOM

ORIENT-INSTITUT BEIRUT

BAND 50

MAQĀMAT AL-BARBĪR